

فوق العباب



أحمد زكي أبو شادي

فوق العباب

فوق العباب

تأليف
أحمد زكي أبو شادي



هنداوي

رقم إيداع ٢٠٤٤٧/٢٠١٣

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٥٠٣ ٤

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧

٢٣

٢٥

تصدير

إهداء الديوان

فَوْقَ الْعُبَابِ

تصدير

في هذا الديوان كثيرٌ من شعري الذي نظمته في سنة ١٩٣٤م، بين شواغلي الكثيرة التي تضاعفت إلى درجةٍ مرهقةٍ يراها النُّقادُ كفيلاً بالقضاء على إنتاجٍ أيّ شاعرٍ، ولكن هذه الشواغل في الواقع كانت بين العوامل التي جعلتني ألجأ إلى الشعر أبثه آمالي وآلامي، ولا يعنيني بعد هذا إلا كما تعينني صُورُ حياتي أتأملها فأستعيد من الذكريات ما فيه غذاءٌ عواطفي.

وقد شهدَ هذا العامُ حفاوةً مزداةً بالشعر الحديث ولكنَّ دائرةَ هذا الشعر ما تزال برغم ذلك محدودةً. ومن الحقِّ أن نقرر ذلك وأن نعترف بأن الشعر الغالب في العالم العربي وفي مصر خاصة هو ما يمثله نظم الجارم وعبد الله عفيفي والماحي وأقرانهم، وهو شعرٌ فيه غالباً مراثي الماضي في ألفاظ موسيقية تقليدية. وقد اعترف أستاذنا مطران بذلك في تقديمه الشعري الصريح لديوان الماحي الذي لم يثر عليه إلاَّ المجدِّدون المتشدِّدون، بعكس الكثيرين من الأدباء — ومن بينهم بعضُ المجدِّدين المتسامحين كمحمود عماد — فهؤلاء قد رأوا في شعر الماحي فخراً للأدب العربي وعدوه مرآته في هذا العصر.

إزاء هذا لم أكن أنتظر أن يجراً شاعرٌ من شعراء الشباب كمختار الوكيل ويتشبَّه بتأليف كتابه «رُود الشعر الحديث» وبأن يضعني بين أعلامه، فهذا «الشعر الحديث» محصورُ الدائرة، ثم إنَّ أعلامه هؤلاء محصورو النفوذ، وأنا أقلُّهم نفوذاً وإن كثرت ميادين إنتاجي. ولكن هي الرغبة الفنيَّة التي ألحَّت على ذلك المؤلف الشاعر فأبى إلا أن يشيد بمذاهب «الشعر الحديث» وأن يذكر خُدَّامه العاملين على نصرته الذين يتمنون مثلي اقترابَ عزَّته وإن لم أشاركهم في تفاؤلهم التام.

نعم، إنِّي أقلُّ هؤلاء نفوذًا وأقلهم تفاعلاً بالنسبة لهذا الجيل، وإن كنتُ أكثرهم دأبًا وإنتاجًا، وقد أوثرتُ باتجاهاتي في بعض الشعراء ولكنَّ عددهم محدودٌ، وإذا سرى تأثيرهم بين الشعراء الناشئين فالفضلُ لهم وليس لي، فإنَّ حالي في عُزَلتي النسبية، وفي استقلالي الفكري والتعبيري أشبهُ بحال الشاعر وليم بليك، وإن كنتُ لم أنتج بعد مثل إنتاجه، فقد بلغت دواوينه الشعرية مائة مجلد ضاعت جميعها، ولولا المواظبة على طبع إنتاجي الجديد تلبيةً لإلحاح خلصائي — وهم شطُرٌ من نفسي — وتلبيةً لنوازي الوجدانية، لضاع هذا الشعرُ كما ضاع غيره من قبل دون أن تحسَّ بفقده جمهرةُ الأدباء في هذا الجيل.

إذن لست أدعي لهذا الشعر أية مكانة في نفوس الأدباء المعاصرين عامةً، وإن كانت له مكانة في نفوس مريديي من خاصّة المتعلمين وهؤلاء قليلو العدد. وإذا كان بعضهم قد تفضّل وعاونني أدبيًّا على دراسة مؤلفاتي الشعرية فليس معنى ذلك أنني أقرُّ كلَّ ما كتبتُ عني من تقدير نقدي، وإن اعترفتُ بقيمته الأدبية كتيبان لما تراه بيئته الشاعر الخاصّة في شعره وعوامله واتجاهاته، وهذه نقطٌ لها قيمتها الفنية في التأريخ الأدبي، خصوصًا إذا كان الشاعر غريبًا في تفكيره وأخيلته وتعايره الطليقة عن المألوف في عصره.

وإذا كنتُ قد تناولتُ قبلاً أو أتناول الآن بالتعليق في هذه الصفحات أو في غيرها بعضَ النقط الفنية المتصلة بالشعر، فإنما هو تناول المؤمن المدافع عن إيمانه، لا أملًا في الإقناع والبيئة غيرُ مستعدّة له، ولكنَّ تنفيسًا للآراء المكبوتة وتزكيةً عن الفنِّ المقدّس وبرًا بوفاء المريدين الغيورين. وكثيرًا ما قلتُ لهؤلاء الخلّان: إنني لا أنتظر أن يُعنى بمثل هذا الشعر العناية الكافية في حياة صاحبه مهما غالينا في التأميل، وإن أمرَ نشره لا صلة له بالعناية المرتقبة ولا المرجوة، وإنما هو حاملُ رسالةٍ فنيةٍ هي من صميم كيانه وهي التي تزجيه إلى الظهور في هذه الصفحات المطبوعة سواء ألقّت هذه الرسالة إقبالًا عليها أم إعراضًا عنها، وقد تكون رسالةً إلى المستقبل قبل أن تكون رسالةً إلى الحاضر.

ينادي المنادون من أصدقائنا المحافظين وأنصاف المجدّدين بأن الشعر «موسيقى» قبل كل اعتبار آخر، ونحن لا نفهم من الشعر إلّا أنه «شعر» قبل كل اعتبار آخر، وليس معنى هذا أننا نكره اقتران الشعر كفنٍّ بفنون أخرى وفي مقدمتها الموسيقى، ولكننا نأبى تبعية الشعر لأيّ فنٍّ سواه وإن رحبنا بمزاملته غيره من الفنون الملائمة له.

لنأخذ مثلاً قولَ ابن الروميِّ وصفًا لهاجرةٍ في صحراء:

وهاجرةٌ بيضاءٌ يُعدى بياضُها	سوادًا كأنَّ الوجهَ منه محمَّم
أظلُّ إذا كافحتُها وكأنني	بوهَّاجها دونَ اللَّثامِ ملثَّم
بديمومةٍ لا ظلَّ في صحَّحانها ^١	ولا ماءً، لكن قورُها ^٢ الدهرَ عومُ
ترى الآلَ فيها يلطمُ الآلَ مائجًا	وبارحُها المسمومُ للوجهِ الطمُّ

فليس لهذه الأبيات في نظر أنصار التمتع والرخاوة أيَّ جمالٍ موسيقيٍّ، وألفاظها ذاتُ قسوةٍ وجفوةٍ في اعتبارهم، ولكننا نعدُّها جدًّا ملائمةً لموضوعها ونحفل بقوتها، ونعتبر موسيقاها طبيعيةً منسجمةً وموضوعها ومستمدةً من صميم معانيه. ويقول المتفلسفون منهم: إنَّ الموسيقى الساحرة ضرورية للشعر (وهم لا يعنون في الواقع إلاَّ الموسيقى الناعمة) لأنها تخدِّر أعصابَ القارئ أو المستمع أو عقلهما الباطن إلى درجة تجعل معانيه تتسلَّل إلى الذهن غيرَ مستأذنةٍ فتبلغ معانيه غايتها من النفس وتؤدِّي رسالتها. وعندنا أن هذا لا ينطبق عادةً إلاَّ على أصحاب العقول البدائية من أشباه العامة أو على أهل الثقافة المحدودة أو على ذوي الأمزجة العصبية الشديدة، وأمَّا ذوو الثقافة الواسعة المتزنون فتكفي لاستهوائهم تلك القوة التصويرية الرائعة في أبيات ابن الرومي الأربعة، فإذا بهم يتمثلون أمامهم أصدق التمثُّل حالةَ الهاجرة في الصحراء وكأنهم فيها، وحسبُ الشعر أن يكون له من ذاتيةٍ خياله هذا التأثيرُ الغلاب على النفوس المتقفَّة دون أن يحتاج إلى الصناعة الموسيقية لإثبات شخصيته الفنية التي لا تحتاج إلى وصيٍّ عليها لا من الموسيقى ولا من غيرها.

ومن هذا القبيل قصيدة «أعمار الإنسان السبعة» لشكسبير؛ فإنها من الشعر المرسل، وليست لها أية موسيقى بالمعنى الذي ألفه أصحابنا المحافظون ومن شايِعهم، ومع ذلك فهي آيةٌ من الشعر التصويريِّ الفلسفيِّ، وكلُّ أديبٍ مثقفٍ يعرف الإنجليزية يستمتع بتلاوتها كما يستمتع بتلاوة «خطاب مارك أنطوان على جثة قيصر» لشاعرنا نفسه وبأمثال هذا الشعر العبقريِّ في مؤلفاته العديدة، ومعظمه من الشعر المرسل البعيد عن

^١ صححانها: المستوى الأجرد منها.

^٢ قورها: جبالها الصغيرة المنقطعة بعضها عن بعض.

الموسيقى الغنائية الرتبية — ذلك لأن قوة هذا الشعر الذاتية كافية من تلقاء نفسها لاستهواء النفوس المثقفة المتزنة بغير ما حاجة إلى الصناعة الموسيقية التي لا محل لها في غير الشعر الليريكي الخالص. وكم من جنائيات على الشعر يرتكبها باسمه أولئك المزماريون الذين ليس لهم حظ كبير من الطاقة الشعرية وإنما كلُّ حظهم محصور في قدرتهم الموسيقية! فيشجعهم تصفيق الجمهور الذي يستهوونه على العبث بتعريف الشعر وأغراضه، ولا يغنم الأدب الصحيح منهم شيئاً، بل هم يسيئون إليه بصرف المتأدبين عن إنتاج أعلامه المنجبين الحريصين على استقلاله.

وبديهياً أننا لا ننكر أثر الموسيقى العظيم على النفوس، بل لن ننكر أثر جميع الفنون الجميلة، ولا ننكر أن للشعر نبعاً من الموسيقى، ولكن ذلك هو الشعر الغنائي الديني والوجداني الأصيل، ولا ينسحب هذا الحكم على الشعر العالي الذي يستند إلى ذاتيته قبل أن يستند إلى عون الموسيقى. ومن ذا الذي يُنكر أثر الموسيقى النفساني في رفاهة السلم وفي عُنف الحرب، أو ينكر أثرها الشديد في النفوس العصبية، حتى إن القدماء كانوا يستعملونها في تخفيف ألم المصاب بلدغ العناكب السامة، وما يزال السحرة في أفريقيا وغيرها يعتمدون عليها في تطبيبيهم؟ ولعل من أبرز الأمثلة للتأثر الموسيقي ما حُكي عن المغنية الإسبانية الشهيرة أديلينا باتي فقد كانت تبدو العبرات إلى مقلتها وتضطر إلى مغادرة الردهة كلما طرقت سمعها أنشودة راعتها من أناشيد بيتهوفن! فالصلة الوثيقة بين الموسيقى والأعصاب أمرٌ غير منكور، وعلينا أن نكبر الشاعر البارِع الذي يستطيع أن يمزج فنه بين أسر الموسيقى الخلابة وقوة العاطفة وروعة الخيال وإشراق الديباجة في وحدة متجانسة ساحرة. ولكن هذا المزيج غير مستطاع إلا في النادر مهما تكن براعة الشاعر — ذلك لأن الشعر العالي يتطلّب التعمق الفكري والسمو الخيالي والتطلع الإنساني البعيد، وهذه عناصر تستدعي تحرُّر الشاعر وطلاقته اللفظية حتى تتجه شاعريته إلى الإبداع القوي الحرّ بدل أن تكون أسيرة الموسيقى. وهذا ملحوظ عند أبي تمام، والمعري، ودانتي، وشيلي، وجيته، وملتون، وأضرابهم بصورة واضحة لا نزاع فيها. وهيهات أن يصل إلى مرتبتهم الشعرية العالية أمثال البحري، وابن زيدون، وسوينبرن، وديفز، وأشباههم ممن كان طبعمهم موسيقياً غنائياً قبل أن يكون شعرياً عالياً. ولا غرابة في ذلك فإن المزاج الفني قد يتوزع أو قد يتداعى، وخصوصاً في ذوي الأمزجة العصبية المرهفة، ومن الأمثلة البارزة في وقتنا هذا النجمتان السينمائيتان ماي كلاك، ويليان بوند فإن لهما شعراً رائعاً مردداً في أمريكا ومتناقلاً في غيرها.

لنرْحَبُ بالشعر الموسيقي الحبيب وبالشعر العاطفي الخالص، ولنعرفُ لمثل هذا الشعر قَدْرَهُ. ولكن يجب ألا ننسى أن الشعر ليس هذا فحسب، بل إنَّ فلسفة الشعر تذهب إلى أبعد من هذا^٢ وإن أسمى الشعر ليس وليد الألحان الرتيبة، وليس الشعر الغنائي بالمقصور على الشعر العاطفي وحده^٣ دع عنك شعر الرخاوة والتميع أو شعر الخشونة الفظ الذي ينعته بعضُ الأدباء بشعر الرجولة، كأنما الحب الظافر الحقيقي أمرٌ واغتصابٌ وليس تجاوباً تاماً بين الجنسين!^٤

وليس من شك في أن جمهرة الناس لا تُعْنَى بالخواطر الشعرية العميقة ولا بالمثُل العليا في الشعر، وإنما كلُّ ما يشجئها هو النغمُ الأسرُّ، ومن ثمة كانت الموسيقى مقدّمة على التعابير في الأناشيد العامة بعكس ما يتخيله معظمُ شعرائنا. ولولا الرُوحُ العاميةُ في الأدب لما أنكرتُ طويلاً شاعرية الفحول المفكّرين من أعلام الشعر العربي ولما بقي أبو تَمّام إلى وقتنا هذا لا يُعْنَى بعبقريته العناية الواجبة.^٥ ومَن ذا الذي يستسيغ من المزمارين مثل هذا الشعر الرائع لأبي تَمّام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات حتى يلهج بذكر شاعريته القوية:

دِيْمَةٌ سَمْحَةٌ الْقِيَادِ سَكُوبٌ	مَسْتَعِيْثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نُعْمَى	لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيْبُ
لِذِّ شَوْبُوبِهَا وَطَابَ فُلُو تَسْ	طِيْعٌ قَامَتْ فَعَانَقَتْهَا الْقَلُوبُ
فَهِيَ مَاءٌ يَجْرِي وَمَاءٌ يَلِيهِ	وَعَزَالٍ ^٧ تَنْشَأُ وَأُخْرَى تَذُوبُ
كَشَفَ الرُّوْضُ رَأْسَهُ وَاسْتَسْرَّ الـ	مَحَلُّ مِنْهَا كَمَا اسْتَسْرَّ الْمُرِيْبُ!

^٢ انظر ديوان «الشعلة» ص ٧-١٠.

^٤ أشهر الأغاني العالمية في هذا العام اللحم الساري، وجزيرة كابري وللتصوير فيهما نصيب غير قليل.

^٥ في قصيدة رائعة للشاعر الإنجليزي لورنس تصوير الأنفة من المرأة المستسلمة في غير حب حقيقي.

^٦ انظر كتاب «هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام» تأليف الشيخ يوسف البديعي وشرح الأستاذ محمود مصطفى.

^٧ جمع عزلا. وهو مصب الماء من الراوية.

أو قوله في سليمان بن وهب:

لَحَبَّتْهُ الْأَيَّامُ فِي «مَلْحُوبٍ»^٨
 دَمَعٌ مِنْ مَقْلَتِكَ قَوْدَ الْجَنِيْبِ
 بِنَجِيْعٍ بَعْبِرَةٍ مَصْحُوبِ
 وَوَجَعَتْ عُذْرٌ مِنَ التَّشْبِيْبِ
 نِي مِنْ كُلِّ حُسْنٍ وَطِيْبِ
 وَمُرِيْبِ الْأَلْحَاطِ غَيْرِ مُرِيْبِ
 وَزَمَانِ مِنَ الْخَرِيْفِ حَسِيْبِ
 لَلَّ فِي لَوْعَتِي وَلَا فِي نَحِيْبِي
 وَدُعَائِي بِالْقَاعِ غَيْرِ مُجِيْبِ
 مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ
 سِ إِذَا مَا أَتَتْ «أَبَا أَيُّوبٍ»^{١١}
 عَقْدَةُ الْعِيِّ فِي لِسَانِ الْخَطِيْبِ
 كُلُّ عَجِيْبٍ فِي عَيْنِهِ بَعَجِيْبِ
 حِ إِلَى حَيْثُ صرَخَةُ الْمَكْرُوبِ
 مَدْحٍ مِنْ تَاجِرٍ بِهَا مَسْتَثِيْبِ
 قَوْمٍ: مَنْ صَاحِبُ الرِّدَاءِ الْقَشِيْبِ؟
 رَاحَ طَلْقًا كَالْكُوكِبِ الْمَشْبُوبِ
 رَفُ حُسْنًا مِنْ مَاجِدٍ مَسْلُوبِ
 شَوْقٍ وَجَدَانٍ غَيْرِهِ بِالْحَبِيْبِ
 فَهُوَ شِعْبِي وَشِعْبُ كُلِّ أَدِيْبِ

أَيُّ مَرَعَى عَيْنٍ وَوَادٍ قَشِيْبِ
 نَدُّ عَنكَ الْعِزَاءُ فِيهِ وَقَادِ الْ-
 صَحِيْبَتْ وَجَدَكَ الْمَدَامُ فِيهِ
 أَخْلَبَتْ بَعْدَهُ بَرُوقٌ مِنَ اللَّهِ-
 رَبِّمَا قَدْ أَرَاهُ رِيَّانَ مَكْسُوءِ الْمَعَا-
 بِسَقِيْمِ الْجَفُونِ غَيْرِ سَقِيْمِ
 فِي أَوَانٍ مِنَ الرَّبِيْعِ كَرِيْمِ
 فَعَلِيْهِ السَّلَامُ، لَا أَشْرَكَ^٩ الْأَط-
 فِسْوَاءُ إِجَابَتِي غَيْرَ دَاعِ
 رَبِّ حَفِضٌ تَحْتَ السَّرَى وَغِنَاءِ
 مَا عَلَى الْوُسْجِ الرَّوَاتِكِ^{١٠} مِنْ عَتْدِ
 سُرْحُ قَوْلِهِ إِذَا مَا اسْتَمَرَّتْ
 لَا مُعْنَى بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا
 سَدِكُ الْكَفِّ بِالنَّدَى عَابِرُ السَّمِّ
 لَيْسَ يَعْزَى مِنْ حَلَةٍ مِنْ طَرَازِ الْ-
 فِإِذَا مَرَّ لِابَسَ الْحَمِدِ قَالَ الْ-
 وَإِذَا كَفُّ رَاغِبٍ سَلْبَتُّهُ
 مَا مَهَاةُ الْجَمَالِ مَسْلُوبَةٌ أَظْ
 وَاجِدُ بِالْخَلِيْلِ مِنْ بُرْحَاءِ الْ-
 كُلُّ شِعْبٍ كُنْتُمْ بِهِ آلٌ وَهَبِ

^٨ لحيته: سلكته، وملحوب: موضع في بلاد العرب.

^٩ شركه في الأمر كعلمه: شاركه.

^{١٠} الوسج الرواتك: السريعة العدو.

^{١١} أبو أيوب: كنية سليمان بن وهب المدوح.

كلُّ يومٍ تزخرفون فنائي
 إنَّ قلبي لكم لكالكبدِ
 بحياءٍ فرِّدٍ وبرٍّ غريبِ
 الحرَّى وقلبي لغيركم كالقلوبِ
 لسْتُ أدلي بحرمةٍ مستزيدًا
 في وداٍ منكم ولا في نصيبِ
 لا تُصيبُ الصديقَ قارعةُ التآ
 نيبي إلا من الصديقِ الرَّغيبِ
 غير أنَّ العليلَ ليس بمذمو
 مٍ على شرحٍ ما به للطبيبِ

مثلُ هذا الشعر القويُّ الأصيل لا يُرضي أدباء التميُّع أو أدباء الرقة والظرف الذين يحصرون عنايتهم في شعر ابن مطروح والشابِّ الظريف ومَنْ جرى مجراهما، حتى ليحصروا الشعرَ في النكتة البارة وفي الطراوة والموسيقى المجارية لها، صادفين عن الشعر المتين المنقَّب في خفايا النفوس المعبَّر عن أصالة الحياة.

لا بدَّ للفنَّان المعبَّر من أدوات التعبير الملائمة، فلا مفرَّ له إذن من استيعاب فنون الأدب وتَقصِّيها حتى يشتمل عليها، وحينئذٍ له أن يستقلَّ بديابجته التي هي رمزُ شخصيَّته، وأمَّا الرُّوحُ الفنيَّة ذاتها فطبيعةٌ فطريةٌ وإن صقلها الاطِّلاعُ والتجربةُ والمرانةُ. والطلاقةُ الفنيَّةُ صفةٌ فطريةٌ في كلِّ فنَّانٍ موهوبٍ، وهو إذا بدأ تقليديَّ النزعة — كما يقع كثيرًا — فسرعان ما تُعلنُ شخصيَّته استقلالها فتتجلى الطلاقةُ لا في مناحيه وحدها بل في ديباجته أيضًا. ولسنا بحالٍ من أنصار الفوضى اللغوية أو النظامية، ولكننا نعذر الفنَّان الضليع إذا أبت طبيعتهُ الخالقةُ أن تقف عند المعايير والمقاييس المقررة ورفضتِ النزول إلى مستوى الجماهير بل أرسلت فنَّها طليقًا معتزًا بشخصيته مهيِّبًا بالخاصة قبل أن يهيب بالدهماء ومرتفعًا بالجماهير عن طريق أولئك الخاصة والمريدين الذين ينبون عن الفنَّان في نشر رسالته.

قد يستجيبُ الفنَّانُ وقد لا يستجيب لرغبات الجماهير وفقًا لطبيعته الفنيَّة، ولكنَّ الفنَّان الصادق لن يُضحِّي بفنِّه لمجرد إرضاء الجماهير ولا لأيِّ اعتبار، وإنما هو يُضحِّي بالشهرة الميسورة وبالمتع التي في متناول يده إنصافًا لفنِّه. فلا يثنيه ما يُعابُّ على اتجاهاته الخاصة وعلى لغته وعلى أخيلته من أصالةٍ غريبة، لأنَّ فنَّه هو من نبع نفسه وموجَّهٌ أولًا وأخيرًا إلى نفسه وإلى خالص نفسه، وهو إذا التفت إلى النقد فإنما لفتَّته فنيَّةٌ محضةٌ جامعة بين المبالاة وعدمها؛ مبالاة من ينشد الكمال ويهمله كما يهمل الصوفيُّ أن يقف على آراء الناقدین المخلصين، وعدم المبالاة بنفور المغرضين أو أنصار التقليد

العازفين عن كل إبداع وتجديد، ناسين ما وراء ذلك من خلق ثروة فنية جديدة للغتهم بدل الاكتفاء بالقديم المعاد.

لن يعرف الفن غير الفنان. وإذا كان الفن في طبيعته هو الصورة الحية للوجود وما خلف الوجود، فهو بالنسبة للفنان ملاذٌ روحي يهرع إليه فراراً من شقاء الحياة، فيستمد الأمل والثقة بالمستقبل. فالشاعر الموهوب الذي يقرض الشعر في شتى الأغراض إنما يَصوِّر الحياة وما خلفها مما ينعكس في مرآة نفسه، وتلك الصور على تقاربها أو تباينها هي ملجأ لوجدان الشاعر ومُتنفِّس له. فكيف يُطالب الشاعر بعد ذلك بأن يتحوَّل تحوُّلاً آلياً لإرضاء الجماهير، كأنما الشعر ليس من نفس صاحبه، وكأنما هو ليس بالمجهود العصبي العنيف حتى ولو كان مرتجلاً ارتجالاً؟

يرى تاجور أن الناس في هذا العصر الماديّ الآليّ السريع الحركة الدائم التجارب والتقلُّب بعيدون عن تدوُّق العمل الفني وتقديره التقدير الصحيح، إذ لا وقت عندهم لشيء من ذلك، وهم عاجزون تبعاً لهذه الحالة عن تفهُّم الجمال الفني وعن التعبير عنه، وهو ينفي أن للنهضة العلمية أثراً في هذه الحالة التي يعدُّها من أعراض الشيخوخة، فإنَّ الحاسة الشعرية في رأيه من صفات الشباب، فإذا ما فارقت بيئةً من البيئات فقل: إنها في دور الشيخوخة الفنية.

ويلوح لنا أنَّ هذه مظاهر عارضةٌ في سيرة الأمم تبعاً للظروف العامة فيها، وهي غالباً من ردِّ الفعل لما قبلها، ومن العجيب أنَّ هذه المظاهر قد تتحوَّل من نقيض إلى نقيض، فقد تشغل المشاكل الاقتصادية أو الحربية أو السياسية أمةً من الأمم شغلاناً كبيراً فتصرفها إلى حدٍّ ما عن الأعمال الفنية الصرفة، وإن بقيت جذوة الفن تحت الرماد، وقد تكون نفس هذه المشاكل مما ينفخ ذلك الرماد فإذا بالفن مشتعلاً الجذوة يُستعان به في غير مجاله أو يلجأ إليه للترفيه عن النفوس الكميده. فالفنُّ في ذاته عزاءٌ كبيرٌ وسلوى عظيمةٌ ومهدِّبٌ خطيرٌ للذوق ونبراسٌ لجمال الحياة، وهو إلى جانب ذلك وسيلةٌ حيويةٌ جليلةٌ الخطر يمكن الانتفاع بها في خارج الدائرة الفنية المحضة. وسواءً أكان هذا الفنُّ شعراً أم موسيقى أم تصويراً أم نحاً أم غير ذلك، فكلُّ هذه الاعتبارات جاريةٌ الأحكام عليه. وقد كان الفنُّ منذ عهود الإنسان الأولى رفيقه في صورةٍ من الصوَر وسيبقى رفيقه ومعيّنه، متحوِّلاً من مثالٍ إلى آخر حسبَ العوامل الداعية إليه والمؤثرة فيه. وللشعر في كل هذا نصيبه، ولكنْ بديهيٌّ أن تكون العناية به نسبيةً بعد أن انقضى

زمنُ التَّكسُّبِ بالشعر ولم يبق من وسائل الارتزاق التقليديِّ، وليس في هذا صُدُوفٌ عن الشعر بل ارتفاعٌ بمستواه عن درك التصنُّع والابتذال. وتاجور نفسه قد لقيَ ما لقيَ من الترحيب العالمي به بناءً على منزلته الشعرية. والحربُ العالمية نفسها كان للشعر نصيبه الطبيعي في ثقافتها ودعايتها. ولكن من الإسراف أن ننتظر من الشعر أن يحلَّ محلَّ سواه من عوامل التكوين أو التهذيب للأُمم، وحسبنا أن لا تنكر عليه مكانته الطبيعية وما نرى أنها منكورةٌ.

نعم لا ننكر أنَّ بعضَ الأدباء يرى في الشعر ثرثرةً فارغةً، ولكنَّ ذلك الحكم يُوجَّه عادةً إلى النظم المألوف الشائع المجرَّد من الروح الشعرية. وأمَّا الشعر الإنساني الحيُّ الذي يعالج الروح الإنسانية وينصر الفنَّ عامَّةً فهو عنصرٌ من عناصر الحياة الذهنية، ولا يمكن التخلِّي عنه بتاتاً، حتى ولو حوَّلنا طاقته إلى فنون أخرى. ونحن لا ننكر أيضاً — بل اعترفنا من قبل — أنَّ جمهرة الأدباء لا تَرْضَى عن الشعر الجديد، ولا تفهم من الشعر أكثر من أنه وسيلة خارجية عن الفنِّ ومَسْرُحٌ للفكاهة وندوةٌ للإخوانيات، وتحكم بأنَّ الشعر الجديد المتعمِّق أو المتسامي لا حظُّ له من الحياة. ولكنَّ هذا الحكم الرجعيُّ لا يتممُّ وملاحظات تاجور إلَّا تمثيلاً عرضياً، فالتاريخُ الأدبي يثبت أنَّ الشعر الفنيَّ القويَّ كان وما يزال وسوف يبقى عميقَ الأثر دائمَ التغلغل في حياة الشعوب وإن اعترض نفوذه وسلوكه مَنْ لا يفهمونه. ونحن في تعليقاتنا لا نَعني غير هذا الشعر الحيِّ ولا نحفل بسواه، ونؤمن بأنَّ رسالته أبديةٌ، فلا يمكن أن تستغني عنه أمةٌ من الأُمم أو بيئةٌ من البيئات حتى ولو صدفَتْ عنه وقتياً. فليؤمن الشعراءُ الحريُّون بهذه التسمية برسالتهم الفنيَّة الإنسانية ولْيُطلقوها حرةً دون أن يبالوا بعزوف بيئاتهم لضعفٍ في الشعور أو لخشونةٍ في الذوق أو لتباينٍ شديدٍ في الطبائع أو لقلَّةِ استعدادٍ للتحوُّل الجديد، فكلُّ هذا لن ينهض للحكم على مكانة الشعر الصحيح من الحياة المهذَّبة ولا على مبلغ أهليته للاعتزاز والخلود.

وقد يتمادى أولئك الجامدون في محاربة الشعر الحديث بينما ينادون بانعدام خطره! فقد طلبَ جماعة من الأشياخ محاكمةَ الشاعر صالح جودت لقصيدته «الإنسان الأول» التي صَوَّرَ فيها أوهاَمَ العقل الباطن في تفسير بدء الخليقة ونشوء الإنسان، كما لقينا قديماً عننَّا كبيراً إزاء قصيدتنا «الخالق الفنَّان» وأمثالها، مع أن مثل هذا الشعر من

الشباب لا ينافي الإيمان الصميم.^{١٢} وقد أشار موريس جارسون في كتابه عن المحاكمات الشهيرة في العصر الحديث إلى ما أصاب الشاعر بوديلير من أجل ديوانه «أزهار الشر» الذي لم يمنع قرار الحكومة الفرنسية بمصادرته استمرار ظهوره لأن الناشرين لم ينقطعوا عن طبعه بالرغم من أن القانون لا يبيح ذلك، مما دعا الحكومة إلى التفكير في إلغاء هذا القرار، فالفن لا يقاوم ولا يُصادر سواءً أجاز متسامياً أم متدلّياً.

وعندنا أنه بدل العنف في مصادرة الفن القويّ يحسن بمن لا يرضون عنه أن يكتفوا بالتنبيه إلى نواحي الجمال فيه من حيث هو فنٌّ، ثم إلى أضراره من حيث ملابساته الأخرى. وأمّا المقاومة العنيفة للأذواق الفنية التي قد تُرضينا من ناحيةٍ خلقيةٍ مثلاً فتَحْكُمُ وتَعْسُفُ لا يجديان شيئاً في محاربة الفن نفسه، فإن روحه القوية — كيفما كانت مظاهره — قبس خالد لا يمكن إطفاءه.

وبالرغم ممّا يتخلّل هذا التصدير من رُوح التبرُّم فإنه مُفَعَّمٌ بالتفاؤل للمستقبل لأننا نلمح في الجيل الآتي رُوح البداية حيثما انتهينا، والقدرة على الاستيعاب الكلي لأساليبنا ودقائق فننا ثم التقدم بجراءة. وهذا هو التطوُّر الصالح الذي نفرح به ونحبيه في غير تحفُّظٍ ما دام صادق المبادئ لا يتذبذب. وبعد أن كنّا نقول: «إنّ الحياة أشعةٌ وظلالٌ»، فنُسَخَطُ مَنْ نُسَخَطُ من الجيل السابق لهذا التقرير الغريب، صار الجيل الجديد لا يرضى بهذا الإجمال ويأبى له ولنا إلا أن نتوسّع في هذه الأحاسيس الجديدة والتحاليل الحديثة. ومن ثمّة وجدنا مَنْ يُصغي إلى تحليلنا للأطياف والأضواء إلى عواطف ومَعانٍ كما يحلّلها المنشور إلى ألوانها. ومن ثمّة وجدنا لاشترك المشاعر في التعبيرات الشعرية فاهمين مقدّرين، بعد أن كان الجيل الماضي يضحك منها ولا يفهم أن يكون للنور شعراً خاصّاً، ولكنّ صفوة الخاصة من جيلنا الحاضر والشباب المثقّف تفهمنا حينما نقول من الشاعر:

ليس إلّا يَفْهَمُ النورَ والظّلَّ ومَعْنَاهُما بماضي العُهودِ

^{١٢} انظر تعليقنا في «أبولو» م ٣، ص ٢٨٨.

وابتسام الأشجان في نظرة الفج
وأنين الغروب في الشفق الدأ
واختلاج الألام في كل شيء
صور حولنا لصفو وبث
فإذا الشعر من يترجم عنها
وإذا الشاعر الذي يحسن الف
ر وإن كان في شعور الوليد
مي وإن لآح رائعا من بعيد
فاتن من جماله المعبود
في حنو يخال مثل الصود
عازفا للورى أمانى الخلود
ن حري بمجدنا المنشود

وليس بضائر أن تكون هذه أقلية ما دامت تحمل شعلة النهضة الفنية الصادقة للمستقبل. وأكبر أمني أن يكون الشباب الشاعر الجديد المرهف الإحساس أشجع منا فيما مضى، وأن لا يهمل نماذج شعره الجديد الغريب، وبحسبي أن أذكر هذا النموذج عن «باقة أنغام»:

إذا استمعت إليك
كأن سمعي لديك
فأنت من توقيك
عيني بمجلى ربيعك
أضغي إلى هذه الألحان زاهية
فكل لحن له لون يضيء به
وكل لحن عطر يفوح به
وأنت كوني، وكوني في حقيقته
إذا استمعت إليك
كأن سمعي لديك
فأنت من توقيك
عيني بمجلى ربيعك
كأنها نخب الأزهار للعين
وجمعها باقة من زهر الفن
وإن تحيل غيري من الظن
جم المعاني التي غابت عن الكون

فهذا الشعر كان يعد في وقته^{١٢} هذياناً أو جنوناً، وهو إلى الآن من النظم المنبوذ في عرف كثيرين، ولكن من شعراء الشباب النابهين من لم يقاوم هذا الاشتراك بين الشاعر ومعاني التجاوب الفني بينها، فساعدته ذلك التحرر والاستيعاب الفني لآثار من تقدمه من الرائدین على التجويد في إنتاجه الجديد تجويداً يملؤنا تفاعلاً وغبطة ولو كانت البيئة كلها صادقة عن هذه الضروب الفريدة من الشعر العصري.

^{١٢} انظر ديوان «أنداء الفجر» ص ٢٩.

وليس من العدل أن يُعتبر أمثالُ هذا الشُّعر للجيلِ الناشئِ تقليدًا محضًا لشعرنا وإنْ كُنَّا لا ننكر أنَّ عليه طابعُ التأتُّر بشعراءِ جيلنا، ولكنَّ سرعانَ ما يتبع ذلك ظهورُ شخصيَّاتِ الشعراءِ الناشئين، وبدايتهم بطرازِ جديدٍ من الشُّعر. وليس مما يعيب بعضهم أن يقفَ وقوفًا تامًّا على دقائقِ فننا واتجاهاته المنوَّعة وأن يستفيدَ من ذلك الاستفادةِ التامةِ التي تعينه على إنتاجِ أقوى مما يُنتظر من سنِّه، وإنما الذي يعيبه أن يجحد هذه الحقيقةَ وأن يحاولَ قطعَ هذه الصلاتِ الفنيَّةِ بدوافعِ الوهمِ والغرور، مع أنه لولا هذه الصلاتِ لما تمكَّنَ من بدايته الموفِّقة.^{١٤}

ومن المظاهرِ المقترة بهذا الشعر الحديث ألوانٌ من التَّصوُّفِ العلمي بدلِ المبهماتِ والمعمياتِ التي تشبَّعَ بها الشعرُ القديم، كما في قصيدة «الأشعة الكونية» وأخواتها، ومن أوضحها التَّصوُّفُ النَّوعِيُّ الذي يَرى فيه الشاعرُ طمأنينته وخلاصه من أسرِ الفناء فيقول في تأسِّيهِ:

إني لملكٌ لنوعي ^{١٥} لستُ أجحده	ولو جزائِي صرَّاءُ وصرَّاءُ
في عُزلةٍ كصلاةٍ لا انتهاء لها	حين الطبيعةُ بكماؤُ وغنَّاءُ
أعطي زكاةَ حياتي ما أخلصه	مِن الحياةِ وأعطي الحبَّ مَنْ شاءوا

ومن الظواهرِ الطَّيِّبة أن يحفلَ شعراءُ الجيلِ الناشئِ أو على الأقلِّ طليعته بهذه الروحِ التَّصوُّفيَّةِ وبشعرِ الطبيعةِ عامَّةً، وأن يقرنوا شعرَ الطبيعةِ بحبِّ الرُّزَّاعِ ومواطنهم الريفية. وأذكر أنَّ هذا اللونَ كان يُنتقد على شعري أثرِ عودتي من إنجلترا بعد غيابي الطويلة، وكان بين أصدقائي مَنْ يدهشه عنايتي الخاصَّة بالفلاحة وبمشاهد الريف المصري وحينني إلى موطنِ أسرتي في بلدة «قطور». ولعلَّ شعوري هذا هو ما جعلني أُعجب بشعراءِ الشبابِ الذين عطفوا على مواطنهم الريفية وأعلنوا شغفهم بها فجزيتُ محبتهم هذه بكل ما أمك من تشجيع. وإنْ أنسَ لا أنسَ في هذا المقامِ تقديرِ الشاعرِ الأيرلندي العظيم أوليفر جولد سمث للرُّزَّاعِ في قصيدته «القرية المهجورة»، فهم بلا شك

^{١٤} انظر كتاب «فائدة الشعر وفائدة النقد» The Use of Poetry and the Use of Criticism تأليف:

ت. س. ت. إليوت.

^{١٥} النوع الإنساني.

العمود الفقري لكل أمة زراعية وفي عزَّتْهم عزَّتْها، والديمقراطية الصحيحة تبدأ بهم، ونهضتهم التعاونية هي سرُّ نهضة الشعب وقوميته. وهذا الإيمانُ بالفلاحين وبالحضارة الريفية هو الباعث لشعري عنهم المتمثي في دواويني المختلفة، وفي هذا الديوان حظٌّ منه في صُورٍ منوعَةٍ بين خاصة تمسُّهم مباشرة وعمامة في ألوانٍ من الشعر القومي.

كذلك من مظاهر هذا الشعر الحديث التأملُ في صغائر الأمور وعظائمها على السواء بنظرة نافذة كشافه، واقترانُ الحسيات بالمعنويات، وكثرةُ الألفاظ التصويرية، والتعبيرُ الرمزي الجريء، واعتبارُ اللغة أداةً لا غايةً. ونظنُّ أنَّ هذه مظاهر لا تحتاج إلى دفاعنا عنها فهي وليدة النظرة الشعرية الشاملة. ومهما أُسيءَ تفسيرُ هذه المظاهر فلا يختلف اثنان في تعدُّد وجوه الكلمات العربية وسماحة أساليبها واتساع بيانها، وأنَّ اللغة التي تحتمل الخلاف الكثير لا يجوز أن يُضَيَّقَ على شعرائها تضييقاً تمليه الأهواء فإذا بها تجعل من هذا الشعر «مثلاً أعلى» ومن ندّه «مثلاً أدنى»! وقد أعجبتني بهذه المناسبة كلمةٌ حسيفةٌ لأحد نقادنا العصريين هو الأديب الفاضل محمد عطية يوسف قال فيها:

أنعى على الأدباء الذين يتصيّدون الخطايا اللغوية تعبهم الضائع لأنَّ لغتنا فيها بحمد الله لكل كلمةٍ غير وجهٍ ولكل عبارةٍ غير توجيه، فإن كان مقصدهم ابتغاء المثل العليا فهذا سرف، وإن كان غرضهم إيهام الناس بأنَّ لهم بصراً بالحروف فهذا غرور! ولم يتهبأ الكمال لأبي عبيدة والأصمعي وخلف الأحمر فقد لحنوا وصحفوا وهم هم، فكيف يتهبأ لفلان وعلان وترتان من أدباء اليوم؟!

ونكرُّ أنَّ مثل هذه الملاحظة لا تعني شيئاً من التهاون باللغة، وإنما تشير إلى أنَّ الروح الفقهية لا تتفق وروح الفنِّ، وأنَّ حرية الشعراء الناضجين المستوعبين هي لخير الشعر واللغة، فهم رواد الابتداع في كثيرٍ من تعابيرها الرشيقة الحساسة. وليس بدعاً إذن أن تجمع نظرتهم الحرة المستوعبة ما بين الحسيات والمعنويات، وأن تخرع الكثير من الألفاظ التصويرية، وأن ترى الشعر والفلسفة في المشاهد المألوفة، وشواهد ذلك في هذا الديوان وما قبله من دواويننا ليست بالتالي يُعتذر عنها، فروح العصر تملئها وستبثُّها وستشيعها في الشعر الجديد. وليس في شيء من هذا تقليدٌ مقصودٌ لأي ثقافةٍ معيَّنة فإنَّ الروح العصرية روح أممية وهي في مصر تجمع بين نزعات الشرق والغرب، فمن الطبيعي المحمود أن تمثل ذلك ومن غير المحمود أن يتخلَّى شعرنا العصري عمداً عن

هذه المؤثرات الطبيعية ثم يتعمد تقليد القدماء لينال رضاء المحافظين وهتافهم النابي بألمعيته!

وليس من شك في أن الإحساس في الشعر أسبق في القوة من قدرة التعبير ويجب أن يتضح أولاً، كذلك لا شك في أن الشعر كالجمال يوجد لذاته، والشعر يمثل التجارب الوجدانية قبل أن يصفها وصفاً سواءً أ جاء التعبير صريحاً أم رمزياً، وليس لناقِدُ أن يتعرض للشعر بنقده ما دام جاهلاً لهذه العناصر.^{١٦}

لا يُسأل الشُّعْرُ عن نفسية صاحبه، فخواطر الحكيم وخواطر المجنون وخواطر الطفل الساذج كلّها شعْرٌ إذا عُبِّرَ عنها بطريقةٍ شعريّةٍ، ولكن أرقى الشعر هو ما لا ينافي في روحه الحقيقة العالمية. وهذا الشعرُ العالي يجب أن يكون مرآةً صادقةً للّب الحياة الخالدة المتفائلة، ولا يجوز أن يكون التشاؤم فيه متناولاً صميم الحياة، وإن جاز أن يتناول مظاهرها في ثورته على الباطل.

ولا مشاحة في أن الشعر الذي يُساءً به إلى الأدب لا يعبر عن شيءٍ من ذلك، وإنما هو في غالبه لعبٌ بالألفاظ وبالرنين. فكثيرٌ منه مغالطات في الحقائق ورجوع بالإنسانية إلى الوراء، لا يدعّمه شيء من التصوّف البصير، ولا من روح العلم المتفائل، ولا من الشعور بمجد البشرية، ولا من الإيمان بالطبيعة الحكيمة، ولا من الحماسة للحق والجمال. هذا الشعر السقيم بل هذا النظم العاثر عبارة عن صور أخرى لتشابهه واستعارات صناعية أو نماذج من شكوك الجهل وطغيان السوداوية أو صور من الأمراض النفسية، وسيان قُدّم لنا باسم المحافظة أو التجديد فلا قيمة فنية له ما دام بغيضاً كريهاً مشوّه الأداء لا يسنده شيءٌ من الطبيعة الفنية.

إن الشعر في روحه وغايته توأمٌ للفلسفة،^{١٧} وجميع الأنبياء كانوا في روحهم شعراء، والشاعر الناضج لا يتجنب الدوافع الشعرية في كلّ شيء: في الطريق، في البيت، في المجتمع، في الوحدة، في الأرض، في السماء، في أتفه الحشرات، في أعظم الأجرام، كلّها سواءً عنده، وشاعريته الفنية تقبس منها جميعاً عناصر الخير والجمال والحق.

^{١٦} راجع كتاب «نقد الأدب» The Criticism of Literature تأليف: الدكتورة إليزابيث نيتشي.

^{١٧} راجع كتاب «فلسفة الأدب الإنجليزي» The Philosophy of English Literature تأليف: الدكتور

ج. إنجرام بريان المدرس بجامعة طوكيو الإمبراطورية.

ولا شكَّ عندنا في أنَّ أسمى رسالة للشاعر هي النهوض بالإنسانية عن طريق هذا الفنِّ الجميل، فهو مربِّ جليل يقدرُ «للذوق الفني» أثره، وهو في كل ما يعبرُ عنه — سواء جاء مرأةً لشخصيته أو مرأةً للمجتمع أو مرأةً للإنسانية أو مرأةً للحياة الكونية — إنما ينصر هذا «الذوق الفني» الذي يسير بالحياة إلى الأمام ويأبى لها الوقوف كما يأبى لها التشاؤم أو الفناء بالمعنى الحقيقي. فالحياة نوعية إن لم نقل عالمية، وهي أسمى من أن تُحصَر في فردٍ أو جنسٍ.

هذه طائفةٌ من النقط الفنيَّة التي ازدحمتُ أمامي وأنا أكتبُ هذا التصديرَ، تناولتها تناولاً عاماً لمن تشوقهم معرفة آرائي فيها، أو إجابة على أسئلة بعض الأدباء النقاد، وإن كنت أعلم أن بينهم مَنْ يشوقه التحدُّث عن الأمداح الغثة التي نظمها السيد شهاب الدين في محمد علي وسعيد وإسماعيل أضعافَ ما يعنيه الإلمامُ بخصائص هذا الشعر أو بنزعات شعراء الشباب النابهين، وبينهم مَنْ يحفلون بكل قديم على ضعفه ولا يابهون لأيِّ جديدٍ على قوَّته، وقد تجاوزوا في كل هذا حدودَ الذوق والمعقول. ولو أنني عمدتُ إلى تدوين جميع الخواطر التي تتصل بهذه النقط لاتَّسع بي مجالُ هذا التصدير اتِّساعاً كبيراً لا يتَّفِق وغيابتي منه، وليس أقلها شأنًا تحية أصدقائي المتفضِّلين بقراءته، المقبلين على ما بعده من شعرٍ، فشعري من نفسي وأرواحِ أندادي.

أحمد زكي أبو شادي

ضاحية المطرية

في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤

إهداء الديوان

إلى الغائبِ المحجوبِ عن عالمِ التَّرى
إلى ذلكِ الطَّلُقِ الفِضاءِ الذي به
إلى هذه الأجرامِ تمضي سريعةً
إلى هذه الأنوارِ جازتْ سَفِينُها
إلى كلِّ ما صان الوجودَ وَهَدَّه
إلى الحبِّ رُوحِ الكونِ أهدي عبادتي
بَعَثْتُ به فوقَ العُبابِ عواطفًا
إلى مَنْشَأِ الدُّنيا إلى مُنتهى الوَرَى
تَبَعَثَرُ مِنْ حُلْمِ العَلَى ما تَبَعَثَرَا
وفي إثرها الفكرُ الجريءُ تَعَثَّرَا
ملايينَ مِنْ بَحْرِ السنينِ الذي جرى^١
وَجَدَدَهُ أضعافَ أضعافِ ما نرى
وَأَنشَرُها شِعْرًا صريحًا ومُضَمَّرًا
تَثُورُ فثَارَ الموجُ حتى تَنثُرَا!

أبو شادي

^١ إشارة إلى ظاهرة امتداد السكون بسرعة عظيمة.

فَوْقَ الْعُبَابِ

شعر الديوان

العام الجديد

(عام الأزمات)

وقد ماتَ أهلكَ لَمَّا وُلِدْتَ؟
فلا الأهلُ تلقى ولم تلقَ بيْتًا
وكم فوقه يلفظُ الدهرُ مَوْتِي!
كأنَّ بها من أذى الدهرِ مَوْتًا
وقد شمل البؤسُ حيًّا وميتًا؟
لقد جئتنا اليومَ من غيرِ مَأْتِي
أبى أن تُعَدَّ حياةً فمُتَّ
لذلك لا يُسمِعُ الحقُّ صَوْتًا
نفوسٌ ترى العيشَ وهما وثبنا!

فَتَى الدهرِ في أيِّ وَهْمٍ وُلِدْتَ
وما لي أراكَ لقيطًا عليلاً
شريدًا على مَتْنِ هذا العُبابِ
يضجُّ لطلعتِهِ العالمونَ
أُتَنَسَّبُ أنتَ لهذا الزمانِ
فلا مَرَحَبًا بكِ يا ابنَ الضلالِ!
كأنَّ الإلهَ الحكيمَ القديرَ
فنحن نعيشُ بغيرِ الزمانِ
وأعجبُ مِنْ كُلِّ فَوْضَى الحياةِ

فوق العباب

عَنَى الصَّبَابَةَ وَالْأَلَمَ
 مَا زَلْتُ عُمْرِي كُلَّهُ
 وَأَنَا الْقَصِيُّ عَنِ النَّشِيدِ
 نَعَمُ الْخُلُودِ مِنَ الْأَلُو
 تَتَبَسَّمِينَ بِهِ وَلَا
 لَا يَسْتَحِيلُ إِلَى غَنَا
 هُوَ صَوْتُ حَلَّاقِ الْحَيَا
 بِاللَّمْحِ أَسْمَعُهُ وَالْأَلِ
 وَكَأَنَّنِي الْأَعْشَى الْأَصْمُ
 إِلَّا خَوَاطِرَهُنَّ أَبْ
 صَوْتُ يَطُوفُ عَلَى الْعُبَا
 إِلَّا كَيْبِنَاسِ الْخِيَا
 يَا طَالَمَا أَنَا بِالْخِيَا
 وَأَخْوَضُ أَمْوَاجِ الْعُبَا
 وَأَرَى الرَّمُوزَ عَلَيْهِ أَسْ
 فَأَحْلُ مِنْ أَلْغَاذِهَا
 فَإِذَا السَّلَامُ بِهَا الْوَعَى

فَهَمَا النَّهَائِيَّةُ لِلنَّعَمِ
 حَيْرَانَ أُصْغِي فِي الظُّلْمِ
 دِ، عَلَى هَوَى، وَعَلَى نَهَمِ
 هِيَ فَوْقِ ثَغْرِكَ يَبْتَسِمُ
 نَلْقَاهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ
 ءِ بَلْ يَعْفُ عَنِ الْكَلِمِ
 ۞ كَنُورِهِ فَوْقِ السُّدْمِ
 حَظَّهُ جَمَالًا يَزِدْحَمُ
 فَلَا ضِيَاءَ وَلَا نَعْمِ
 هِيَ مِنْ جَمَالٍ يَسْتَتِمُ
 بِ فَلَا يَقْرُ وَلَا يُلْمُ
 لِ لِمَنْ تَدَاوَى بِالْأَلَمِ
 لِ مَغَامِرٌ أَوْ مَعْتَصِمُ
 بِ وَهَنْ دُنْيَا تَلْتَطِمُ
 فَارَ الْوُجُودِ الْمَسْتَجِمُ
 عَبَرَ الْحَوَادِثِ وَالْأَمَمِ
 وَبِهَا الْحَوَادِثُ تَرْتَطِمُ

بنات البحر

(من خواطر يوم مطير)

الجو تملؤه الغيوم، وإنما
 حتى تعود لها البرودة منعة
 فتفيء للبحر المشوق أبوة
 للصيف جند فرقوا ذراتها
 جمعت سببا الصيف من أشاتها
 لرجوعها، فغياؤها كمماتها

فَوْقَ الْعُبَابِ

فعلامَ تشكون الشتاءَ وما جَنَى؟ أيلامُ حينَ حياتِهِ بحياتِهَا؟

* * *

عُودِي بناتِ البحرِ في أمواجهِ!
عُودِي! فقد أحيا الشتاءَ وُعُودَهُ
عُودِي وسيري في العُبابِ جديدهُ
وتدْفقي مَطَرًا طغى وجداولًا
وتمتَّعي بجديدِ عُمُرٍ ثائرٍ
وارْضِي بدنيا لا تدومُ بحالِهِ
كم نال ظلمُ الصَّيْفِ من لذاتِهَا!
فَعُداتُهُ في الصَّيْفِ عَيْنُ عُدَاتِهَا
ثم ارجعي للسُّحْبِ بين بُناتِهَا
تجري رواني السُّحْبِ في مرَاتِهَا
لن تُغنمَ اللذاتُ بعد فواتِهَا
فالعيشُ في التنويعِ من حالاتِهَا

إلى صدقي باشا

أمودِّعَ الحُكْمَ العريضِ ولم يجدُ
خدعوكَ رغمَ سياسةِ غلابيةِ
قُبِرَتْ مواهبكُ العظيمةُ مثلما
والحُكْمُ ما لم يستمدُّ جلالَهُ
لهفي على وطني تضيع قواه في
حتى كأننا للشقاوة دائماً
بين الأنامِ مودِّعاً وحميماً
والعقلُ زلتهُ تُضيعُ زعيماً
أنسيتَ من جعلوا العظيمَ عظيماً
من رُوحِ هذا الشعبِ راحَ زميماً
هذا التناحرِ جانبياً وأليماً
هَدَفُ، فما نلَقَى النعيمَ نعيماً!

غِبْ يا ربيع!

غِبْ يا ربيعُ فلستُ من يهواك!
لِمَن العُطُورُ وكلُّ عطرٍ سابغٍ
عُدْ للذين تعشَّقوكَ وخرَّني
أو صرَّ إزاءَ الهجرِ جدِّباً شاملاً
الشاعرُ المكلومُ تصدَّفُ عينُهُ
طُوي الغرامُ كما طويْتُ هواك
ألقاه ألاماً كما ألقاك؟
في عُزلتي أتأملُ الأشواك
إني أحسُّ الجدبَ حين أراك
عن كلِّ ما تُهدي ولا ترضاك

لمن العبيرُ وكلُّ أنغامِ الهوى؟ لمن الدلالُ تحايلاً وشراكا؟
هذي الشباكُ الفاتناتُ مخايلُ للوهمِ مُذْ ناجى الحبيبِ سواكا
أعددتُ مجلى نعمتي، ونأى كمن جافى، فجنُّ الحبِّ حين رآكا!

* * *

غِبْ يا ربيعُ! كفى بمهزلةِ الهوى أجدُ النعيمَ مناحةً وهلاكاً
أبكِتَ في هذا الندى؟ أبكِتَ في الـ قَطِرَ المُضَاعِ؟ لأنتَ من يتباكى!
أنا وحدي الباكي الشجبيُّ بعزلتي ولو أنَّ حولي عالماً وشباكا
ضاعَ التجاوبُ بيننا، وكأننا خَصْمَانِ، أو أني جمعتُ عداكا
يا خالقاً أُمَّ الجمالِ وجاهلاً مَنْ يَسْتَقِلُّ بها وليس يُحَاكِي
فَرَّقْتَ بيني والتي بفتونها أدركتُ في ماضي المُنَى مَعناكا
مضتِ المنى، ومضتُ معاني طيبتها ومضيتُ أنتَ، وقد سمعتُ خطاكا!

هتاف الربيع

(أملأها صاحب الديوان على صديقه الفنان شعبان زكي.)

هتَفَ الربيعُ فما يكون نشيدُهُ والظلمُ يَعْبَثُ حوله وَيُبِيدُهُ؟
أتراه سخريةً لسالفِ عهدنا؟ أو عهدنا الحالي، فنحن عبيدُهُ؟
حتى الجمادُ يرفُ في حللٍ له والنبتُ يرقصُ وشيهُ وجديدُهُ
ونفوسنا كالصخر ليس يسوسُهُ نغمٌ، وليس له بعيدِ عيدُهُ
صَلَدتُ من الجبروتِ حتى أصبحتُ كالوهمِ في الضعفِ المديدِ مديدُهُ!

* * *

عَنِّي عَصافيرَ الربيعِ، وإنما كلُّ امرئٍ مَنَّا الأصمُّ شريدُهُ
عَنِّي ولا تتلفَّتِي لنفوسنا فالفقرُ حاكمنا ونحن جنودُهُ
وُهَبتُ له والظلمُ زكانا فما يُجدي الفقيرَ من الربيعِ وُجودُهُ
دُنيا الفنونِ هو الربيعُ، وحالنا دنيا الهوانِ، وللهوانِ شهودُهُ
ديستُ كرامتنا ومات رجاؤنا أترى يكون من الربيعِ مُعيدُهُ؟

فَوْقَ الْعُبَابِ

هيهات! والنفس العليلة جَذْبَةٌ
هيهات إن لم تنتفض لحياتها
والشعب لم يَقْتُلْهُ مِنْ ظُلَامِهِ
إلا التهيُّبُ، فالكفاحُ خلوده!
إن الربيعَ ربيعُها تجديده
وتتثرُ على موتٍ تُشدُّ قيوده

خطيب مصر

نظمت لمناسبة الخطبة الاجتماعية الرائعة التي ألقاها الوطني الكبير السيد مكرم عبيد في افتتاح نادي المحامين بالقاهرة.)

خطيب «الوفد» أنت خطيب مصر
بودي لو أصونك عن جهاد
وأن ألقاك مُصلح مصر فيما
سئمت من السياسة فهي جرم
خطبت فكنت أحكم من تنادي
تُحاربُ عثرة الأخلاق فينا
لعمري ذاك أجدى من جهود
وشاعرها المُبجَّلُ والمُفدَى
تسوء به السياسة من تصدى
نداؤك فيه يُنقذ من تردى
على الأخلاق تُبقي الحرَّ عبدا
بمكرمة وأشرف من تعدى
وتهتف بالذي تلقاه أهدي
تطيح بها السياسة من تحدى

إلى الشاكين

شكوت كما تشكون من زعمائنا
فهلا شكونا من تهاون أمة؟
أينتقد القواد والجنود محجماً
عرفت الرجال الرائدین مكارماً
إذا خذل «الوفد» الممثل أمة
فكونوا جميعاً وحدة أي وحدة
وقد كثروا لكن مآثرهم قلت
وهل هي خافت في المعارك أم ملت؟
عن الحرب؟ أم هذي موازيننا اختلت؟
فإن لمتهم فالعيب من بيئة ضلت
فلا عجب في أمة بعده اعتلت
وإلا فذوقوا الويل من وحدة ولت!

غمرة الموت

فوقَ هذا العبابِ، في ظلمةِ الليـ
لم يَزِدْنِي الضياءُ مِنْ طَلْعَةِ البَدُ
فكأنَّ الضياءَ أرواحُ مَوْتِي
وإذا بالضياءِ ميّتٌ، وحسبي

لِ، أقضي الحياةَ لهفانَ حائزُ
رِ سوى ثورةٍ على كلِّ ثائرُ
جُمعتُ في السَّماءِ بعدَ المقابرُ
أن أرى الموتَ غامراً كلَّ غامرُ!

* * *

يا حياتي! أيهزأُ القدرُ العا
أم تري أنتِ وحدكِ الحسرةَ النشُ
ضحكَ الناسِ مِنْ شعوري وقالوا
بينما مِنْ صميمِ دنياي شعري

تي بكلِّ القوى وكلِّ المصائرُ
وَى فتنينِ دائماً في المخاطرُ؟!
إنما هذه هواجسُ شاعرُ
ولكم ضللتُ حكيماً وساحرُ!

قصة الدنيا

لَمَنْ هذه الدُّنيا وهذي المغانمُ؟
إذا أقبلتْ دُنْيَاكَ لا تغترَّرْ بها
أطلبُ منها أن تجدَّدَ خَلْقَهَا
خُذِ العِدَّةَ الكبرى لها غيرَ واهمِ
لقد مُزِجَ الشرُّ الذي أنتَ تتقي
ولو فُصِّلاً ما كان دينٌ ولا دُنَى
وقد جُمِعَا كالكهرباءِ: فسالبُ
إذا افترقا ماتا، فدنياكَ عيشها
وأينَ وأينَ الصيرفيُّ مخلَّصاً

ألخير؟ إنَّ الخيرَ في الناسِ غارمُ
وإنَّ ظلمتُ لم يَبْقَ غيرَكَ ظالمُ
وتحلمُ؟ إنَّ الشرَّ ما أنتَ حالمُ
فليس غبيناً غيرَ مَنْ هو واهمُ
مع الخيرِ، حتى حارَ حَبْرُ وعالمُ
فبينهما موجُ الورى متلاطمُ
مطيحُ، وعاتٍ موجبُ الطبعِ راغمُ
حياتهما، والعدلُ كالظلمِ هائمُ
فيُغْنِمُ إبريزُ ويُطرَحُ غاشمُ^١

^١ الغاشم: المعدن الخام.

فَوْقَ الْعُبَابِ

وأينَ جهودُ الكيمياءِ فإننا نعيشُ بجوِّ خيرهِ المحضِ جارمُ؟!
لقد حَيَّرَ الألبابَ كنههُ وجودنا كما حارَ في تفكيرهِ الرثُّ نائمُ!

رغوة العصور

(١) الأصل للشاعر الإنجليزي اللورد بيرون:

Between two worlds life hovers like a star,
Twixt night and morn, upon the horizon's verge.
How little do we know that which we are!
How less what we may be! The eternal scourge
Of time and tide rolls on, bears afar
Our bubbles; as the old burst, new emerge,
Lash'd from the foam of ages ...

(٢) الترجمة المرسلة لصاحب الديوان:

ما بين دُنيا ودُنيا وبين صبحٍ وليلٍ نرى الحياةَ كنجمٍ في حافةِ الأفقِ رفاً
ما أصغرَ العلمَ منا بمن نكونُ وجوداً وأصغرَ العلمَ عنه بما سنمضي إليه!
المدُّ والجزرُ يمضي والدهرُ في جيشان وقد حُمِلنا بعيداً في موجهِ كالزَّبْدِ
وكلما انهدَّ فإن منها تجلَّى سِوَاهُ مُجَدِّدًا وَمَسُوطًا في رغوةِ للعُصورِ!

رسالة الشاعر

مَرَحِبًا بالنشيدِ بعدَ النشيدِ في مَعانٍ من الزمانِ المديدِ
ومَعانٍ تُزَفُّ للزَمَنِ الآ تي ... ألسنا له جُدودَ الجدودِ؟

هَاتِ يَا صَاحِبِي أَغَانِيكَ أَلْوَا
هَاتِ مِنْ كُلِّ لَوْعَةٍ وَغَرَامٍ
إِنَّمَا نَحْنُ فِي قِيَوِدٍ وَفَقْرٍ
لِسِرِّي الْأَشْعَارِ مِنْ كُلِّ نَائِي
نَحْنُ نَحْيَا وَلَيْسَ فِينَا الَّذِي يَحُ
جَمَعْتَنَا الْأَلَامُ دُونَ حُدُودِ
فَالْتَفَتْنَا كَمَا تَلَفَّتِ الدُّنَى
لَيْسَ إِلَّا هُوَ يَفْهَمُ النُّورَ
وَابْتَسَامَ الْأَشْجَانَ فِي نَظْرَةِ الْفَجْ
وَأَنْيَنَ الْغُرُوبِ فِي الشَّفَقِ الدَا
وَاخْتِلَاجِ الْأَلَامِ فِي كُلِّ شَيْءٍ
صُورٌ حَوْلَنَا لَصَفْوٍ وَبَثَّ
فَإِذَا الشَّعْرُ مَنْ يَتَرَجَمُ عَنْهَا
وَإِذَا الشَّاعِرُ الَّذِي يُحَسِّنُ الْفِ

نَا فَإِنَّا بِحَاجَةٍ لِلْمَزِيدِ
خَمْرَةً عَطَّرَتْ بَوْرِدِ الْخُدُودِ
لِشَعُورٍ يَفْكَنَا مِنْ قِيَوِدِ
وَأَغَانِي فَرْدَوْسِنَا الْمَفْقُودِ
يَا قَرِيرًا كَبَعُضِ هَذَا الْوُجُودِ
وَسُجِنًا بِعَالَمِ ذِي حُدُودِ
يَا إِلَى الشَّاعِرِ النَّبِيِّ الشَّهِيدِ
وَالظَّلِّ مَعْنَاهُمَا بِمَاضِي الْعَهْودِ
رِ وَإِنْ كَانَ فِي شَعُورِ الْوَالِيدِ
مِي وَإِنْ لَاحَ رَائِعًا مِنْ بَعِيدِ
فَاتِنِ مِنْ جَمَالِهِ الْمَعْبُودِ
فِي حَنَوٍ يُخَالُ مِثْلَ الصَّدُودِ
عَازِفًا لِلرُّورِيِّ أَمَانِي الْخُلُودِ
نَّ حَرِيٍّ بِمَجْدِنَا الْمُنْشُودِ

رجوع الكروان

(نظمها الشاعر في السحر وقد أيقظه غناء الكروان الشجي.)

أَتَرَى الْكُهُولَةَ كَالشَّبَابِ الثَّانِي؟
مِثْلِي سِوَى الْأَصْدَاءِ مِنْ الْحَانِي
فَمَضَيْتِ ثُمَّ مَضَتْ بِكُلِّ حَنَانِ
أَبَدًا بِغَيْرِ صَدَى بَعِيدِ عَانِ!
تَأْنِي بِرَجْعِ نَشِيدِهَا الْفَرِحَانِ

أَتَعُودُ بَعْدَ الشَّيْبِ يَا كِرَوَانِي؟
هِيَهَاتَ! لَمْ تُبَقِ السَّنُونَ لِعَاشِقِ
كَتَبْتُ الرِّسُولَ^٢ إِلَى جَمِيلِ حَنَانِهَا
وَتَسَمَعْتُ أَدْنِي إِلَيْكَ فَلَمْ تَفْزِ
وَالآنَ بَعْدَ كِهُولَتِي فِي عَزَلَتِي

^٢ انظر أنشودة «الكروان الرسول» في ديوان «زينب» ص ٣٤.

وتلحُّ إلحاحَ المبشِّرِ بالهوى
 أهلاً بمنقذِي الحبيبِ! وهل درى
 لم يبق للقلب المذاب بقيةً
 إلا حياةَ الذكرياتِ وكلُّها
 قد جئتُ من بعد الأوانِ وإنْ أبى
 وكأنما الحبُّ النقيُّ حياته
 ردَّدَ إذنْ وحي الغرامِ مجلجلاً
 كانت تغرَّدُ لي وكان نشيدها
 تمشي الطبيعةُ في خلالِ حروفه
 فأعدُّ لوجداني وقد أيقظتُه
 فالحبُّ فوقَ منازلِ الأديانِ!
 أني على الإنقاذِ جدُّ مُعانٍ؟
 تحيا وقد ألقيتُ في النيرانِ
 أشجانُ نبي حرقَ على أشجانِ
 زُهدي، وَعَقَّ تَجَمُّلي بحناني
 أبقى من الإنسانِ والأزمانِ
 حياً كشدو شبابها الفتانِ
 جمَّ العطورِ منوعَ الألوانِ
 بمشاعرٍ ومَشاهدٍ ومَعاني
 تلك الحياةُ تُعدُّ شبابي الثاني!

إلى الزعيم الأكبر

(حيا بها الشاعر دولة مصطفى النحاس باشا.)

خبرتُ زعاماتِ البلادِ فلم أجدُ
 تصونُ إخاءَ الشعبِ رغمَ تنايذِ
 وأنى الذي يُشجيه والخطبُ داهمٌ
 كأننا خُصومٌ لا تألفَ بيننا
 ولكنْ دمي يهديه والليلُ قاتمٌ
 سَكناً إلى نجواه في حيرةِ الأسي
 وكم قد سألنا الحاكمين انتصافهم
 سألناهمو باسمِ المودَّةِ تارةً
 وباسمِ أمانِي العلمِ والعصرِ نيرٌ
 سواك على دينِ الوفاءِ يقيمُ
 وما كلُّ يومٍ للبلادِ زعيمٌ
 تفرُّقُ أحزابٍ تظللُ تهيمُ
 مدى الدهرِ أو أن الفلاحَ خصيمُ
 وفاؤك: فهو النورُ، وهو عميمُ
 إذا ما تجنَّى باطشٌ ولئيمُ^٢
 فما كان منهم منصفٌ وحكيمُ^٣
 وباسمِ جلالِ الحُكمِ وهو عظيمُ
 وما العلمُ للعصرِ المنيرِ غريمُ

^٢ يشير الشاعر بصفة خاصة إلى ظلامته التي بثها إلى دولة صدقي باشا — ديوان «الشعلة» ص ١١٧.

وباسمِ صداقاتِ الأُبُوَّةِ والعُلَى
 فما لمحوَا مِن زفرةِ الحقِّ شُعْلَةً
 ودالتِ حكوماتُ وما زلتَ حاكمًا
 يتيمٌ، يتيمٌ — حينما الحُكْمُ ما له
 فبجئتُ فيكَ النُّبْلَ ... يا ما أقلَّهُ
 وقدسْتُ فيكَ الحُبَّ للشعبِ بينما
 ورددتُ أمداحي وإن كُنَّ نَقْمَةً
 ولكنما دينُ الإِبَاءِ سجيَّتي

بعهدِ كريمٍ ما سلاه كريمٌ
 وعشنا وعاشوا والظلامُ بهيمٌ
 وأنتَ قَصِيٌّ عنه وهو يتيمٌ
 نصيرٌ من الشعبِ الأبِيّ — عديمٌ
 بدُنيا جَنَاهَا مجرمٌ ووخيمٌ
 تجنَّي عليه فاسقٌ ولئيمٌ
 عليَّ بعهدٍ ليس فيه رحيمٌ
 وإني على دينِ الإِبَاءِ أقيمٌ

النافذة المغلقة

(منقولة عن الأغنية الإيطالية الشهيرة وقد ترجمها نثرًا لصاحب الديوان الأديب محمد أمين حسونة.)

امنحوني أيُّها الخَلانُ عُذْرًا
 ليس لي ذنبٌ بَغَلِقِ النافذةِ
 بغرامي أغنياتي الآخذة!
 وهي من غيرك تَفَنِي يا جميله
 تَسْمعيني ليلةَ الحُبِّ الظليله
 أيُّها النافذةُ المخفيُّ فيها
 من غرامي في همومِ يَشْتَهِيها؟
 أنني ما زلتُ نشوانَ مجبِّاً
 لانتقامي لم تَهَبْ حُسناً وحبًّا
 بعد ما قد ماتتِ الأوتارُ كسراً
 عَزَفُها مذ طارَ ذاك الحسنُ طيرًا
 ودَعُوني أنشدُ اللحنَ الأخيرُ
 وهو كالموتِ لمعبودي الحقيزُ!
 فاسمحي نافذةَ الحُبِّ اسمحي لي

انحوني أيُّها الخَلانُ عُذْرًا
 ليس لي ذنبٌ، فكم قد ملأتُها
 إنها الآنَ إلى الشارعِ تمضي
 هي تَفَنِي دونَ إشراقِكَ إن لم
 لِمَ لَمْ تَنفَتحي مِن بَعْدِ غلِقِ
 وجدُّ قلبي المُشعلُ المجنونُ سُكْرًا
 بلَغِيها أنني عبدٌ هَوَاهَا
 إن تشأْ خَدَعِي فلي بعدُ يدُ
 أصدقائي وأعزَّائي! وداعًا
 فمحالٌ مرةً أُخرى لمثلي
 أتركوني ها هنا في عُزَلتي!
 رافعًا صوتي قوياً داوياً
 قَطَعْتُ قلبي بوحشيتِها

فَوْقَ الْعُبَابِ

بِغِنَائِي لِكَ أَنْتِ الْمُنْتَهَى إِنَّ يَدُمُ رُوحَ شَبَابٍ لِي مُنِيلِي
نُورَ قَلْبِي! ... نَارَ حُبِّي!

موسيقى المعاني

عجبتُ لمن تَرَنَّحَ من رنين
ولا عجبٌ، فكم لبَّ أصمَّ
وهذا الكونُ أنظمةً تناهتُ
تحفُّ بنا مواكبَ ساحراتِ
يخالُ وجودَه صمتمًا عميقًا
وما الحركاتُ والسكناتُ إلاَّ
وما تلكَ الشموسُ وما إليها
قبسنا من ملاحظتها وصُغنا
وصيرنا القريضَ عُبابَ كون
يُصافحُ أعمقَ الأعماقِ وحيًا
ويندمجُ النشيدُ به كيانًا
فإنَّ يدركه مسمعُ عبقرِي
وإنَّ لم يلقَ غيرَ سماعِ قومِ
فغايتُهُ الضياعُ، وإن تولى

ويجهلُ أينَ موسيقى المعاني
وليسَ الفنُّ حيلةً تَرْجُمانِ
هواتفها بأنظمةِ الأغاني
وكم متخلفٍ في المهرجانِ
وأنَّ وجودَه في الأسرِ عاني
أناشيدُ منوعَةٌ البيانِ
سوى الأصداءِ من شعرِ الزمانِ
عواطفنا كأنجمها الحسانِ
يَعُجُّ وموجهُ كالدهرِ باني
ويصعدُ بالعواطفِ والجنانِ
وكم بين المظاهرِ والكيانِ
تبيِّنُ فيه روعةَ الافتتانِ
نفوسُهمو هوانٌ في هوانِ
ليخلدَ في الطلاقةِ كالأماني!

الربّات الراقصات

(يحيين أبناء «رع»)

رَقَصْنَ، ورقصةُ الربّاتِ معنَى
تَنَنِّينَ انسيابا واجتذابًا
مِنَ الإلهامِ يَجْهَلُهُ التَمَنِّي
فأنطقنَ التجاذبَ والتَّنَنِّي

وَعَنَيْنَ الحَيَاةَ جَدِيدَ لَحْنٍ
 وَقَدْ رَكَعَ الإِلَهُ «خَنُومٌ» عَبْدًا
 تَرَاهُ شَبِيهَةً مَذْهُولٍ قَرِيرٍ
 وَنَافِخَةٍ بِمَزْمَارٍ عَجِيبٍ
 فَتَخَلَّقُ مِنْهُ مُوسِيقَى خِيَالٍ
 لِبَسْنٍ مِنَ الثِّيَابِ فُنُونٍ وَهَمٍّ
 شُكُولُ اللُّونِ كَالشَّفَقِ المَرَجِّي
 وَأَمْوَاجُ الحَيَاةِ بِهِنَّ نَشْوَى
 سَرِيعَاتُ التَّجَاوِبِ لِلأَغَانِي
 وَهَذِي العُمْدُ وَالأَصْبَاغُ فِيهَا
 وَهَذِي الأَرْضُ مَلْمَسُهَا خِدَاعُ
 تَنْكَرَ حَسْنُهُنَّ، وَكَمْ إِلَيْهِ
 وَهَبْنَ «رَعَا» قَدَاسَتَهُنَّ لَمَّا
 فَصَيَّرْنَ الحَيَاةَ جَدِيدَ لَحْنٍ
 يَطْبَلُ وَالجَمَالُ لَهُ يُغْنِي
 عَلَيَّ ظَنٌّ يَدَاعِبُهُ وَظَنٌّ
 يَبْدُو عَجَائِبَ الوَتْرِ المَرْنِ
 وَأُخْرَى لِلخَوَالِجِ قَبْلَ أَنْ
 فَكُلُّ جَسْمِهَا أَحْلَامٌ فَنِّ
 وَكَمْ عَلَقَ الرِّجَاءُ بِبَعْضِ لَوْنٍ
 كَأَمْوَاجِ الصَّبَاحِ المَطْمَئِنِّ
 وَفَتَنَّتَهُنَّ تَجْعَلُهُ التَّائِي
 تُشَارِفُهَا بِرُوحِ قَبْلِ عَيْنٍ
 كَلِمِيسِ الحَبِّ أَوْ لَمِيسِ التَّجْنِي
 تَنْكَرَ مِثْلَهُنَّ بِكُلِّ حَسَنِ
 سَحَرْنَ بَنِيهِ بِالرَّقِصِ المَغْنِي!

المسرح الأكبر

(إلى الصديق الشاعر خليل شيبوب صدى رثائه لبنيّة عزيزة لديه.)

أخي في الحبِّ والأدبِ
 عزاءٌ ليس يُنصفني
 وهذا القلبُ يَضْرِبُني
 قرأتُ سَطُورَكَ اللِّهْفَى
 أنا الحاني على ولدي
 أنا الباكي على زمنٍ
 عزاءٌ مِن أبٍ لأبٍ
 فما شعري وما أدبي
 كموجٍ ساخِطٍ لَجِبٍ؟
 فواللهفي! وواحرَبِي!
 حُنُوكَ أَنْتَ فِي كُرْبٍ
 مَآسِيهِ مِن اللُّعْبِ!

* * *

مصابكُ لستَ تَحْمَلُهُ
 فكم من شاعرٍ - مثلي
 وحيدًا خائضَ اللِّهَبِ
 بنارٍ - جدُّ ملتَهَبِ

فَوْقَ الْعُبَابِ

يَرَى الْأَرْزَاءَ رَاقِصَةً عَلَى الْأَيَّامِ كَالْحَبِيبِ
وَيَلْقَى الدَّهْرَ كَالجَبَّارِ رِيبًا بِالْأَرْزَاءِ فِي طَرْبِ
خَلِيلِكَ يَا «خَلِيلُ» بِمَا تُعَانِيهِ، فَمَا بَكَ بِي!

* * *

هي الدنيا عدالتها فنون اللؤم والكذب
تعزّزنا وتقهرنا وتدفعنا إلى العطب
وتزرعنا وتحصدنا بلا معنى ولا سبب
كأنَّ الفنَّ خدعتُها بما تجني، فلم تعب!
فنحنُ شخوصٌ مسرّحها وكم من مشهدٍ عجب!
ملايينُ الشخوصِ به تساووا في مدى الحقب
فما حيٌّ بمشهودٍ وما ميتٌ بمحتجب!

سفينة الشمس

(نظمها الشاعر لمناسبة زيارته صحبة الأستاذ سليم حسن وأعضاء «المجمع المصري للثقافة العلمية» سفينة الشمس المقدسة في جيرة الهرم الرابع بالجيزة.)

سفينة الشمسِ قد أُخْفِيَتْ فِي الظُّلْمِ كَمَا اخْتَفَى القَدْرُ المَعْبُودُ فِي القِدَمِ
نُسِبَتْ لِلْعَالَمِ السُّفْلِيِّ نَاقِلَةً شَمْسَ الغُرُوبِ عَلَى بَحْرِ مِنَ العَدَمِ
فِي كُلِّ لَيْلٍ تُعَانِي الشَّمْسُ مَيْتَةً أَوْ شَبَهَ مَيْتَةٍ مَا جَلَّ مِنْ أَلَمِ
حَتَّى تَعُودَ إِلَى الدُّنْيَا مَجْدُدَةً مَعَ الصَّبَاحِ كَمُولُودٍ مِنَ الحُلْمِ

* * *

حَتَّى الشَّمْسُ لَهَا الأَعْدَاءُ قَدْ رَصَدُوا حَسَابَهَا فَتُعَانِي مِنْ حَسَابِهِمْ
تَجْتَازُ فِيكَ مِنَ الوِيَلَاتِ أَظْلَمَهَا كَمَا يُعَانِي الِوَرَى بِالمَوْتِ وَالهَرَمِ
وَمَا تَزَالُ، وَكُلُّ النَّاسِ أَمْثَلَةٌ مِنْهَا، وَمَا اخْتَلَفُوا عَنِ السَّالِفِ الأُمَّمِ

* * *

إِلَيْكَ قَبْلَ وُفُودِ الشَّمْسِ فِي الظُّلْمِ
كَمَا نُحِسُّ بِأَلْوَانٍ مِنَ الأَلَمِ
لَا يَسْتَقِرُّ كَجَنْدٍ جَدِّ مَنْهَزِمٍ
كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حِسِّ وَلَا كَلِمٍ
وَإِنْ بَدَأَ غَيْرَ زَخَّارٍ وَمَحْتَدِمٍ
وَحَالُهُ حَالُ صَحَابٍ وَمَبْتَسِمٍ
لِلْحَادِثَاتِ وَجَمْعٍ غَيْرِ مَنْتَظِمٍ
وَجَهِي وَيُوقِظُ وَجِدَانِي مِنَ الصَّمِّ
حَوْلِي بِمَخْتَلَفِ الأَسْيَادِ وَالخَدَمِ
مَجْدُدًا وَالغَدَّ الْمَنْظُورَ عَنْ أُمِّ
وَكُلُّهَا بَيْنَ مَغْرُورٍ وَمَنْحَطِمٍ
كَمَا تَعَمَّرُ أَشْلَاءُ مِنَ الرَّمِّ
فَلِمَ تَمَّتْ رَغَمَ هَذَا المَوْتِ مِنْ قَدَمٍ
وَكُلُّهَا كَالضَّحَايَا خُضِبَتْ بِدَمٍ
رِذَائُهُ كَشِرَارٍ جَدِّ مَضْطَرِمٍ
وَكَمْ لِهَاتُورٍ مِنْ بَرٍّ وَمِنْ نِعَمٍ!

سَفِينَةَ الشَّمْسِ قَدْ جِئْنَا عَلَى لَهْفٍ
نُحِسُّ فِيكَ بِأَنْوَارٍ مَحْجَبَةٍ
وَذَلِكَ البَحْرُ - بَحْرُ المَوْتِ - مَضْطَرِبٌ
أَشِيمُهُ بِشَعُورٍ لَسْتُ أَعْرِفُهُ
وَالرَّمْلُ كَالْمَوْجِ زَخَّارٌ وَمَحْتَدِمٌ
عَلَى سُكُونٍ كَأَنَّ السُّخْرَ يَشْمَلُهُ
وَالدهرُ يَسْبِحُ فِيهِ بَيْنَ مَنْتَظِمٍ
كَأَنَّمَا هُوَ يُلْقِي بِالرِّذَائِ عَلَى
فَأَشْهَدُ العَالَمَ السُّفْلِيَّ مَحْتَشِدًا
وَأَرْقُبُ الأَمْسَ فِي أَقْصَى مَصَارِعِهِ
وَالمَوْجُ يَهْمَسُ بِالأَحْدَاثِ أَجْمَعِهَا
قَدْ عَمَّرَتْ وَهِيَ أَشْلَاءُ مَبْعَثَرَةٌ
كَأَنَّمَا الخَوْفُ فِي الأَدْهَارِ حَنَطَهَا
تَجْرِي حِيَالِي وَأَخْشَى مِنْ مَشَاهِدِهَا
وَالمَاءُ كَالوَهْمِ لَا شَيْءٌ، وَأَعْجِبُهُ
لَوْلَا رِعَايَةُ «هَاتُورٍ» لأَحْرَقْنَا

* * *

عَلَى فِرَاقِكَ بَعْدَ العَطْفِ وَالكَرَمِ
كَأَنَّ عَمْرِكَ عُمُرُ الخَلْقِ كُلِّهِمْ!

سَفِينَةَ الشَّمْسِ نَمْضِي الآنَ فِي أَسْفٍ
يَبْدُ عَمْرُكَ عُمَرَ الشَّمْسِ دَائِرَةً

ضحية الكهرمان

(شاهد صاحب الديوان ذبابة من نوع منقرض في حجر من الكهرمان.)

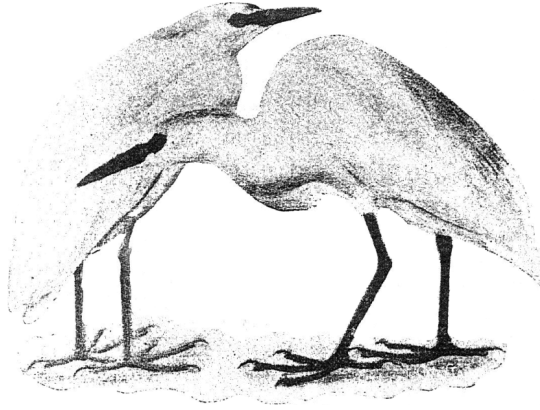
مَضَّتِ القُرُونُ وَمَا عَرَفَتْ فِكَاكَا
حَتَّى تَجَمَّدَ لِلحَيَاةِ شِرَاكَا
وَتَخَذَتْ فِيهِ عَزِيزَةً مَأْوَاكِ

يَا بِنْتَ آلافِ السِّنِينَ سَجِينَةً
هِيَ عَثْرَةٌ لِكَ فِي مَسِيلِ خَادِعٍ
فَحَفِظْتَ تحْفَةَ جَوْهَرٍ لَمْ تَعْتَقِي

فَوْقَ الْعُبَابِ

وبقيتِ ماثلةً بنوعكِ بيننا
فكأنما يحيا على مَرَآكِ
وحَيِّيتِ مَبِيتَةَ كَتَحْفَةِ عَالَمِ
حَيٍّ، ونحن نعيش كالأمواتِ
بلحِ المحيطِ الدهرُ عَالَمٌ نُونَا
ولسوف يَجْمَدُ بَعْدُ دُونَ حَيَاةِ!

أهلاً أبو قردان!



أبو قردان

أهلاً «أبو قردان»
يا منقذَ الفلَّاحِ!
كلاكما قد هانَ
واستمراً الأتراحِ
إنَّ قَدْرُوكَ الآنَ
لم يَعْرِفُوا قَدْرَهُ
لم يَفْهَمُوا الإنسانَ
إنَّ يَفْهَمُوا غَيْرَهُ
تَعِيشُ بَيْنَ الحَقُولِ
مستأصلاً للضَّرَرِ
بناقرٍ لا يَحُولُ
وناظرٍ مِنْ شَرِّ

وقد لبستَ البياضُ
وتارةً مثلَ قاصٍ
تُتابعُ الحَرثنا
وترفضُ النِّكثا
تلوحُ كالوسنانِ
لكنك اليقظانِ
في صُفْرَةِ البرتقالِ
كلاهما في جمالِ
شعارنا للنُّضارِ
والرَّيشُ ريشُ النهارِ
عش يا صديقاً يكُدُّ
يرجوكَ عانٍ وعبُدُّ
في صورةِ الناسِكِ
يُقضي على الهالكِ
وتلقطُ الديدانُ
بالعهدِ للإنسانِ
والحالمِ العابدِ
والباحثِ الساجدِ
رجلاكَ والمنقارِ
نراه أبهى شعارِ
شعارنا للغنى
لو صار طيراً لنا!
دليلنا في الحياةِ
فأنتَ برُّ الإله!

مناحة الفن

(رثاء المثل محمود مختار)

روائعَ الفنِّ! ماتَ الفنُّ والعيْدُ
أنتِ اليتيمَةُ والأعمامُ شأنُهُم
ماتَ الذي رُوِحَ مصر في تَفَنُّنِهِ
الجاعلُ الصخرَ حياً في أناملِهِ
والخالقُ المثلَّ الأعلى وإنْ حُبِّتْ
والمُبدِعُ الحُسنَ أعضاءً وأنسجَةً
رزءٌ له يخرسُ الإفصاحُ مِنْ وَلِهِ

وماتِ اليومَ في الجوّ الأناشيدُ
شأنُ اليتيمِ، فلا عَوْنٌ ولا عيْدُ
حتى تجلَّتْ بنجواهُ الجلاميدُ
ونبضُهُ بشعورِ الفنِّ مشهودُ
رُموزُهُ، وكأنَّ الكشْفَ تبديدُ
تَشْفُ، فهي مَعانٍ وهي تجسيدُ
فعادَ يُنطقُهُ حُبٌّ وتمجيدُ

^٤ إشارة إلى الربيع.

^٥ إشارة إلى الفنانين الآخرين.



محمود مختار (بريشة الفنان أسطفان).

وكم شجانيّ تحريرٌ وتصفيدُ!
أسبابه ... ليس في التبعيدِ تبعيدُ
والشعرُ كالنحتِ إحساسٌ وتخليدُ
كأنما التهمتْ تأميلنا البيدُ؟!
كما تحجّبَ مكنوزٌ ومعبودُ
من ذلك السرِّ آياتٌ وتشبيدُ

أنا الطليقُ بأصفاٍ ... فواعجبًا!
إنّ التجاوبَ إشراكٌ وإنّ بُعدتْ
لئن رثيتُ فشعري من مناهله
ما بال شعري وما بالي بلا أملٍ
كأنما في صحاري الدهرِ غيبته^٦
واحسرتها! فقد ضاعتْ بضيعته^٧

^٦ أي الأمل.

^٧ الفقيد المرثي.

وقد تعتَّر أحجانا وأحصَفنا
وليس كلُّ غنانا عند حسرتنا
كأنما روحه أرواحنا، فمضتْ
وا لهفةَ الأدبِ العاليِ بملهمه!
أَيَقْتَلُ الدَّرَنُ^٨ العاتي مجدِّدنا
لِمَنْ تعيشُ «عروس النيل»^٩ بعد أب
ترى الرشاقةَ فيها كلُّها حَزَنٌ
مثالُ «مصر» بمعناها وروعتها

* * *

مشيتُ في الموكبِ المصدوعِ منصداً
والنعشُ كالهيكَلِ المرفوعِ حفَّ به
سرنا ولسنا عديداً بينما طفحتْ
كأننا نحن «مصر» رغمَ غيابتها
أسى سيشمل «وادي النيل» أجمعه
أسى ولا كالأسى، فالقنُّ مَيَّتَتْهُ

* * *

يا مُرْعَشَ الحجرِ البَسَامِ في صُورٍ
وَأَسَرَ النَظْرَةَ العَجَلَى بلا أَمَدٍ
أينَ التي زِدَتْها وحيًا وتكرمةً
وكيف لم ينتظمنَ الناسَ في حرقٍ
و «الرمسيوم» كأرماسٍ بها دُفِنَتْ
أينَ التي قَدْها الممشوقُ ثورتهُ
ونَهْدُها ذلكَ الوثابُ مِنْ حَجَرٍ

من الأنوثة! ... هذا الصخرُ محسودُ!
الموتُ كالنَّاسِ مأسورٌ ومجدودُ!
وكيف لم تزدهم في المأتمِ الغيدُ؟
وتلك «طيبة» أحرانٌ وتسهيْدُ؟
خواطرٌ لك خانتها المواعيدُ؟
في فنك الحَيِّ إثراءٌ وتعييدُ؟
وجيْدُها صخرُكَ الفتانُ لا الجيدُ؟

^٨ مرض الفقيدي سبع سنوات بالدرن (السلال) حتى قضي عليه في آلام مبرحة.

^٩ أشهر تماثيل مختار. وقد اشترته الحكومة الفرنسية ووضعتة في متحف قصر التويليري بباريس.

أَحْرَى الْأَنَامِ بِأَحْزَانٍ وَتَعْزِيَةٍ
 لَوْ تَحْمَلُ النِّعَمَ زَكَّاءً وَقَدَّسَهَا
 مَتَّ الشَّهِيدَ لِمَغْزَاهَا وَفَتَنَتِهَا
 وَلَوْ رُفِعَتْ شَهِيدًا فَوْقَ هَامَتِهَا
 رُوحٌ كَرُوجِكَ غَلَّابًا وَمَنْهَزَمًا
 وَهُوَ الْحَرِيُّ بِمَجْدِ الْحَبِّ إِنْ عَطَلَتْ
 مَنَّا، فَهَلْ رَدَّهَا أَوْ صَدَّهَا الْعِيدُ^{١٠}
 كَأَنَّمَا هُوَ تَكْرِيسٌ وَتَعْمِيدُ
 وَذَاكَ حُبُّكَ تُغْنِيهِ الْأَسَانِيدُ
 فَمَنْ سِوَى الْفَنِّ جَبَّارٌ وَصَنِيدُ؟
 هُوَ الْكَمِيُّ، وَمَنْ عَادَاهُ رَعِيدُ
 دُنْيَا الْأَنَامِ وَخَانَتُهُ التَّقَالِيدُ

داء البيئة

مَبَاهِجِ النَّيْلِ مَا لِلنَّيْلِ مُضْطَرَمًّا
 نَظَرْتُهُ بِفَوَائِدِ كُلِّهِ حَرَقُ
 لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ حَيَاةٍ كُلِّهَا ظَمًّا
 وَلَا مِنَ الْحُلْمِ إِلَّا مَا يُورِّقُنِي
 كَأَنَّمَا هُوَ فِي الصَّحْرَاءِ كَالْأَلِ؟!
 فَزَادَ حَرَقَةَ قَلْبِي ثَائِرٍ بِأَلِ
 إِلَّا أَعَاصِيرُ الْأَمِيِّ وَأَهْوَالِي
 وَلَا مِنَ الْحُسْنِ إِلَّا رَوْعَةُ الْبَالِ!

* * *

أَسِيرٌ وَحِيدِي بِأَثْقَالِ مَرْوَعَةٍ
 أَنَا الشَّرِيدُ وَنَفْسِي كُلُّهَا شَمَمٌ
 لَا أَسْتَطِيعُ فَكَأَنَّكَ مِنْ مَطَالِبِهَا
 لَكِنَّمَا حَظُّهَا فِي حَظِّ بَيْتِهَا
 وَلَيْسَ يُدْرِكُ غَيْرِي كُنْهَ أَثْقَالِي
 وَعِزَّةَ بَيْنِ تَشْرِيدِي وَأَحْمَالِي
 وَمَا مَطَالِبُهَا فِي حَظِّهَا الْعَالِي
 وَمَجْدِ أُمَّتِهَا الْمَأْمُولِ وَالْحَالِي

* * *

وَجَاهِدِ طَالَمَا أَوْلَيْتَهُ ثِقَتِي
 فَلَيْسَ ثَمَّةَ أَعْلَى لِأَمْرِي فِطْنِ
 لَمْ أَلْقَ مِنْهُ سِوَى هَجْوِي مَكَافَأَةً
 وَلَا أَقُولُ جِهَادِي الْجَمِّ أَوْ مَالِي
 مِنْهَا، وَمَا كُلُّ غَالٍ دُونَهَا غَالٍ
 أَوْ التَّطَاوُلِ فِي أَوْهَامِ مَخْتَالِ

^{١٠} دفن الفقيد في اليوم الثالث من أيام عيد الأضحى. ولم تشترك بنات مصر في جنازته مع أن مختارًا وقف فنه على تمجيد المرأة المصرية.

عن عمِّه الأحمقِ الممرورِ والخالِ!
وناصحِ الناسِ وهو المفسدُ القالي!
بالغدرِ في غنيةٍ عن كلِّ دجالِ!
يا ويحها بيئةٌ منكمُ بإذلالِ!
فيكم، وقد وُضعتُ منكمُ بأغلالِ!
فيا لدنيا تُعاني حُبثَ ضلالِ!
منْ غدرِ أمثالكمُ آمالُ أجيالِ!

أبا الجحودِ! وكم تُغني أبوتُهُ
يا سائلَ الناسِ إنصافاً وغابنهم
عدُّ للذين تغذيتُم سواسيةً
كم تصخبون وكم تشكون بيئتكم
كدنا نسامحُ دنيانا فقد خُدعتُ
أنتم أساتيذها الشاكون ضللتها
ويا لآلامنا اللهفي! فقد وئدتُ

عيد الحياة

(شم النسيم)

في بيئةٍ خُلقتُ من الأمواتِ؟
فرحَ الوجودِ بمبدعِ الآياتِ
فكأنما الماضي البعيدُ الآتي!
ببنيهِ، لا فرحُ الزمانِ العاتي
حتى الجمادُ له حيورٌ ذاتي
لهوى الحياةِ وغايةِ اللذاتِ
سبقَ الهوى فجرى إلى الغاياتِ!
أمُّ العجائبِ في عجيبِ صفاتِ
في الحبِّ والأعيادِ والخطراتِ
يومِ الحياةِ لعالمِ أشتاتِ!

عيدَ الحياةِ! أملكُ بعضَ حياتي
الكونُ ينبضُ بالشعورِ وها أرى
والميتُ يُبعثُ في جديدِ معجبِ
فرحُ الطبيعةِ فيه فرحةٌ خالقِ
رقصوا جميعاً في تحرُّرِ نعمةٍ
وتمثّلوا البيضَ المحلّى رمزهم
حاكتُ بشائرهُ التغرُّلَ بينما
عيدٌ لمصر، ومصرُ في إعجازها
طبعَتُ صباحتها الشعوبَ بما اشتهدتُ
فنسيّمها عيدُ الربيع، ويومهُ

* * *

بالشعرِ خصبَ الجذبِ والفلواتِ
ونرى المواتِ يَلوحُ غيرَ مواتِ
جذلى وبين أنوثَةِ الخطواتِ
شَتى ولكنْ كلُّها لحياةٍ

اليومِ يُخصبُ كلُّ مَعْنَى حافلِ
وتُبثُّ في الأحياءِ نشوةُ عيشهم
ونرى الطبيعةَ بين لهوِ طفولةٍ
ونرى الحياةَ تقومُ بين تجاربِ

يَهْبُ الحَيَاةَ سِوَاهُ عِنْدَ مَمَاتٍ
عَنْ وَصَلَ مَنْ أَهْوَى فَقَدْتُ حَيَاتِي
أَقْسَى المَمَاتِ الحِسُّ بِالأَمَوَاتِ!

الميتُ منها لا يموت وإنما
وشعرتُ وحدي أنني في عُزَلتي
والميتُ ليس له شعورٌ بينما

الهدهد في القرية

(نكريات ريفية)

مَلَأَ القَرِيَةَ حُسْنًا وَخَطَرًا!
غَيْرَ أَهْلِ الشَّعْرِ أَوْ أَهْلِ الصُّوَرِ!
فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ نُورٌ مَا اسْتَقَرَّ
مِنْ نَهْيِ الشَّمْسِ وَمِنْ مَعْنَى المَطَرِ
مِنْ حُلَى القَوْسِ^{١١} وَمِنْ وَحْيِ السَّحَرِ
فَإِذَا هُمْ مِلْءٌ فِكْرِي وَالنَّظَرِ
مِنْ نَضَارِ هُوَ أَضْغَاثُ البَشَرِ
حِينَما عَافُوا الغُرُورَ المَحْتَقِرَ^{١٢}
فَإِذَا التَّيْجَانُ رِيَشٌ وَشَعْرًا!

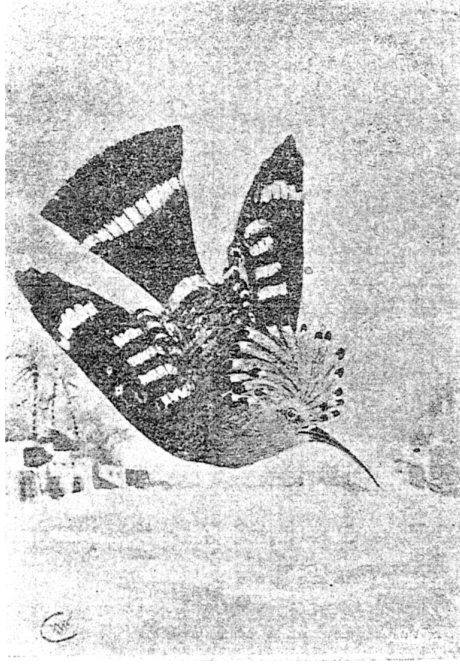
مَرْحَبًا بِالهدهدِ الوَافِي الأَبْرِ
عَدَّ كَلَّ النَّاسِ أَتْبَاعًا لَهُ
جَاءَنِي مِنْهُ رَسولٌ كَلُّهُ
حَائِمًا حَوْلِي، وَفِي تَرْحِيبِهِ
جَمَعَ الأَصْبَاعَ فِي زِينَتِهِ
ثُمَّ وَلَّى مُنْبِئًا رِفْقَتَهُ
لأَبْسُو التَّيْجَانَ أَبْهَى زِينَةً
عَنْ «سَلِيمَانَ» لَهُمْ حِكْمَتُهُمْ
وَأَبُوا تَيْجَانَ تَبِرٍ مَرهِقٍ

بَيْنَ آدَابِ غَوَالٍ وَصُورِ
وَحُلَاهِ مِنْ ضِيَاءٍ وَزَهْرِ
تَشْتَكِي مِنْكُمْ حَقولٌ وَحَجْرُ
لَكُمْ فِي الشَّمْسِ مَا فِيهَا مَقَرُ
بَيْنَمَا لَيْسَ لَكُمْ فِيهِ وَطَرُ
كَلِمَا نَالَ أَمَانِيهِ نَفْرُ

مَرْحَبًا بِالْفَنِّ فِي أَعْلَامِهِ
كُلُّ فَرْدٍ مِنْكُمْ مُهْجَتُهُ
تُنْفِقُونَ العُمَرَ فِي البَحْثِ، فَكَمْ
دَائِمِي التَّنْقِيبِ حَتَّى جِلْسَةً
كُلُّ مَا حَوْلَكُمْ فِيهِ وَطَرُ
صُورَةُ الفَنِّانِ فِي أخلاقِهِ

^{١١} قوس قزح.

^{١٢} إشارة إلى قصة الهدهد وسيدنا سليمان.



الهدهد في القرية.

* * *

مَرْحَبًا يَا هُدْهْدِي! حَسْبِي إِذَا
نَحْنُ صَنَوَانِ بِرُوحٍ وَدَمٍ
غَيْرِ أَنِّي رَهْنُ جَسْمٍ أَسْرٍ
وَأَنَا الْبَاكِي عَلَى عُمُرٍ مَضَى
لَكَ دِينَ أَوْحَدِي خَالِدٌ
زُرْتُ هَذَا الرَّيْفَ مَرَّكَ الْأَبْر
وَحَنَّانٍ وَأَمَانٍ وَذِكْرٍ
بَيْنَمَا أَنْتَ عَزِيْزٌ مَا أَسْرٍ
بَيْنَمَا تَضْحَكُ مِنْ مَعْنَى الْعُمُرِ!
حَيْنَمَا الْمُؤْمِنُ مَنَّا قَدْ كَفَرَ!

وَرَحَلْتِ - للبلدِ الجميلِ - رواءَ
ضربَ الضلوعِ تَطْلُعًا وإِبَاءً؟
مَعْنَى إلى أن فَسَّرَ الأَنْبَاءَ
كالسجنِ ألفتُه تزيدُ جفاءً!
وهم يردُّهُ الصديقُ عزاءً
لطفُ فَرَدَّهَا الصبَاحُ ضياءً!
نجوى الجمالِ لخاطري تتراءى!

وَدَّعْتَنِي توديعَ حُلْمٍ خاطفٍ
مَنْ حَدَّثَ القلبَ الغيورَ فإنه
لم أدرِ مَنْ أرقِي ولوعةٍ وحشتي
يا غُربتي وأنا المقيمُ بمؤئلٍ
وَدَّعْتَنِي في غيرِ توديعِ سوى
فلعلَّ صوتكِ كان ملاءً أشعةً
قَبَلْتُهَا وشممتُها فكأنها

* * *

تَهَبُ الخلودَ وتُلهمُ الشعراءَ
عينيك وهو يحذرُ الأحياءَ
وكتبتِ أحداثَ الغرامِ سواءَ
لهبًا تناولَ أنفَسًا وسماءَ
فوقَ العُبابِ فجيعةً ودماءَ
في غيرِه لم يعرفِ الشهداءَ!

يا حظَّ شاطئِ «أفرديت»^{١٣} بفتنةٍ
وقفَ الزمانُ على الرِّمالِ مشارفًا
كتبَ الحوادثَ في الرمالِ وقائعاً
وقتلتما أعلى المنى ونشرتما
وجرى الهوى فوقَ القلوبِ كما جرى
مرأى هو الهولُ الحبيب، ومن يعيش

* * *

وكهولتي! مَنْ لي سواك رجاء؟
لمحاتُ أخيلةٍ تَطيبُ جلاءَ
يَسْتَعذِبُ الحرمانَ والأشقاءَ
فحييتُ في سكري صباحَ مساءً
لهما، كما شاء الغرامُ وشاء؟
كالبحرِ يحجبُ صمتهُ الأنواءَ
بالوجدِ وهو يحزُّ قلبي داءً

ناري! وريحاني! وأنسَ شبيبتي
مضت السنونُ الجانياتُ كأنها
لم أشكها إلا وقلبي عَبدُها
عيناكِ لم أدقِ السلافِ سواهما
ما اللهم؟ ما الهجرُ المبرحُ إن أعشُ
عُودتُ أشجانَ الصموتِ ومهجتي
كم مرةً ألقاكِ فيها لم أبخُ

^{١٣} شاطئى الإسكندرية.

أَلْقَاكَ وَالْحُبُّ الدَّفِينُ مَعْدَبِي
وَأَغْصُ بِالْحَالِيْنَ غِصَّةَ شَاعِر
وَيَثُورُ حَسَنُكَ بِالْحَنَانِ جَوَارِحًا
فَإِذَا رَحَلَتْ الْآنَ جَدًّا بِخَيْلَةٍ
رَغَمَ اللَّقَاءِ فَلَا أَرَاهُ لِقَاءَ
قَدْ لَوَّنُوا بِأَسَاءَةٍ نِعْمَاءَ
وَخَوَالِجًا فَاِخَالَهَا بُخْلَاءَ
فَلْتَحْشِدِ الدُّنْيَا لِي الْأَعْدَاءَ
فَالهَجْرُ أَقْسَى شُعْلَةً وَقِضَاءَ!

* * *

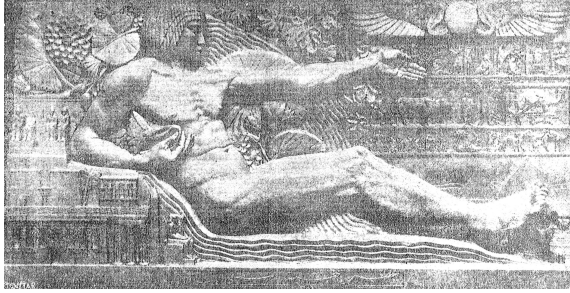
طِيبِي رِبْوَعِ الرَّمْلِ! طِيبِي وَانْعَمِي!
لَطَفْتُ كَنُورَ الرَّبِيعِ نِضَارَةً
جَمَعْتَ مَلَاحِثَهَا الْفُصُولَ صَبَاحَةً
حَتَّى تَكَادِ طَيبُ قَسْوَةَ هَجْرَهَا
وَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا تَرْفُ بِأَسْرَهَا
طِيبِي رِبْوَعِ الرَّمْلِ وَاسْتَوْحِي بِهَا
وَتَأْهَبِي لِلْعَاشِقِينَ بِنَشْوَةِ
وَتَنْقَسِي مِنْهَا الْهَوَى أُنْدَاءَ!
وَصَفَتْ كِنَاصِعَةَ الثَّلُوجِ نِقَاءَ
وَحَرَارَةً وَتَقَلُّبًا وَوَفَاءَ
طِيبِ الْوِصَالِ تَمَنُّعًا وَرِضَاءَ
مِنْ رُوحِهَا فَيَسْرُ مَا قَدْ سَاءَ
فَنَّ الْجَمَالِ وَجَسْمِي الْإِغْرَاءَ
حَتَّى يَرَوْا مَجْدَ السَّمَاءِ الْمَاءَ!

* * *

مَضَتْ السَّنُونَ وَكُنْتُ طِفْلًا لَاهِيًا
وَأَقَمْتُ فِي الرَّمْلِ الْعَزِيزِ قَرِيرَةً
وَالآنَ عَادَ الدَّهْرُ عَوْدَةً سَاخِرَ
فَإِذَا عَنَاءُ الطِّفْلِ عَادَ مَنَاحَةً
يَسْتَقْبِلُ الْأَتْرَاحَ فِي أَغْلَالِهِ
وَكَأَنَّ «أَوْزَيْرِيسَ» أَوْفَرَ فِي الرَّدَى
وَالْبَحْرُ يَسْكُبُ نَائِيًا تَهْدَارُهُ
فَأَعْيِدُهَا بَيْنَ الْغَيُومِ تَأْلُقًا
أَهْفُو إِلَيْكَ وَكَمْ أذُوبُ حَيَاءَ
وَأَنَا الْبَعِيدُ أَتَابِعُ الْأَصْدَاءَ
يُشْجِي الْقَرِيرَ وَيَقْتُلُ السَّرَاءَ
لِفَوَائِدِ مَبْكِي يِعَافُ بُكَاءَ
مَتَبَسُّمًا مَتَقَطُّعًا أَشْلَاءَ
حِظًّا وَأَبْلُغُ فِي الْمَمَاتِ نِدَاءَ
فِي مِسمَعِي اللَّهْفَةَ الْخَرَسَاءَ
وَأَذِيبُهَا بَيْنَ الصَّخُورِ غِنَاءَ!

مصر هبة النيل

(استيحاء اللوحة الفنية الرائعة للمثال المصري إدوار زكي خليل، وقد مثلت مصر بشكل جبَّار جميل متناسق الأعضاء مفتول العضلات وهو خارج من بين أمواج النيل الذي ينساب إلى اليسار بين المعابد والآثار التي تقابله عند دخوله إلى مصر عند معبد أبي سمبل، وتظل تزين ضفافه من طيبة والكرك إلى أبي الهول وأهرام الجيزة. هذا عن مصر الفرعونية، أما عن مصر الحديثة فقد خصص لها الركن الأعلى إلى اليمين من لوحته فمتمل زراعة القطن والري والقوافل والصناعات القروية الوطنية والسواقي وغيرها. وهناك زهرتان تزينان اللوحة إحداهما زهرة اللوتس رمز مصر الفرعونية، والأخرى زهرة القطن رمز ثروة مصر الزراعية الحديثة.)



مصر هبة النيل (للمثال المصري إدوار زكي خليل).

كَرُمْتِ لِلْفَنِّ مَعْبُودًا وَلِلدَّارِ
كَرُوحِهِ آيَةً مِنْ رُوعِ جَبَّارِ
بَأْسٍ، وَقَدْ بَسَقَتْ مِنْ مَائِهِ الْجَارِي
فِي سُوْدٍ مِنْ عَنَابَاتِ وَأَقْدَارِ
فِيهَا سَمَاحَةٌ غَلَابٍ وَقَهَّارِ
لِلقَارِئِينَ وَيُشْجِي الشَّاعِرَ القَارِي

يَا سُورَةَ الفَنِّ فِي مَنحُوتِ آثَارِ
مَا أَرُوعَ «النَّيْلِ» جَبَّارًا وَطَلَعْتَهُ
أَوْ أَنَّهَا رُوحُ «مِصْرٍ» لَا يُعَادِلُهَا
لَا حَتَّ بِجَلِيسَةٍ مَعْتَرِّ بِدَوْلَتِهِ
يُنْسَابُ فِي دَعَا، لَكِنهَا دَعَا
وَالْمَاءُ يَنْصَبُ كَالتَّارِيخِ مَنبَسَطًا

بالفتح لا شُعْنًا أنضَاءَ أسفارِ
يا طالما عُبِدَتْ في ظلِّ آثارِ
ورأسها بين أزهارِ وأزهارِ
غنَاءَ ما بين جنَّاتِ وأمصارِ
و«الكرنك» الفخْمِ في وحيِّ وإضمارِ
رُءوسها آخَذَاتِ الدهرِ بالثَّارِ
وكلُّها في المعاني آيُّ أبكارِ
وكلُّ عصرٍ لمصرَ شَبُههُ مختارِ
كالنارِ في النورِ أو كالنورِ في النارِ
وطُهِرَتْ رَغَمَ أوزارِ وأوزارِ
فالرَّيفُ كالنيلِ حُرٌّ وابنُ أحرارِ
جميعُها شَبُههُ الألفِ وسُمَّارِ
عن الخلودِ لأحيَاءِ وأشعارِ
«مصرُ الحديثةُ» كالأضواءِ للشاري
بالذكرِ مِنْ مَهَجِ صِينَتْ عن العارِ
كيما تُجَمِّعُ أصالًا بأسحارِ
للمجدِ ما بين أحلامِ وأوطارِ
ووحدةِ الفنِّ في نبتِ وأحجارِ!

تَفِيضُ أمواجهُ جَيَّاشَةً أبدًا
بين المعابدِ والآثارِ زاخرةً
لدى «أبي سميلٍ» مَسْنُودُ ساعديها
وتلك أعضاؤها أعضاء مملكةِ
ما بين «طيبة» ناجتْنَا روائعُها
وبين «بلهيب» و«الأهرام» رافعةً
شَتَّى المفاتِنِ تُشجِنَا وتلهمنا
مختارةً من عصورِ للعلى غبِرتْ
فيها الحياةُ دوامًا جدُّ كامنةِ
تَأَلَّقَتْ رَغَمَ أَسْتارِ وأَسْتارِ
وأشْرقتْ مصرُ بالرَّيفِ السعيدِ بها
هذي صناعاتُها، هذي سوائمُها
عاشتْ مِنْ الزمنِ الخالي تُحدِّثنا
عاشتْ فَأَنْصَرَّتِ القطنَ الذي غرست
كأنما القطنُ ينمو قبلَ تُرْبَتِهِ
واللُّوتُسُ الخالدُ المحبوبُ زاملُهُ
وكي تَرَى «مصرُ» في مَرَأَيْهِمَا صُورًا
وكي تَرَى وحدةَ التاريخِ ماثلةً

* * *

كما تَقَرُّ به في جُودهِ الباري!
معشوقَةً بين صَوَاغِ وعطَّارِ
سبقَتِها أنتِ للعُبادِ لا الشاري
و«النيلُ» خيرَ أبِ ناهٍ وأمَّارِ!

يا «مصرُ» يا هَبَّةَ «النيلِ» القريرِ بها
خُلقتِ مِنْ مائه المعسولِ حاليَّةً
كأنما الجنةُ الموعودُ نِعَمَتُها
فكنتِ أُمَّ جِنانِ الخلدِ في طَرْفِ



فؤاد الأول البناء الأعظم (للمصور المصري ناجي).

«مصر» العزیزة قُوَّةً وبناءً؟
حتى سمت فتصدَّعت أجزاءً
بالهدم أو لم يُنصف البناء
جعل الشقائق إباءها استخذاءً
مَعنى الفناء وإن سَمَا وأفاء!

في عصرِكَ الذَّهْبِيِّ مَنْ لي أن أرى
لم تَألُّ سَعياً في سبيلِ كمالها
لا خَيْرَ في الجُهدِ العظيمِ إذا انتهى
دَبَّ الشقائقُ بها، وكم من منعةٍ
كالطُّودِ أو كالصَّرْحِ في تصديعه

* * *

مَنْ لِي وَقَدْ بَلَغَ الشَّقَاقُ صَمِيمَنَا
فِي وَحْدَةٍ قُدْسِيَّةٍ عُلُويَّةٍ
بِالْمَنْصَفِ الْإِبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ
لَا أَنْ نُبَعِّثَرَ هَكَذَا أَشْلَاءَ؟
أَعْلَى وَإِنْ لَمْ يَعدِمِ الزَّعمَاءَ
وَنَرَى الكِرَامَةَ تَصحبُ الكِرْمَاءَ؟
حَتَّى نَرَى الصَّدْعَ المَرْوَعِ مَنعَةً

* * *

مولاي! كم مِنْ مَادِحٍ لَكَ حينَمَا
فَاقبَلُ رَجَائِي فَهُوَ أَنْبَلُ غَايَةً
أَنْتَ الغَنِيُّ عَنِ المَدِيحِ عِلَاءِ
عَنْ كُلِّ مَدْحٍ لَا يَبْتَ رَجَاءَ
وَأَسْمَعُ لَصَوْتِ الشَّعْبِ مِنْ فَمِ شَاعِرٍ
وَأَسْلَمَ لِمَصْرٍ مَوْلُفًا وَمَوْحِدًا
يَأْبَى رِيَاءَ المَادِحِينَ إِبَاءَ
أَبْنَاءِهَا حَتَّى يُرَوِّأَ آبَاءَ

في ضاحية المطرية

دعاني الفجرُ دعوةً مستقلُّ
فَقَمْتُ مَلْبِيًّا، وَكَأَنَّ نَفْسِي
بِمَا أَحْيَاهُ مِنْ صُورِ المَعَانِي
لَهُ سَبَقْتُ بِأَجْنَحَةِ الأَمَانِي!
أَطُوفُ عَلَى الحَقُولِ كَأَنَّ فِيهَا
كُنُوزًا حُبِّئَتْ عَنْ كُلِّ رَانٍ
فَأَنْهَبُهَا وَلَمْ أَلْمَسْ خَبِيئًا
وَيَجْنِي اللُّحْظُ مَا تَخْشَى اليَدَانِ!
وَأَنْظُرُ لِلنَّخِيلِ بِوَجْدِ عَانٍ
كَأَنَّ ظِلَالَهُ إِنْقَادُ عَانٍ
وَأُرْسَلُ فِي الفِضَاءِ الطَّرْفَ يَجْرِي
وَرَاءَ الطَّيْرِ سَبَّاقِ الرَّهَانِ
أَفْتَشُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَأَلْقَى
مِنَ الأَصْدَاءِ أَفْصَحَ تَرْجِمَانٍ
وَأَخْطِفُ سِرَّهُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ
مِنَ الحَبِّ المَنْزَرِ عَنْ مَكَانٍ
كَأَنِّي حَيْثُ سَرْتُ وَحَيْثُ أَبْقَى
تَنْفَسُهُ شَعُورِي أَوْ جَنَانِي
وَلَمَّا فَاضَ نُورُ الشَّمْسِ حَوْلِي
رَأَيْتُ النُّورَ لَا يَثْنِيهِ ثَانٍ
تَغْلَغَلَ فِي الضَّمَائِرِ وَالخَفَايَا
تَرَى الذَّرَاتِ تَرْقِصُ فِيهِ حَيْرَى
كِرْقِصِ المَوْتِ فِي بَحْرِ الطَّعَانِ!

مشاهدُ للحياةِ، وكلُّ مرأى
روائعُها هي الحبُّ المُصَفَّى
تمرُّ مصارعُ الأحياءِ بَيْنَنَا
فَأفُّ للتلأُمْلِ يا حياتي!
ولو أني وقد حَكَمْتُ عقلي
طُبِعْتُ على الكفاحِ كأنَّ سَلْمِي
وأحببتُ «الطبيعة» فهي أمِّي
يمجِّدها وقد نثرت لشعري
تَعَفُّ يدايَ عن لَمْسِ وَأَبِي
جواهرُ للحياةِ فكلُّ زهرٍ
فكيف وهذه الطرقاتُ شتى
عوالمُ تسكنُ الترابَ المسجِّي
وتَرَضَى باصطباجِ الماءِ حتى
وقد ضحكتُ لأخيلتي سماءً
ورفَّ الطحلبُ الثاوي قريراً
قد احتقرته أنظارُ البرايا
وجَمَعَ عنده الأصباغُ شتى
كأنَّ من الربيعِ حُلَى تناهتُ

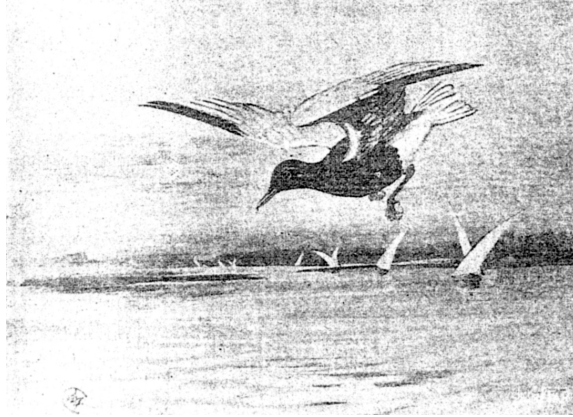
مشاهدُ للفناءِ وللتفاني
وملءَ الحُبِّ ألقى الموتِ داني
تري الأمواتِ تُبَعَثُ في ثوانٍ!
وأهلاً بالغباءِ وبالجبانِ!
أبى عقلي السعادةَ في الهوانِ
كفاحي للعضائمِ غيرَ واني
يمجِّدها الهوى قبلَ اللسانِ
أزاهرَ قد حكمتُ قُبَلَ الغواني
على قدميَّ منثورَ الجُمانِ
يضمُّ من الحياةِ غنىَ البيانِ
جداولُ من أزهرها الحسانِ؟
لها من بعدِ صُحبتِها الأغاني^{١٤}
إخالَ الماءِ فاضٍ بلا أوانٍ!^{١٥}
بدمعِ اللهوِ من سُحْبِ تراني!
على ماءٍ يحنُّ له حناني
وحيَّته الفنونُ على احتضانِ
تمنَّتها أفاريزُ الجِنانِ
فما تلقى المهينَ على امتهانِ!

^{١٤} أغاني الطير وأهل السمر.

^{١٥} تتشكل الطرق المغطاة بالزهر حتى تخال عن بُعد كأنها جداول ماء.

زَمْجُ المَاءِ

(من مشاهد النيل)



زمج الماء

في حينٍ مَطْلَبُهُ أنأى عن الماءِ
بيضاءً عن طُرفٍ في الأفقِ بيضاءِ
ومن حِمَى أيِّ قُطْرٍ أنتِ رَحَالُ؟
فوقَ الظنونِ، ولا صحبٌ ولا آلُ
ما صار يُغْنِيكَ عن أرضٍ وعن ناسِ
وشائقُ بينِ وجدانٍ وإحساسِ
تَطوفُ من عالمِ المجهولِ والسحرِ

يا زَمْجَ المَاءِ^{١٦} عَبْرَ «النَّيْلِ» مَطْلَبُهُ
حاكَّتْ جناحَيْكَ فوقَ المَاءِ أشرعَةً
لِمَ انتقَالَكَ في همٍّ وفي تَعَبٍ؟
تَطِيرُ كالسائحِ المحزونِ غايتهُ
كأنما الأفقُ فيه من مَفَاتِنِهِ
تَطِيرُ ... يا قلِّمًا أرضَ تَهشُّ لها
كأنما أنتِ رَوْحُ «النَّيْلِ» طائِرَةٌ

^{١٦} هو ما يسميه الإنجليز: White Winged tern.

ونحن أجهلُ مَنْ يَلْقَى وَمَنْ يَدْرِي!
 فهل تَضِيعُ كما يمضي هَوَى الماءِ؟
 في البحرِ حَظَّيْنِ من موتٍ وإحياءِ!
 أَجْدَى عَلَيْكَ مِنْ استقْرَارِكَ الهانِي
 أم تحسبُ الزُّورِقَ المُزْجِيهِ كالعاني؟!
 لا ينتهي، وكذلك «النيلُ» في قَلَقِ
 نساءِمْ الحبِّ بالمحبوبِ في الأَفُقِ!
 لِلْحُورِ في الماءِ والأجواءِ في سِحْرِ
 بالشُّعْرِ في عالمٍ قد فاضَ بالشُّعْرِ!

نلقى معانيه في الماءِ زاخرةً
 تمضي بلا وجَلٍ والماءُ مبتسمٌ
 للماءِ أحلامه العظمى كأنَّ له
 وأنتَ هل لك عند التَّيِّهِ أخيلةٌ
 تهنيك مِنْ نَعْمِ المَلَّاحِ أدعيةٌ
 وأنتَ كالشاعرِ اللهفانِ في قَلَقِ
 ملكتما الآنَ طرفي حينما هَمَسْتُ
 دنا الماءُ وما أصفاهُ مِنْ زمنِ
 دنا الماءُ وما أغنى ثلاثتنا^{١٧}

في السباقِ

قِ وللتطلعِ في السباقِ
 فَنِّ المَفْصَلِ للعناقِ
 سوانِ وأفوافِ رفاقِ
 قِ وقد تَعَزُّ على الرِّفاقِ
 دِ مِنَ الأناقَةِ في وثاقِ
 سرُّ باشتياقِ واشتياقِ
 في ائتلافِ وائتلاقِ
 كأنه أحلامُ ساقِي
 مفتونٍ بتأميلِ مُراقِ
 ووهْمها كالحقِّ باقي
 هُنَّ على اتِّساقِ
 بين فنونِ راقِي

يا للملاحَةِ في السُّبَا
 مِنْ كلِّ زِيٍّ خِلْتُهُ الـ
 ما بين زركشةٍ وألـ
 تُغزَى بأنظارِ الرِّفا
 وتُرى السواعِدُ كالنُّهو
 مثلَ الأسيرةِ، وهي تَأ
 دُنيا الطِّراوَةِ والتَّجْمُلِ
 دُنيا من التَّرفِ العجيبِ
 تُسَقَى على نظراتِ
 وتعيشُ للوهمِ الحبيبِ
 وكأنهنَّ مُعَرِّباتٌ حين
 حتى الرِّجالُ تحوَّلوا بالوهمِ

^{١٧} يعني الشاعر نفسه والطائر والنيل.



في السباق (للرسام دومرج).

فإذا الخشونة لا تَبِينُ، فإن تَبِنَ فعلى نِفاقِ
وإذا الجمالُ مُؤَمَّرُ وإذا الخلافُ مِنَ الوفاقِ
وإذا السَّباقُ أحبُّ للفنانِ في تلك المَراقبي^{١٨}
تَجري العواطفُ فيه جَري الخيلِ في جُهدِ مُطاقِ
متتابعًا متواصلًا بين انسيابِ واصطفاقِ

^{١٨} حيث يجلس النظارة.

حتى إذا خَتِمَ السُّبَا
ولبثتَ في رُوحِ السِّبَا
قُ نَهَبْنَ لِلكَأْسِ الدِّفَاقِ
ق ... أَلْسَنَ مِنْ خَيْلِ السِّبَاقِ!؟

تسبيحة

في طَيِّ وِجْدَانِي إِلَهِي
لَمْ أَدْرِهِ إِلَّا بِنَجْوَايَ
مَا قِيمَةُ الدُّنْيَا وَمَا الْآخِرَى
حَسْبِي ضَمِيرِي فَهُوَ مِنْهُ،
مَا عُمْرُهُ^{٢٠} عُمْرِي وَلَكِنْ
بَلْ عُمْرُ غَايَاتِ الْخُلُودِ
مَا الْكَوْنُ إِلَّا بَعْضُ إِحْسَاسِي
وَأَنَا الْغَنِيُّ عَنِ الْمَبَاحِثِ
فَمَنْ الصَّمِيمِ إِلَى الصَّمِيمِ
لَمْ أَحْيَ إِلَّا فِي نَهْيِ الرَّبِّ
لَمْ أَفْنَنْ إِلَّا فِي وُجُودِ
مَا أَعْجَبَ التَّشْكِيلَ فِي الدُّنْيَا
فصمِيمُهُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ
وَضَمِيرُهُ الْأَزْلُ الْمُقِيمُ
وَالْحَبُّ مِنْ رُوحِ الْأُلُوهَةِ

شَامِلًا رُوحِي كُلَّهُ
وَنَفْسِي الْمَسْتَقْلَةَ^{١٩}
وَفِي الْإِلَهَامِ مِلَّةً؟
بِالْغَا أَسْمَى مَحَلَّهُ
عُمْرُ أَبَايَ مُطَلَّه
السَّرْمَدِيِّ كَمَنْ أَظَلَّهُ^{٢١}
وَلَيْسَ الْكَوْنُ أَصْلَهُ
وَالْغَنِيُّ عَنِ الْأَدْلَةِ
نِدَاءُ نَفْسِي وَالْجِبِلَّةُ
الَّذِي قَدْ بَثَّ شَمْلَهُ
مَا دَرَى الْإِنْسَانَ مِثْلَهُ
فَيَنْسَى الْمَرْءَ شَكْلَهُ!
وَهُوَ لَا يَدْرِكُ أَهْلَهُ!
إِذَا أَبَاحَ الْمَوْتَ عَقْلَهُ
وَالْمَنْيَةَ أَنْ تَمَلَّهُ!

^{١٩} المستقلة عن كيانه الإنساني.

^{٢٠} عمر الضمير.

^{٢١} يريد الخالق الذي يزرعاه.

أبولو ودفني

دفني هي الحورية الحسناء التي أحبها أبولو إله الشعر، وقد تبعها فلما أدركها
استحالت إلى شجرة الغار.)

أبولو:

لستُ للصدِّ يا مُملِّكُ أهلاً
رَ معانيك، فامنحِ الشعرَ وضلاً
لهفتي كالصلاةِ مغزىً وأضلاً
ني على سرِّكَ المصُونِ المَعْلَى
ني حبيباً؟ وهل ترى الصدَّ سهلاً؟
هُ ورُوحِي عواطفُ تَتَمَلَّى
وَمِنَ الغَبْنِ أَنْ تُطَاوَعَ جَهلاً
وأباحوا عجائبَ الظُّلمِ عدلاً
أو تَدَرُّ هذه العواطفَ قَتَلَى
ضَى عن الفنِّ مخلصاً مُستقِلاً
مَى، ومستوحياً سَناها الأَجَلًا
ني وتَنسى لها خداعاً وختلاً
نُ وأنتَ الخلودُ نوراً وظلاً
عزيرٌ، وَمِنَ جَنَى النُّحْلِ أحلَى
بل هو «الدَّوقُ» ما بَنَى الكونَ قبلاً
في نشيدٍ مِنَ القُداسةِ يُنلَى

يا حياةَ الفُنونِ! يا حُسُنُ! مَهلاً!
ها أنا عبدُكَ الَّذِي يُنشدُ الشُّعْرَ
أنا لهفانُ يا جمالُ، ولكنْ
لا تَخَفْ يا جمالُ! لستُ سوى الحا
كيف تخشى تهافتِي؟ كيف تَأبَا
كلُّ إعجابِي الَّذِي أَنْتَ تَخْشَا
قد يراها الجُهالُ مَعْنَى سَقِيمًا
كم أباحوا الحرامَ باسمِ حلالِ
لا تُصخِّحْ يا جَمالِ «دَفْنِي» إليهمْ
هي دُنْيا النِّفاقِ يا حُسُنُ لا تَرِ
عابداً فيكَ عبقريَّتِكَ العُظْمَ
تَدْعِي لهفتي إباحيَّةَ الجا
كلُّ شَوْقي إليك يا حُسُنُ أَلحا
كلُّ شَوْقي إليك مَعْنَى مِنَ الفنِّ
ليسَ فيه خشونةٌ أو ضلالٌ
قاطفًا منك للوجودِ نعيمًا

دفني:

م، ودَعْنِي أحوْلُ كالغارِ شكلاً!
كعدويِّينَ أشبعا الفنَّ قَتَلَا
ن، فيا بِئْسَ أهلُها اليَوْمُ أهلاً!

لا تَتَلَنِّي إِلَّا لتتويجِكَ الفخْ
نحنُ للفنِّ، غيرَ أَنَّا نُعادَى
نحنُ في عالمِ الحِياةِ غريباً

الذروة

وَهْدَى أَرْتَجِيهِ أَوْ أَتْفِيئاً
 دُ، إِذَا مَا عَرَفْتُ حُسْنَكَ مَلْجَأُ
 لَا نَرَى الْحَقَّ وَهُوَ أَسْنَى وَأَضْوَأُ
 ح، فَلَمْ نُذِرْكَ الْخُلُودَ الْمُهَيَّأُ
 قَدْ تَنَاهَتْ إِلَيْكَ نَشْوَى لَتَهْدَأُ
 نِ عَمِيماً وَنَابِضاً يَتَلَلَأُ
 كَ وَإِفْنَاءَ زَلَّةٍ تَتَهَيَّأُ
 مَ بِمَا فِي الْوُجُودِ عُقْبَى وَمَنْشَأُ
 لِمَحِيْطِ الْأَلُوْهَةِ الْمُسْتَمْرَأُ
 مِي قَرِيْبٍ وَمِنْ فَيُوضِكُ أَمْلاً
 وَمِثَالِ الْإِنْسَانِ رُوحًا وَمَبْدَأُ
 ذُرْوَةَ الْكُوْنِ مُشْرِفًا أَتَبَوَّأُ!

ضَجْرِي زَلَّتِي وَزُهْدِي مَرْبَأُ
 يَا إِلَهِي! دُنْيَايَ حُسْنُ بِلَا حَا
 كَمْ نَقَدْنَا وَنَحْنُ فِي الْجَهْلِ حَيْرَى
 مَا اِنْدَمَجْنَا وَمَا اِنطَوَيْنَا عَلَى الرَّوْ
 حُسْنُكَ الْحَرُّ مَاتَلُ لِنَفُوسِ
 فِي اِنْسَجَامٍ يَسْتَشْرِفُ الْحُبَّ فِي الْكُو
 مَا صَلَاتِي إِلَّا خَشُوعِي لِنَجْوَا
 مُسْتَمَدًّا مِنْ عَقْلِي الْبَاطِنِ الْعُلْ
 نَبْعُ إِلَهَامِكَ الَّذِي يَتَنَاهَى
 فَإِذَا بِي مِنْ رُوحِكَ الْخَالِدِ السَّأ
 عَرَفْتُ عِنْدَهَا مِثَالِي نَفْسِي
 وَحَيَاةَ الْأَبَادِ حَتَّى كَأَنِّي

ربيع الأدب

(ألقيت في حفلة تكريم الدكتور زكي مبارك بمسرح ألهمبرا بالقاهرة يوم الأحد ٢٩ أبريل
 سنة ١٩٣٤.)

تَشَرَّبَهُ الْحَبِيبُ مِنَ الْحَبِيبِ
 يُزَفُّ إِلَى الْعَصَامِيِّ الْأَدِيبِ؟
 كَمَا جُمِعَ الرَّبِيعُ مِنَ الْقُلُوبِ!

شَدَا أَدْبُ الرَّبِيعِ بِكُلِّ لَحْنِ
 فَهَلْ لِي أَنْ أُسَاهِمَ فِي نَشِيدِ
 لَقَدْ جُمِعَ الْوُدَادُ لَنَا قُلُوبًا

* * *

جَهْدُكَ أَنْتَ تُغْنِي عَنِ خَطِيبِ
 حَصَانُ لَا تَخَافُ مِنَ الرَّقِيبِ
 بَرُوحُ مِنْ تَكْبُرِهَا الْأَرِيبِ

أَخِي فِي حُبِّكَ الْأَدَبَ الْمُعَلَّى
 لَهَا عَيْقُ الْأَصَالَةِ وَهِيَ بِكَرْ
 تَحَدَّثْنَا مَلَا حَتَّى وَسَادَتْ

معاندةً المكابرِ والحسيبِ
 وكم في الريفِ من حُسنٍ وطيبِ
 يزيُّنُهُ التغرُّبُ للغريبِ
 يَلوُحُ بها البعيدُ مع القريبِ
 يُساغُ كأنه حُلُوُ النَّسيبِ
 وَخَلَفَ اللُّهُو من ألمِ صَبِيْبِ
 ونعمَ المجدُ بِالْجُهْدِ الخُصِيْبِ
 فنلتَ بما بذلتَ هوىِ قلوبِ
 لما أبدعتَ من أثرِ حبيبي؟
 لمصرِ بذلك اليومِ العُصِيْبِ^{٢٢}
 لها، وتنوءُ بالظلمِ العجيبِ؟
 كفاحكُ للتحرُّرِ في لهيبِ!
 وَحَسَبُ الفَتْحِ تزكِيَةُ الخُطوبِ
 لنمدحَه على رِغْمِ الذُّنوبِ
 نكرِّمُ منجب^{٢٣} الرجلِ النجيبِ
 مريضِ عَقِّ إِحسانِ الطَّبِيْبِ
 خُصِيْبِ الفضلِ في الوادي الخُصِيْبِ

تُنافِحُ عن مَحاسنِها وتَأبى
 يجاذِبُها جمالُ الرِّيفِ طوْراً
 وَأنا روعَةُ الأَسْفارِ فيما
 وحيناً آيَةُ العُصْرِ الخوالي
 مَفاتِنُ للفنونِ، وكلُّ فَنٍّ
 وكم خَلَفَ التَّبَسُّمِ من عناءِ
 جهودٍ كلها قربانُ مَجْدِ
 كأنك قد كتبتَ دماءَ قلبِ
 فمن هذا الذي يُغْضِي جِفاءِ
 وَمَنْ ينسى كفاحكُ يا أبِي
 ومصرُ تنوءُ بالجهلِ المسجِي
 كفاحكُ للثَّنُورِ في عذابِ
 فزَگَّتْكَ المِعارِكُ وهي كُثْرُ
 وَحَسَبُ الجِيلِ أَنْك من بنيهِ
 كأننا إذْ نكرِّمُ فيكَ فضلاً
 فِعْشُ رجلِ المآثرِ في زمانِ
 فمثلك مَنْ يُعزِّينا ويُحيي

أوزيريس والتابوت

مَماتَ أخِيهِ رِغْمَ جِمَى الأُلُوهُه
 أصيلاً في الأُلُوهُه والأَنامِ
 طرِيْدُ في جِمَى الذَّمِّ النزيهُه

كَأَنَّ «سِتَّ» الخُنُونِ وقد تَمَنَّى
 زعيمٌ منه قد عُرِفَ التَّجَنِّي
 وَأَنَّ العَدَلَ في الدنيا طرِيْدُ

^{٢٢} إشارة إلى جهوده في الثورة المصرية سنة ١٩١٩م.

^{٢٣} الجيل.

فَوْقَ الْعُبَابِ

وَأَنَّ الْكَوْنَ يَمْلُؤُهُ ضَبَابٌ فَضَلَّ الْخَلْقُ فِي مِثْلِ الرَّحَامِ
وَهَامُوا فِي اصْطِدَامٍ وَاصْطِدَامٍ!

* * *

أَعَدَّ لَهُ مُخَادَعَةً عَجِيبًا هُوَ التَّابُوتُ فِي مَلْهُى لَدَيْهِ
وَقَالَ: وَهَبْتُهُ لِمَنْ اصْطَفَاهُ إِذَا مَا لَاءَمَ التَّابُوتُ حَجْمَهُ
فَخَوِدِعَ «أُوزَيْرِيسُ» مِنْ احْتِفَاءٍ وَعِنْدَ رُقَادِهِ قَفَلُوا عَلَيْهِ^{٢٤}
وَأَلْقَوْهُ بِمَجْرَى «النَّيْلِ» غَدْرًا فَمَاتَ، وَقَدَّسَ التِّيَّارُ جِسْمَهُ
وَقُدَّسَ مَاؤُهُ فَهَوَى وَضَمَّهُ!

* * *

تَأَمَّلْهُ الْمَعَزَّزَ وَالْمُضْحَى وَدُنْيَا الْمَجْدِ تَخْدَعُهُ خِدَاعًا
وَهَاتِيكَ الْمَرَاوِحَ وَالْجَوَارِي وَهَاتِيكَ الْكِنُوسَ وَحَامِلُوهَا
وَنَازِرَةَ النُّجُومِ وَكُلُّ رَسْمٍ يُطَلُّ عَلَيْهِ أَوْ يَثْبُ ابْتِدَاعًا
بِرَهْبَةٍ لِحِظَةٍ كَالْحِظِّ حَيْرَى وَيَأْبَى أَنْ يُحَرَّرَ خَالِقُوهَا
فَقَدْ خَلَقَ «الْمَمَاتَ» بِهَا ذُؤُوهَا!

الكون الهاتف

(مهدة إلى أديب الطبيعة الصديق مصطفى عبد اللطيف السحرتي.)

سَمَاعًا! فَهَذَا الْكَوْنُ بِالْحُبِّ هَاتِفٌ وَكَمْ فِيهِ مَسْحُورٌ أَسِيرٌ وَطَائِفٌ
سَمَاعًا! سَمَاعًا! وَانْفِضِ الْهَمَّ وَالشَّجَى وَعُمْرًا مَضَى، فَالْهَمُّ كَالْعَمْرِ زَائِفٌ
وَجَمِّعْ بِهَذَا اللَّحْنَ نَفْسًا شَتِيئَةً وَجَدِّدْ وَجَازِفْ، فَالْحَيَاةُ تُجَازِفُ!

* * *

^{٢٤} أرجعوا عليه الغطاء.

كلانا مُصِيخٌ لِلتَّحِيَةِ عَارِفُ
مَدِيدًا كَمَا يَشْكُو الْمَحِبَّةَ تَالِفُ
وَأَيُّ غِرَامٍ غَائِبٌ عَنْكَ عَازِفُ؟
مَنْ الزَّمَنِ الْمَفْقُودِ أَحْيَاهُ خَاطِفُ!
تَغْدَى بِهِ وَهُوَ الْجَنِينُ الْمَشَارِفُ^{٢٥}
فَمَهْمَا نَصْفَهُ لَا يَفِ الْوَصْفَ وَاصِفُ
أَمَامِي، وَحَتَّى مَا تَحْسَاهُ رَاشِفُ
وَأَطْيَافَهُ، وَالنُّورُ كَالطَّيْفِ وَاجِفُ
وَمَا جَ بِهَا جَوْ مِنْ الْحَبِّ عَاصِفُ
كَأَنِّي بِهَذَا الْحَلْمِ رَاضٍ وَآسِفُ!

يِمَامَةٌ صُبحِي الْمَسْتَعَزُّ بِنُورِهِ
كَذَا فَلْيَكُنْ شَدُو الْغِرَامِ مَرَجَّعًا
فَعَنُّ أَيُّ دَهْرٍ سَالِفٍ فِيكَ حُرْقَةً
سَمِعْتِكَ حَتَّى كَانَ لِحْنِكَ كَالصَّدَى
أَتَى وَالرَّبِيعَ الطِّفْلَ حَتَّى كَأَنَّمَا
فَجَاءَ لَنَا كَاللَّحْنِ سَحْرًا وَرُوعَةً
تَقَدَّسَ حَتَّى مَا أَكَادَ أَظْنُهُ
وَأُنْسِيْتُ نَفْسِي فِي إندِمَاجِي بِنُورِهِ
لَقَدْ مَلَكْتَهَا رَعِشَةً مِنْ حُبُّورِهَا
فَأَغْمَضْتُ عَيْنِي فِي ذُهُولٍ وَنَشْوَةٍ

* * *

وَكُلُّ بِأَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ عَازِفُ
فَعِنْدَكَ تُرْجَى بِلِ تَنَالُ الْعَوَارِفُ
أَمْ الزَّمَنِ الْآتِي وَفِيهِ الطَّرَائِفُ
وَخَلْفَ أَغَانِيهَا قَرُونٌ هَوَاتِفُ
أَمَامِي كَأَنِّي قَبْلَ صَيْفِي صَائِفُ
وَأَلْقَى فُصُولَ الْعَامِ فِيمَا أُشَارِفُ!

وَيَا مَلْعَبًا^{٢٦} تَأْبَى الْعَصَافِيرُ غَيْرَهُ
أَعِنْدَكَ لِلْهَفَانِ سَلْوَى جَدِيدَةٌ؟
سَوَاءٌ تَقَمَّصْتَ الْحَيَاةَ الَّتِي خَلَّتْ
فَإِنَّكَ لِلْآبَادِ أَشْجَى رُمُوزِهَا
وَأَغْمَضُ عَيْنِي وَالْأَزَاهِرُ شَعْلَةٌ
فَأَسْتَرُوحُ اللَّذَاتِ فِي غَمْضَةِ الْمُنَى

إيزيس والطفل الأمير

(لَمَّا غَدَرَ سِت Set بأخيه أوزيريس Osiris ودفنه حيًّا في التابوت أمر بإلقاء التابوت في النيل، فحمله التيار إلى أن بلغ شاطئ ببلوس Byblus فاستوعبه جذع شجرة. وقد أعجب ملك ذلك القطر بتلك الشجرة الرائعة الجمال فقطعها وأتخذ من جذعها عمودًا من أعمدة قصره، وهكذا بقي تابوت أوزيريس دفينًا في أحد عمُد القصر الملكي في ببلوس. وحزنت

^{٢٥} الربيع.

^{٢٦} ملعب الطبيعة.

إيزيس حزناً مبرحاً على فقد أخيها وزوجها أوزيريس وشردت باحثةً عن تابوته إلى أن بلغت ببلوس، وثمة استراحت إلى جانب نافورة، فرأتها وصيقات الملكة وتحادثن إليها، فكلمتهنَّ بلطفٍ ساحرٍ وعطرتهنَّ أنفاسها، حتى إذا عُذِنَ إلى الملكة دهشت لما فاح من عطرهنَّ العجيب، فحدثنها عن هذه الحسناء الغريبة التي وفدت على المدينة. وقد أدَّى هذا بالملكة إلى دعوتها إلى قصرها حيث اختيرت مربية لأحد الأطفال الأمراء، وكان هذا الطفل يتغذى بمجرد مصِّ إصبعها نظرًا لقوتها الإلهية الخارقة ... وفي الأبيات الآتية تصوير للموقف المرسوم في اللوحة الملونة من ريشة إفلين بول (Evelyn Paul).

هل تَرَى «إيزيس» والطفلَ الأُميرَ حملته وهو في اطمئنانه نشوة الصُّبح على هندامها يُلْمَحُ الحزنُ على وجنتها والجوارى رانياً حولها ومعاني الملك في ألوانها كلُّ لونٍ رائعٍ من ملبسٍ كلُّ عطرٍ نائِعٍ إلهامه وقفت في حسرةٍ من غربةٍ في حنانٍ لاذعٍ إنَّ شابَه قدمت «ببلوس» تبغي زوجها وارتضت في القصر تغدو مرضعاً تُرضعُ الرحمة من إصبعها وتُضحِّي في ارتقابٍ وأسى وكأنَّ العبدَ إذ يرنو إلى صورة اللوعة في عصرٍ له	في حَمَاها كشذا الزَّهرِ النضيرِ؟ كقرارِ الحُبِّ في طُهرِ الضميرِ وانكسارُ النورِ في القلبِ الكسيرِ لمحةً الأسرِ على وجه الأسيِرِ كزهورٍ في صلاةٍ حولَ نُورِ زاهياتٍ وأفوايحِ العطورِ ونقوشٍ هو لونٌ من شُعورِ شائعٍ كالفنِّ في رسمِ القديِرِ غربةِ التشريدِ والثكلِ الخطيرِ ذلك الحزنُ فنورٌ من سعيرِ في خفيِّ النعشِ بالقصرِ الكبيرِ تُرضعُ الرحمةَ للطفلِ الأُميرِ وتذيقُ الحُبِّ في الوجدِ الطَّهورِ تضحياتِ الشمسِ عن قتلى الدُّهورِ نورها كالليلِ في الحُلمِ الأخيرِ حُرمةُ الفنِّ ومراةُ العُصورِ!
--	--

إلى ناجي الشاعر

(لمناسبة تحية صدور ديوانه «وراء الغمام».)

وفي بدءِ خلقِ الكونِ شاعره الأسمى
ونلمحُ فيه روحَ آياته العظمى
فماذا وراءَ العبقريّة لا يُسمّى؟!
سُلفتها يستصغر الروحَ والجِسْمَا
ولكنه مَعْنَى شَأْيِ الحدسِ والفُهْمَا
وفي صُحْبَتِي إِيَّاكَ لا أعرفُ اليُتْمَا
وعندك ألقى عالمَ الحُبِّ والنُّعْمَى
هو الكونُ: لا ندري لغايته عِلْمَا
فللفنِّ حمّى لن تُقاسَ بها الحمّى!

تَغْنَى بهذا الشعرِ قبلَ وجودنا
فصرنا نرى فيه نشيدَ ألوهية
مَفَاتِنُ سِحْرِ العبقريّة بعضُها
حبيبةٌ قلبي: كلما ذاقَ ظامئًا
يرى أنه مَعْنَى سوى ما أحسّه
كأنّي يتيمٌ إن حُرِمْتُكَ شاعرًا
كأنّي غريبٌ في وجودٍ معدّبٍ
عواطفُ تُزري بالزّمانِ، وعُمْرُها
لئنُ عدَّ حُبّي من جنونٍ ونشوةٍ

عبد الجمال

وأنا المعدّبُ بالخيالِ؟!
عبدًا سوى عبدِ الجمالِ
نِ الزاخراتِ بكلِّ غالٍ
بين التوجُّسِ والسؤالِ
دنيا الغرائبِ والمحالِ
فُقُ بالحنينِ وبالضلالِ
من الأشعة والظلالِ
سُ حنَّ للوطنِ المواليِ
دِ في نماذجهِ الغواليِ
لِ وحيث لم يخطر ببالِ
زَلُ مِنْ عناءٍ والمعاليِ

ما لي وللأحلامِ ما لي
عبدُ الجمالِ وما أرى
فكأُنني زهُنُ القروِ
متلهّفٌ متطلعٌ
أتصيّدُ الخطراتِ من
وفؤاديّ الظمانُ يَحُ
يهفو إلى خافي الجما
فكأنه طيرٌ حبيدٍ
وطنُ الجمالِ بلا حدو
فيراه بالطبع الأصيلِ
حتى لتبكيه المنا

جَابَ الْوَجُودَ بِأَسْرِهِ بَيْنَ افْتِتَانٍ وَابْتِهَالِ
وَكَأَنَّ كُلَّ جَمَالِهِ وَهُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ خَالِ
أَوْ أَنَّه رُوحُ الدَّلَالِ لِ يَضِيعَ فِي نَعْمِ الدَّلَالِ
فَإِذَا الْمَمْتَعُ كَالْمَعْدِ بِ وَالْوَصَالُ كَلًّا وَصَالِ!

إيزيس تغادر ببلوس

(كانت إيزيس تُرَضِعُ بِأصبعها الطفلَ الأميرَ أثناء قيامها بتربيته بالقصر الملكي في ببلوس. وكان من عاداتها كلَّ ليلة — حينما يذهب الجميع إلى مضاجعهم — أن تجمع كُتْلَ الخشب وتشعل النيران ثم تلقي بالطفل وسطها، وإذ ذاك تتحوّل إيزيس إلى سنونو وتزقزق في لوعةٍ راثيةٍ زوجها الفقيد، وقد نقلتُ وصيقاتُ الملكة إليها إشاعات هذه الوقائع الغريبة، فصممتِ الملكة على مراقبة مربية ابنها لترى مَبْلَغَ هذه الإشاعات من الصحة، وعلى ذلك اختبأت الملكة في البهو الكبير حتى إذا أقبل الليل جاءت إيزيس والطفل الأمير وفعلتُ إيزيس ما نُقِلَ عنها للملكة، وحينئذٍ هرعت الملكة إلى الطفل صارخةً وأنقذته من اللهيّب، فما كان من إيزيس إلا أن وبّختها بعنفٍ قائلةً لها: إنها بصنيعها هذا قد حرمت طفلها الأمير حظَّ الخلود! وثمة أعلنت إيزيس عن شخصيتها وتمنّت على الملكة أن تعطيهما العمودَ الشجريَّ الحاوي تابوت زوجها وجثمانه في القصر الملكي، فأجيبته إيزيس إلى طلبها واستخرجت هذا التابوت وعادت به إلى مصر. وبقي العمودُ الشجريُّ الذي كان يحتويه مقدّساً في ببلوس. واللوحةُ الفنيّةُ تمثلها في بدء عودتها إلى مصر.)

فِي وِفَاءِ الْحُبِّ وَالْحُزَنِ الْجَمِيلِ أَشْرَقَتْ «إِيزِيسُ» كَالْبَدْرِ الْعَلِيلِ
وَعَلِيهَا الشَّفُّ فِي ظُلْمَتِهِ ظَلَمَةُ الْأَحْزَانِ لِلْحَبِّ الْقَتِيلِ
نَزَلْتُ بِأَسْطَى سَاعِدِهَا بِسْطَى الْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ الْجَمِيلِ
وَكَأَنَّ الْجِسْرَ إِذْ يَحْمِلُهَا بَعْدَ طَوْلِ الْيَأْسِ جِسْرُ الْمَسْتَحِيلِ
نَزَلْتُ وَالْمَرْكَبُ الرَّانِي لَهَا عَاشِقٌ يَسْتَلْهُمُ الْحَسَنَ النَّبِيلِ
يَحْمِلُ التَّابُوتَ قَدْ كَلَّلَهُ زَهْرُ اللَّوْتِيسِ فِي جِرْصِ الْبَخِيلِ
كُلُّهَا تَهْفُو إِلَيْهَا مِثْلَمَا قَدْ هَفَتْ فِي نَشْوَةِ الْفَجْرِ الْبَلِيلِ



(فوق العباب) إيزيس تغادر ببلوس.

وَكأنَّ اللّوتسَ الصَّبَّارَ مَنْ يحمل التابوتُ في صبرٍ طويلٍ!

* * *

وَقَفَ الجُنْدُ وفي طلعَتهمْ أسرةُ المَلِكِ يُحيونَ سَنَاهَا
حَيَّرْتهم روعةً مِنْ حُسْنِهَا خَفَضَتْ إذ رَفَعَتْ تلكَ الجبَاهَا
وتراءى صَدْرُهَا العريانُ في صورةِ الرَحمةِ غَدَاهَا أسَاهَا
مَشهدُ اللّوعةِ وَالْحُبِّ كما يتراءى الوجدُ وَالْحُبُّ إليها

جمعَ الموتُ وفياً — بعد ما
 كم قلوبٍ خفقت في خفقتها
 وشجى للبحر في أمواجه
 تصرخُ اللوعةُ في كلِّ الذي
 غدرَ الموتُ — هواهُ وهواها
 ودُموعٌ لم تكن دمعَ سواها
 وكأنَّ البحرَ أشجأه شجأها
 حولها، لكنَّما الصمتُ صداها!

على قبر المثال مختار

(ألقيت في اجتماع الفنانين على قبره يوم ١٠ مايو سنة ١٩٣٤.)

مختار! يا ابنَ الفنِّ، والفنِّ
 هل خانهُ أم خانكَ الزمنُ
 جننا نحجُّ إليك في لهفٍ
 جننا وكلُّ غيرٍ معترفٍ
 أيضمُّ هذا القبرُ معجزةً
 حاشا! فأنت تعيش أخيلةً
 في عالمٍ نحن خلقناه
 الكونُ رمزٌ أنت معناه
 يا قبرُ لست سوى الشهيد على
 يا ملجأً يثبُّ الغريقُ إلى
 بحرُ الفناءِ هو الذي نحيا
 أمواجهُ أحداثٌ من نشقى
 أويت جثماناً لذي خطرٍ
 كم أنت ذا عبيرٍ لمعتبرٍ
 غرقاً كما غرقت عواطفنا
 ما الناسُ؟ كم منهم متالفنا
 يا قبرُ! قد أودعت مَفخرةً
 ما مات من نلقاه مَأثرةً
 حَيٌّ على الآبارِ خَلَّاقُ
 فلقيتَ حتفك بين من لاقوا!
 نحن الذين نعيش للفرنِّ
 بالموتِ أو بالناسِ والزمنِ!
 للعبقريَّةِ بين أرماسِ؟
 في عالم الإبداعِ لا الناسِ
 بالحبِّ والإيمانِ والذهنِ
 لا شيءَ غيرَ العالمِ الفني!
 دُنيا الأسي، دنيا العداواتِ
 مأواه من أحياءِ أمواتِ!
 فيه بأجسامٍ من العدمِ
 بخداعهم، والموتِ في الألمِ
 غاب الضحيةُ بين من جهلوا
 لكن تولى العقلُ والأملُ!
 في هذه الأمواجِ والتهيهِ
 في كلِّ حرمانٍ وتسفيهِ!
 لكنَّها بعضٌ من الكلِّ
 في هذه الأنوارِ والظلِّ!

إن كان جسمك مات مغبوناً
فيها، فساوى الحيّ مدفوناً
مَثَوَاكَ أَنْتَ فَلَسْتَ محدوداً
صُورًا، وتحيا الدهرَ مشهوداً
لتصوغَ فيكَ الشعرَ والحُبَّ
وخلقتَ قلبًا عاشقًا قلبًا
وتفننَ لمليحةِ الوادي
عنها، وأين جمالها الهادي؟
بجمالها، يا ليتها تدري!
شعرًا لها، لا اليأس في شعري!
صُورًا من الإعجازِ في المَعْنَى
شانيك، مثلكَ ليسَ من يَفْنَى!

مختارًا! هذي الأرضُ حافلةٌ^{٢٧}
أممٌ على أممٍ مقاتلةٌ
جننا إلى مَثَوَى رُفَاتِكَ، لا
مثلَ الأثيرِ تعيشُ منتقلًا
يا ليتَ بينَ الجمعِ فاتنةٌ
قد كنتَ في دُنْيَاكَ عاطفةً
تلكَ النمازجُ كُلُّهَا فَتَنٌ
ما بالنا قد صدنا شجنٌ
خلدتها أضعافَ ما خلدتُ
يا ليتها وافتُ هنا وشدتُ
مختارًا! هذا الصخرُ نَشَهُدُهُ
يا ناحيًا ما بات يَعْبُدُهُ

لذة الهدوء

كأنما في هُدُوئي غايةُ الأجلِ!
فلسْتُ أذكرُ إلاَّ الجُهدَ في عملي
من السَّقامِ^{٢٨} وحتى الوهمُ في أُملي
إلاَّ لدى رَجُلٍ ما كان بالرَّجُلِ!
فوق الصَّعابِ إزاءَ المطلبِ الجَلِ
بالصبرِ والحزمِ لا بالختلِ والحيلِ
من هَمَّةٍ إنْ شكَّتْ لم تشكُّ من وجَلِ
ما صَغَرَ الدهرَ في لهوي وفي جدلي

لم أذرها في حياتي لذةً أبدًا
أعارك الدهرَ من يومٍ وُلِدْتُ به
حتى الطفولةُ أعداءُ أحاربُها
أنا الكدودُ المَعانِي غيرَ مُتَّهَمِ
سخرتُ من بيئتي والعزمُ يحفزني
وقد تَمَرَّسْتُ بالآفاتِ أرضخها
حتى تركتُ خصيمي يائسًا وجَلًا
أوتيتُ من قُوَّةٍ في النفسِ غالبيةً

^{٢٧} محتفية بجسمه.

^{٢٨} يشير إلى اعتلال صحته الطويل في طفولته.

بالخطبِ، حتى كأنَّ الخطبَ يَبْسُمُ لي!
لمن يظنون في جهلٍ وفي حَبَلٍ:
مني وما صدماتُ الغَدْرِ مِنْ شُغْلِي
بغائتي من حياةِ النَّفْعِ لا العِلَلِ
وليس يبليه مَوْتِي لو هَوَّيَ بُلِي
يَغْرُو السَّحَابَ ويعدو قَمَّةَ الجبَلِ
وقد خلعتُ عليهم رحمةَ البَطَلِ!

وقد صبرتُ على الأحداثِ مضطلعًا
أقولها قولَةً في الحقِّ صائبةً
مهما صنعتُم فما الأحداثُ بالغةُ
وإنَّ لي ثقةً شماءَ صارمةً
فليس يخضد من عزمي، ولا تَلْفِي
فإنَّ رُوحِي معنى لا حدودَ له
ويترك اليأسَ فيمن أحكموا تلفي

الوحدة

حيث يَبْقَى الحزينُ يَزْعَى حنينه
ني وأخفتُ عيونها المسكينه
لجراحِ المنى الغوالي الثخينه
يجعلُ النفسَ عنده كالسجينه
راحةَ الجسمِ أو تُبالي أنينه
بُعْثرتُ قُرْبها الدُموعُ الثمينه
قتلتها يدُ الشُّجونِ الدَّفِينه
كضياءِ المماتِ جَمِ السكينه
هو كَفَّارَةٌ لَدُنْيا غبينه
فَفي بما قد جَنَّتْ عليه رهينه
م، كأنَّا نَكُنُّ صِدْقًا أنينه
رَوى ونُقْصَى عن الهمومِ جبينه
نِ فليستُ إذنْ عليه أمينه!

وَحَدَّةٌ تَفْجَعُ النُّفُوسَ الحزينه
لم تُطِقْها فوسدتُ رأسها العا
وبكتُ والبكاءُ هذا دماءُ
وارتمتُ دونَ ملبسٍ غيرِ همِّ
رقدتُ في شَجَى وليستُ تُبالي
مثلَ ما بَعْثرتُ رسائلَ حُبِّ
كلُّها ذكرياتُ ماضٍ عزيزِ
والضياءُ الذي يفيضُ عليها
والجمالُ الذي يُعاني غبينًا
هو يَشقى لنا، وأنفسنا اللَهْ
نَنَمَلُهُ في الحياةِ وفي الرِّسْ
ليتُ أَنَّا نطارِدُ الوحدةَ الكُبْ
كلُّ نفسٍ تَطيبُ في لوعةِ الحُسْ

* * *

وحدةٌ تسحقُ الأمانِي الكمينه
للجمالِ الذي نُقَدِّسُ دينه

كلُّ همٍّ يهونُ في الدهرِ إلاَّ
وأَمْضُ الشَّجَى عذابٌ دفينٌ

وَأَشَقُّ الْأَسَى أَسَى الْفَنِّ وَالـ فَنَّا نِ فِي لَوْعَةِ الْمَعَانِي الْمَهِينَةِ!

الجنة الأرضية

جَنَّةٌ لِلخِيَالِ فِي كَنَفِ الدَّوْ حَ حَبَّتْهَا السَّمَاءُ بِالْحُسْنِ شَتَّى
فَوْقَ دُنْيَا الْقُبُورِ تَزْحَرُ بِالوَحْ يَ وبِالْحَبِّ قَدْ أَبِي المَوْتِ مَوْتَنَا
شَخَصَ المَلْهُمُونَ نَحْوَ ذُرَاهَا وَإِلَيْهَا يَحْجُ مَوْتِي وَمَوْتِي
وَالسَّرَابُ الرِّقْرَاقُ يُزْجِي إِلَيْهَا أَتَقِيَاءَ الْأَنَامِ مِنْ كُلِّ مَاتِي
سُيِّجَتْ بِالمَلَائِكِ الزُّهْرِ وَالزُّهْرِ وَبِالْحُلْمِ لَا يَرَى الصَّمْتِ صَمْتَنَا
خَلَقْتَهَا الْأَوْهَامُ لَكِنَّا عَاشَتْ عَلَى الدَّهْرِ، وَهُوَ قَدْ عَاشَ مَيَّتَنَا!

* * *

جَنَّةٌ تَمَلَأُ الْأَنْوْثَةَ مَعَنَا هَا فِيبِدُو النِّعِيمِ ذَاكَ المَعْنَى
سَكَنْتُ فِي الجَمَالِ وَالنَّاسُ صَرَعَا هَا، وَعَادَتْ لَهُمْ ثَوَابًا وَفَنَّا
فِي نَظِيمٍ مِنَ النَّمَاذِجِ حَالٍ كَمَعِينِ عَمْرٍ يَشوقُ العَيْنَا
وِثْيَابٍ نَقِيَّةٍ مِنْ بِيَاضٍ وَكَأَنَّ الضِّيَاءَ فِيهَا اسْتَكْنَا
وَجُسُومِ رَشِيقَةٍ فِي حَنَانٍ كَالْأَمَانِيِّ إِذَا تَحَرَّرْنَ عَنَا
جَنَّةٌ كُلُّهَا عَجِيبٌ وَلَكِنْ كُلُّ مَا أَبَدَعْتَهُ عَنَا وَمَنَا^{٢٩}

الحسن المشتعل

إِذَا اشْتَعَلَ الحُسْنُ أَرَدَى الحَيَاةَ وَلَمْ تُغْتَنَمَ مِنْهُ آثَارُهُ
كَمَا عَاشَ فِي نَارِهِ «المَشْتَرِي» وَعَاشَتْ تُنَاجِيهِ أَقْمَارُهُ

^{٢٩} إشارة إلى أنها لم تخرج من أخیلتها عن مألوف الحياة ولم تتعد الأهواء الأرضية.

فَوْقَ الْعُبَابِ

وفي الأرض من قبلِ خَلْقِ الأَنَامِ
نَحُومٌ عَلَيْهِ فَنفُنْفِي الرَّجَاءَ
جمالٌ تُحَارِبُنَا نارُهُ
ويحيا الجمالُ وأشعارُهُ!

منطقة الخطر!

حبيبُ إلينا عِقَابُ الجمالِ
ولو أَننا قد لقينا المماتَ
تُبَعَثَرُ أَفئدَةُ حوله
تموتُ ولكنَّها لا تموتُ
ففي قُزْبِهِ يُسْتَطَابُ الخطرُ^{٣٠}
فبعضُ المماتِ مماتُ القمرِ
كما بُعِثِرَ الحُبُّ ملءَ الشررِ
فإنَّ الجمالَ ضَمِينُ العُمُرِ!

عمر الأرض

ثلاثةُ آلافِ الملايين^{٣١} لم تكن
لقد كان مِنْ قَبْلِ الثرى فيك ماثلاً
ولم يَرِضْ إِلَّا أن يكونَ محرراً
فما زال حتى جانبَ الشمسِ مُعلناً
بعمرِكِ بل يا أرضَ عُمُرِكِ وجداني
وقد جاء مِنْ كَوْنِ كأصلِكِ نُوراني
عن الشمسِ في معنى كحسنتِكِ فتانٍ
وُجودِكِ في رَسْمِ كرسِمِكِ فنَّانٍ
تَغْنَيْتِ في هذا الفضاءِ لكيوان^{٣٢}

^{٣٠} إشارة إلى الظاهرة الفلكية المعروفة التي أثبتتها العلامة روش حول الشمس والأجرام السماوية.

^{٣١} يقدر عمر الأرض نتيجة التحليل العلمي للصخور بنحو ثلاثة آلاف مليون سنة.

^{٣٢} كيوان: زحل الذي يعد والمشتري أكبر السيارات حجماً وبهاء.

الإشعاع

فؤادي، وهل لي أن ألومَ فؤادي؟
ينوءُ بسرّاً للملاحة عادي^{٣٣}
وأسرفَ حتى في حياةِ جمادِ
من الحُسنِ، أو أنسى وجودَ فؤادي؟

وما زلتُ رغمَ الشَّيبِ بالحبِّ خافقاً
ينوءُ من الإشعاعِ للحسنِ مثلما
وكم ضغطُ الإشعاعِ^{٣٤} ضغطَ مسوِّدٍ
فكيف ألومُ القلبَ والقلبُ بضعةً

النظام الشمسي

سَ فأحيَتْ شمسينِ في معنيينِ؟^{٣٥}
مُ حياةً تموج في بيئتينِ:
شأ في نورها النَّضارى اللَّجَيْنِ
سِ وإن أطفئت على غيرِ عَينِ
فِ وحُسنِ مُنوعٍ مطمئنٍ؟

أَيُّ شمسي تلك التي هدَّتِ الشَّم
هَرَبتْ بعد جُرمها فإذا الجُر
بيئةُ الشمسِ جدَّةُ الخلق في المَنذ
وسواها من نسلها وهي كالشم
قُسمت للجمالِ تقسيمَ إنصا

* * *

سَ فأحيَتْ شمسينِ في معنيينِ
تِ، ولكن رجعتِ إلهامَ فنِّ؟!
رُ إليه بكوننا مُفتنِّ
مُ جمالٍ بقلبها مستكنِّ
ها وقد عدت بعد طولِ التمني
وجعلتِ الوجودَ هذا المُغني!

أَيُّ شمسي تلك التي هدَّتِ الشَّم
غيرُ روحٍ عزيزةٍ كُنَّتْها أند
نُدرةً للوجودِ هذي وإعجا
كلُّ سيارةٍ من الشمسِ أحلا
غيرَ أن الأرضَ الفقيرةَ أغنا
فجعلتِ الحياةَ معنىً جديداً

^{٣٣} عادي: معتدي.

^{٣٤} يشير إلى رأي الأستاذ رس جن عن قوة الإشعاع وضغطه العظيم وأثر ذلك في الفلكيات.

^{٣٥} في هذه الأبيات تصوير شعر مجمل لنظرية جينز في تكوين النظام الشمسي.

مِنَ الْمَلَاةِ فِي ذَا الْعَالَمِ الْفَانِي
وَحْيِ السَّمَاءِ بِأَصْبَاغِ وَأَلْوَانِ
عِنْدَ الرَّبِيعِ وَمَا فِي نَقِيشِ فَنَانِ
مَا لِلْمَفَاتِنِ فِي تَرْصِيعِ تِيْجَانِ
مِنْ رَعِشَةِ الْحُورِ أَحْلَامِي وَإِيمَانِي
مِنْ عَالَمِ الزَّهْوِ فِي ذَيْلِ وَأُرْدَانِ!

فِدَى لِعَيْنَيْكَ مَا تَهَوَّاهُ عَيْنَانِ
فِدَى لَصَدْرِكَ مَلءُ الْعَيْنِ زُرْقَتَهُ
فِدَى لِرَيْشِكَ مَا فِي الزَّهْرِ مِنْ مَلْحِ
فِدَى لِقَنْزَعَةٍ زَانَتِكَ فِتْنَتُهَا
فِدَى لِرَعِشَتِكَ الْخَلَابِ مَنظَرُهَا
فِدَى لِمَا أَنْتَ بِاسْمِ الْفَنِّ تُعْلِنُهُ

* * *

وَعِزَّةٍ قَلَّمَا تُلْفَى لِإِنْسَانِ
جَمِّ التَّعَابِيرِ فِي مَحْسُودِ إِتْقَانِ
بِمَا تَمَثَّلَهُ مِنْ رُوحِ هَيْمَانِ
وَالنُّورِ يَسْقُطُ مِنْهُ فَوْقَ بُسْتَانِ
كَنْوَرِ «كَسْرَى» وَلَا دُنْيَا «سَلِيمَانِ»
وَضَوْءُهَا بَيْنَ حَيْرَانِ وَنَشْوَانِ
فِي نُبْلِكَ الْفَدَى عَنْ وَصْفِ وَقُرْبَانِ
مِنْ كُلِّ مَعْنَى غَرِيبِ السَّحْرِ مُحْسَانِ
إِلَى الْفَنُونِ حَنَانًا فَوْقَ تَحْنَانِي
وَأَنْتَ تُعْلِنُهُ فِي غَيْرِ إِعْلَانِ
شَتَى الرُّمُوزِ بَدَتْ مِنْ عَالَمِ ثَانِي
لَمْ يَعْرِفُوا غَيْرَهُ مَعْنَى لِأَوْطَانِ
إِلَيْكَ تَشَخَّصٌ إِلَى إِحْسَانِ دِيَّانِ

يَا جَائِلًا مَارِحًا لَكِنْ عَلَى شَمَمِ
وَفِي رِشَاقَةِ فَنَانٍ عَلَى قَلْقِ
تَعَالَ! إِنِّي أَنَا الرَّاجِيكَ فِي شَغَفِ
فِيكَ الْهَوَى جَائِشٌ وَالذَّيْلُ مَنْتَفِضُ
وَفَاخِرُ الرَّيْشِ كَنْزٌ لَا تُنَافِسُهُ
وَالشَّمْسُ بَيْنَ تَعَلَّاتٍ تُغَازِلُهُ
وَأَنْتَ تَخْتَالُ دَوَّارًا وَتُعْجِزُنَا
تَعَالَ! يَا جَامِعًا دُنْيَا مِنْوَعَةً
تَعَالَ أَنْتَ إِلَى صَدْرِي! فَإِنَّ بِهِ
إِلَى الطَّبِيعَةِ فِي مَا أَنْتَ تَحْجِبُهُ
كَأَنَّ مَا تُبْدِيهِ مِنْ عَجَبِ
إِنَّا رَعَايَاكَ! أَهْلُ الْفَنِّ مُذْ خُلِقُوا
وَمُجْتَى مَهْجَةِ الْفَنَّانِ إِنْ شَخَّصَتْ

عبد الله الأنصاري

(رثاء أستاذ من أستاذتي الذين غزوني بحب الأدب العربي وقد تلوتها على قبره في يوم الجمعة ٨ يونيو سنة ١٩٣٤م.)

عن وداع، وقفه تُرضي الوداع
يعرف الحزنَ دفيناً ومُشاعا
بل دفناً العلمَ والفرنَّ الصنّاعا
فلتدعني أنظم الحزنَ ابتداعا
بينما الناسُ يردُّون الخُداعا
بك لا مُتعةٌ من يُرضي السَّماعا
مثلَ مَنْ وَلَّوْا وَمَنْ جَاءُوا تباعا
فلقد ريعوا وتأبى أن تُراعا
كالأثير الحرِّ ملء الكونِ ذاعا
ألهمتنا المجدَ خُلُقًا وتباعا
فاقتبسنا الفنَّ رُوحًا وشعاعا
وأبيننا أن نراها تتداعى
كم ترحننا به ساعًا فساعا
قدر ما أرهقني النُّعي التباعا
رُبَّ ثكلٍ لم يكن إلا التماعا
رُبَّ نُورٍ كان للنارِ قناعا
فيه عمًّا وأحًا برًّا وباعا
وتُراعي منه لحنا لا يُراعى
يجمع الحسنَ الذي تاه وضاعا؟
هيأت لي الآنَ والموتَ اجتماعا
مأتم ضاقَ عن الحزنِ اتساعا
في أثزانٍ غير ما كان اندفاعا
تسكب الشعرَ دماغًا ودماغا

أيها الراحلُ عنَّا في غنى
نحن أهلكَ جميعًا، كلُّنا
لم نودِّع فيك إنسانًا مضى
أنا بعضُ منك في إلهامه
أنت ممَّن أظمُّوني أدبًا
متعَّة الرُوح التي قد آمنتُ
فوق موج الدهرِ تمضي باحثًا
إن يخنك الدهرُ والناسُ معًا
كنت مَعْنَى للتسامي ذائعا
كم تتبَّعنا مراميك التي
علمتنا الفنَّ حبًّا وغنى
وجعلنا الأرضَ أسمى منزلًا
وعرفنا «الذوق» شعرا صافيا
إيه أستاذي الذي قدسَّته
علم اللهُ فؤادي ثاكلُ
ونظيمي ليس إلا حرقى
من مُعيدي لزمانٍ كنت لي
مُعجبا تزهُو بما أنظمه
وأنا تلميذك الوافي الذي
من مُعيدي؟ أه من دنيا الأسى!
فتلاقينا على قبرك في
وتعثرتُ بشجوٍ لم يكن
فأنا الآن بكلِّي لوعة

وزماناً كنتَ لي الخَلِّ الْمُطَاعَا
هذه الدنيا كما أبكي اليرَاعَا!

وأنا الرائيكُ أرثي مُهجتي
وأنا الباكيكُ أبكي صادقًا

في المحكمة الشرعية

يا ليتني! كما أعاني الآنَ مِنْ أَلْمِي
غَيْرُ الكراماتِ والأخلاقِ والذَّمَمِ
وفي مَسالكها في ذلِّ الرِّمَمِ
ما بين بائسَةٍ تُدَمِّي ومُتَّهَمِ
ويُوجِرُونَ على الويلاتِ والسَّقَمِ
وفي الترابِ عزيزُ الوعدِ والقَسَمِ
لكنه في شقاءِ صورةِ اليَتَمِ
عليه لا ينتهي منها إلى سَأَمِ
كأنما هي ألوانُ من الأدمِ
من سَوْرَةِ الجوعِ والأحزانِ والألمِ
أقسَى العويلِ بدارِ العَدْلِ في الظُّلَمِ
يَنلُنَ إلا صُنُوفَ اللُّومِ والتُّهَمِ
وكلُّ رانٍ إلى أكفانهنَّ عَمِي
يا أمةً لَم تَزَلْ من أعرقِ الأُمَمِ!

يا ليتني في فُضُولِي لَم أُطِعْ قَدَمِي!
إِنْ أَنَسَ لَنْ أَنَسَ سُوْقًا لا تَباعُ بها
حيثُ النساءُ ضحايا في جوانبها
حيثُ السماسرةُ المرهوبُ جانبُهُم
يُضاعِفونَ مِنَ الويلاتِ أسقَمها
في كلِّ ركنٍ صراخٌ لا مثيلَ لَهُ
وكلُّ طفلٍ يتيمٍ دُونَ مَيِّتَةٍ
وللدُّبابِ الأعيبِ مُنوعَةٌ
والخبزُ غَطَّتْهُ دونَ الأدمِ أترِبَةٌ
والمرضعاتُ بأثداءٍ مجعَّدةٍ
دارُ العويلِ ودارُ المشجياتِ، وما
مِمَّنْ يطالبنَ بالقُوَّةِ الضَّئيلِ وما
يَلْحَنَ أشباهَ أشباحِ مكفَّنةٍ
ويَنتهينَ إلى ظُلَمٍ على ظُلَمٍ

الهاجس

كَأَنَّ لَهَا مِنَ الْهَرْمُونِ ٣٦ دَاعٍ

تُدَاعِبُنَا الْهَوَاجِسُ كُلَّ حِينٍ

٣٦ الهرمون هو الإفراز الداخلي للغدة السجينة أي الصماء مثل الغدة الدرقية والغدة النخامية. والهرمونات عظيمة الأثر في تنظيم حياة الإنسان.

خفايا النفس أغربُ في خفاءٍ من الغُدِّ السجينةِ في ابتداعِ
تحكُّمُ في الجسومِ وهنَّ أسرى وتحكُّمُ في الدوافعِ والدَّواعي
وتلك هواجسُ الأحلامِ فينا لها الأثرُ العميقُ على الطَّباعِ

* * *

لقد عابوا خيالَ الشعرِ حتى تَمادَى في الملامةِ كلُّ ناعي
فهل علموا نفوسَ ذويه قبلاً وهُنَّ مع النجومِ على اندفاعِ
وهل فهموا خواطرهم بعهدٍ تولَّتْها الأشعةُ بالرِّضاعِ
وهل عرفوا أمانِيهم وفيها أوأهلُ ذلك الرَّحْبِ المُضاعِ^{٣٧}
غدا هذا الخيالُ الحُرُّ روحًا كروحِ الكونِ والحقِّ المشاعِ
فألهمْ كلَّ ذهنٍ عبقرِيٍّ ومزَّقْ ما تكاثفَ من قناعِ
ولولا ذلك الإلهامُ ماتت عزائمُ للحياةِ بلا انتفاعِ
فما كان الخيالُ سوى سبيلِ إلى الفنِّ السَّماويِّ الصناعِ
يمهدُ لابتداعِ وابتداعِ وليس خداعُه مثلَ الخداعِ
ويكشف عن خفايا الكونِ حتى لتظهرَ للعيانِ وللسماعِ!

وراء الغمام

(ألقتها الممثل الفنان إبراهيم الجزار في حفلة تكريم الدكتور إبراهيم ناجي يوم الجمعة ١٥ يونيو سنة ١٩٣٤م لمناسبة صدور ديوانه «وراء الغمام».)

ناجي! تناجيك الحياة بسرِّها فتبوحُ أنت بسرِّها أشعارًا
ما سرُّها إلا الجمال مع الهوى فتلاقيا فيما نَطَمْتَ وثارًا
يا شاعرَ اللَهفاتِ فُجِّرَ دمعُه وزفيرُه حتى تدفَّقَ نارًا
ما كنتَ إلا للحياةِ مجاريًّا فإذا بشعركَ كالحياةِ يُجاري

^{٣٧} الرحب المضاع: الفضاء الكوني الشاسع الخاوي بطبيعته.

إِلَّا السَّمَوِّ بِمَا نَظَّمْتَ شَعَارَا
أَصْدَاؤَهَا الْأَضْوَاءَ وَالْأَزْهَارَا
لَوْلَاهُ لاصْطَدَمَ الْوَجُودُ وَبَارَا
بِيدِ الْعِزَاءِ وَمَا اشْتَهَيْتَ مَرَارَا
وَمَطَهَّرًا بِدَمَوْعِهِ الْأَطْهَارَا
نَبَّحَ الْحَيَاةَ بِهَا يَفِيضُ مَثَارَا
تَحْمِي الْخِيَارَ وَتَزْعِجُ الْأَشْرَارَا
وَسَوَاكَ يُمَدِّحُ إِنْ أَعَادَ مُعَارَا؟
وَصَدَّى لِحَبِّكَ سَاحِرًا جَبَّارًا
إِلَّا الْغِرَامَ مَصَوِّرًا أَنْوَارَا
إِلَّا الْغِرَامَ الْخَالِقَ السَّحَارَا
إِلَّاهَ مِنْتَظَّمًا لَنَا قَهَّارَا
تَسْتَأْسِرُ الْأَفْلَاكَ وَالْأَطْيَارَا
جَمَعَ الْوَجُودَ بِرُوحِهِ الْأَدْهَارَا
وَبَدَتْ لِأَحْلَامِ الصَّغِيرِ صِغَارَا

نَاجِي! يَعْيبُ الشَّائِنُونَ وَمَا أَرَى
مَلَأْتُ عَوَاطِفَكَ الْوَجُودَ فَأَطْلَعْتُ
دَانَتْ بَدِينِ الْحَبِّ وَهُوَ إِلْهِنَا
فَوَهَبْتَ لِلدُّنْيَا الْحَزِينَةَ مَا اشْتَهَتْ
يَا أَسِيَّ الْقَلْبِ الْجَرِيحِ بِجِرْحِهِ
كَمْ فِي دُمُوعِكَ قُوَّةٌ عَلَوِيَّةٌ
كَمْ فِي أَنْيْنِكَ غَضَبَةٌ قَدْسِيَّةٌ
أَيَعِيبُ شَعْرَكَ حَاسِدٌ بِأَصَالِيَّةٍ
هِيهَاتَ! وَالدُّنْيَا تَفِيضُ مَحَبَّةً
هِيهَاتَ! مَا هَذَا الْأَزَاهِرُ كُلِّهَا
مَا هَذِهِ الْأَجْرَامُ فِي دَوْرَانِهَا
مَا كُلُّ مَا فِي عَيْشِنَا وَخِيَالِنَا
وَأَرَاكَ أَنْتَ رَسُولُهُ وَحَبِيبُهُ
جَمَعْتَ مَوَاهِبُكَ الْمَوَاهِبَ مِثْلَمَا
فَبَدَتْ لِأَحْلَامِ الْكَبِيرِ كَبِيرَةً

* * *

وَسَنَّاكَ مِنْ خَلْفِ الْغَمَامِ تَوَارَى
وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ أَثْرَهَا مَدْرَارَا
فَتَنَاجِيَا وَتَسَاقِيَا الْأَشْعَارَا
مِنْ عَابِثِينَ وَمَا كَرِينَ حِيَارَى
أَهْلُ الْجُنُونِ، فَإِنْ أَبَوْا فَسَكَرَى!
فِي الْكُونِ حِينَ تَفُوتُنَا إِكْبَارَا

نَاجِي! هَمُومَكَ كَالْغَمَامِ تَرَكَمْتُ
فَبِعَثْتُ شَعْرَكَ كَالسَّهَامِ رَشِيقَةً
وَجَذَبْتُنَا جَذَبَ الْحَبِيبِ حَبِيبَهُ
وَتَنَاسِيَا الدُّنْيَا وَمَا فِي أَهْلِهَا
ظَنُّوا الْجُنُونَ بَنَا وَلَيْسَ سَوَاهِمُو
إِنَّا لِنُكْبِرُ فِيكَ أَنْفَسَ مَا نَعِي

قران الزعيم

(تهنئة ودية أرسلها صاحب الديوان يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٤م إلى الزعيم الأكبر صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا.)

تُهْنِيكَ الزَعَامَةَ فِي قِرَانٍ
وَحَسْبِي حِينَ أُزْجِي تَهْنِئَاتِي
عَرَفْتُ لَهُ الْمَكَارِمَ فِي زَمَانٍ
فِعَاشٍ مَبْرَرًا مِنْ كُلِّ نَامٍ
تَهَاوَى الْحَاكِمُونَ وَأَنْتَ بَاقٍ
لِمَصْرٍ تَعِيشُ مَفْدِيًّا تُفَدِّي
وَكَمْ فِي مِصْرٍ مِنْ عِلْمٍ عَلِيمٍ
تَنَاسَى الشَّعْبَ حِينَ بَقِيَتْ فَرْدًا
فَفَرَحْتَهُ بَعْرُسِكَ فِي وِفَاءٍ
مَدَحْتُكَ قَبْلُ^{٣٨} ثُمَّ أُعِيدُ مَدْحِي
وَقَدْ وَزَنَ الرِّجَالُ حِجَابِي حَتَّى
فَلَسْتُ بَمَنْ يُجَرِّحُ لِي شَعُورُ
وَعِنْدَكَ مِنَ الْوَفِّ النَّحْلُ عَنِّي

وَكَمْ مِنْ فَرِحَةٍ حَوْلَ الرَّعِيمِ
هَوَايَ يُزْفُ لِلْعَمِّ الْحَمِيمِ
عَرِيقِ اللُّؤْمِ دَاسٍ عَلَى الْكَرِيمِ
إِذَا الدُّنْيَا تَغَنَّتْ بِالذَّمِّيمِ
عَلَى شَرَفٍ بِمَنْهَجِكَ الْحَكِيمِ
عِظَائِمَهَا بِإِيثَارِ الْعَظِيمِ
وَلَيْسَ عَلَى الشَّدَائِدِ بِالْعَلِيمِ
تُرَاعِيهِ بِإِيْمَانِ الرَّحِيمِ
كَسُكْرِ الرَّوْضِ بِالطَّلِّ الْعَمِيمِ
بِأَنْفَاسٍ مِنَ الْوُدِّ الصَّمِيمِ
غَدَا حُكْمِي يُقَدِّسُهُ غَرِيمِي
وَلَا حُكْمٌ لِإِيْمَانِي السَّلِيمِ
صَدَى حَيٍّ^{٣٩} لِتَكْرِيمِ الرَّعِيمِ

أحلام الظلام

وَلَمَّا حَانَ تَوْدِيْعِي وَوَلَاحَتْ
تَحَفُّ بِنَا الرِّيَاحِيْنَ اللُّوَاتِي
عَلَى النُّورِ الْمَوْشَى بِالظَّلَامِ
تَرْفٌ مِنْ ابْتِسَامٍ لِابْتِسَامِ

^{٣٨} انظر «مختارات وحي العام» ص ٨٠.

^{٣٩} إشارة إلى اشتغال دولته بتربية النحل، وهو عضو برابطة مملكة النحل.

ويحجبنا السكونُ بلا حجابٍ
وقفتُ كوقفَةِ الدُّنْيَا إِذَا مَا
وما هي غيرُ لحظةٍ مستعزِّ
ويجري النُّورُ في لونٍ عجيبٍ
فنسکر في صُموْتِ اليأسِ حتى
ويغلبها الحياءُ وفيه مَعْنَى
فأرقبُها على لَهْفٍ كأني
وأشربُ حسرتي الكبرى دواءً
وهل غيرُ العذابِ شفاءً رُوحِي
وقفنا لحظةً هي كلُّ عيشي
ففرَّقنا الزمانُ بلا وداعٍ
كأنَّ تناسيَ التوديعِ أولى

ويفضحنا الحنينُ على احتشامٍ
أطاح بها السَّلَامُ إلى الحِمَامِ
ولكنَّ قلبُه دام ودام
على وجناتنا جري المُدَامِ
كأنَّ اليأسَ من سُكرِ الغرامِ
حَفِيٌّ بالتَّواضعِ والتسامي
أطبَّبُ بالسَّهامِ من السَّهامِ
وإن كان الدواءُ من الضَّرامِ
أنا العاني بلا أملٍ أمامي؟
وموتي في السَّلَامِ بلا سلامٍ
سوى اللَهفاتِ أُشْرِبَهَا هِيَامِي
بِدُنْيَا الهَمِّ يا دُنْيَا الأنامِ!

الأشعة الكونية

(مهدة إلى الصديق فؤاد صروف محرر المقتطف وصاحب كتاب فتوحات العلم الحديث).

مَنْ أَيْنَ مَصْدَرِكِ الكَريمِ الباني
مِنْ أَيْنَ طاقَتِكَ التي لا تنتهي؟
أُتْرَى الحقائقُ كالرُّموزِ فليس في
أَمَنِ الخِواءِ أُتيتَ مَنَحَ عناصرِ
أَمْ مِنْ فناءِ الأيْدُرْجِينِ محوِّلاً
أَمْ مِنْ صميمِ الشَّمسِ بنتِ كهارِبِ
وتُحيطُ بالأرضِ الحنونِ كأنها
وفدَّتْ مِنَ الأمِّ التي في بُعدها
أُعْجَزَتْ آياتِ الأشعَّةِ قُوَّةً
وظفقتِ جائِلَةً كُرُوحِ حُرَّةً

يا مَأْمَلَ الأحياءِ والإنسانِ؟
مِنْ أَيْنَ حينِ الكونِ فانٍ فانٍ؟
مَعْنَى الفناءِ سوى الوجودِ الثاني؟
تُبْنَى فكنْتَ لها شهودَ عيانِ؟
فيعود في النَّتْرُونِ ذاكَ الباني؟
صُدِمَتْ بذراتِ الهِواءِ الجاني؟
رُسلُ جَزِينِ حنانها بحنانِ
لم تَنسَها أبداً مَدَى الأَزمانِ
وسخرتِ مِنْ رَأْيٍ ومِنْ بُرْهانِ
هي فوقِ أرواحِ الوريِّ والجاني

ذُخِرَ المَلايِينِ السنينِ ورُبَّما حملتِ طيوفَ مَشايعِ ومَعانِ!

* * *

يا مَأْمَلِ الأحياءِ والإنسانِ؟
رُوحَ الحِياةِ وشُعْلَةَ الإيمانِ
والكونِ غيرَ فُتونِهِ الفَنانِ
كَتَفَجَّرَ الأُطيافِ بالألوانِ
وإذا المَجْرَةُ مِنْهُ يَوْمٌ ثانِي
خَلَقْتَهُ صَدْفَةً سَاحِرَ فَنانِ
مِن هذِهِ الأيامِ والأوزانِ
مَعناكِ بِلِ مَعنى الخلودِ السانِي
لولاكِ لِم تُغَنِ الوِجودَ أمانِي!

مَنْ أَيْنَ مَصَدْرُكَ الكَريمِ الباني
مَنْ نَفَحَ خَلاقِ الحِياةِ فِروحُهُ
ليستِ رِحابُ الكونِ غيرَ رِحابِهِ
جَعَلَ التَفَجُّرَ مَبْدَأً لِفنونِهِ
فإذا انبثاقُ الكونِ يَوْمٌ أوَّلُ
وإذا نِظامُ الشَمسِ يَوْمٌ ثالثُ
وإذا الحِياةُ قَصيدَةٌ علويَّةُ
وإذا خيالُ الشَعرِ يُلهمُ وحده
وإذا العِزاءُ لَنا وِجودُكِ بَينِما

وحي الصحراء

(مهدة إلى الدكتور أبو شادي محرر أبولو).

شعري تَأَلَّقَ للطبيبِ الشادي
إِنَّ الينابيعَ التي فاضتْ بما
قد ألهمتْ رُوحِي العَزيزَ مِنَ المني
وظفقتْ حيرى — والمعاني جمَّة —
فإذا إلَهُ الشَعرِ يهبطُ هاتِفًا:
ووجدتْ في الصحراءِ رَجَعَ مِشاعري
والرملُ مَنبسطٌ إلى أن يَلتقي
والشَمْسُ تبكي لوعَةً وكأَنَّها
والأرضُ تشجِي والنِساءُ حلوَّةُ
وتقول: يا مَنْ بالجديدِ ترنِّموا
والآنَ والأفقُ البَعيدُ قد انبرى

فَنشيدُهُ مَجْدٌ لهُ إنشادي
أشجاهِ مِنْ شَعرِ يذِيبُ فؤادي
فأبَيتُ إلا أن أَطِيعَ عِنادِي
فيمَن أسَلَّمَهُ زمامَ قِيايِ
هيَّا إلى السَحرِ الجَميلِ الشادي!
بغموضها، وَمِن الغموضِ البادي
بالأفقِ بَينَ تَهَلُّلِ وتهادي
محزونةٌ لفراقِ هَذا الوادي
تهدِي السَلامَ لرائِحِ ولغادِ
هَلَّا نَكرتَ لِي قَديمَ وِدايِ؟
يرنو إلَيَّ بِقَسوَةِ النُقادرِ

فَوْقَ الْعُبَابِ

أرسلتُ مِنْ قلبي تحيةً مَنْ رأَتْ
هذي الطبيعةَ عِزَّةَ الزُّهَادِ
وَتَصَوَّفَتْ فِي عالمٍ لا يَنْتهي
حتى على الآبَادِ والآبَادِ!

حكمت ش ...

«الآنسة حكمت شبارة»

(مهداة إلى الآنسة الشاعرة حكمت شبارة.)

إلى العزيزة «حكمت ش ...»
الْفَنُّ عندك غيرُ غَبِينُ
أَهْدَيْتِ لي وَحْيَ الصُّحْرَاءِ
يظما بنجواه الشعراءِ
دُنْيَا من الفنِّ الفَتَّانِ
تَسْتَأْسِرُ الحرَّ الفَنَّانِ
دُنْيَا تَقْلِبُهَا يُوحِي
جريحها غيرُ جريحِ
رَسَمَتِها لي لُوعَاتِ
والأَرْضُ بين سَعَادَاتِ
وَفُتِّتِني يا مَنْ بَهَرَتْ
دُنْيَا التَّصَوُّفِ ما سَحَرَتْ
أَمَّا أَنَا فعلى فقري
مَنْ لي بروحك في شعري

أهدي تحيةً إعجابي
فالفنُّ حليةُ أربابِ
وهو الحياةُ لأحلامي
وبه ارتوى رُوحِي الظامي
بين العبوسةِ والبشرِ
بالسُّحْرِ في أثرِ السُّحْرِ
للشعرِ ألوانًا شتَّى
وميتها غيرُ المَوْتَى!
من ذلك الشفقِ المخضوبِ
منها وبين دماءِ قلوبِ
بشعرها الحيِّ الوضاءِ
إلا خيالكِ والصحراءِ
باقٍ وفي عجزِي أمضي
حتى أبينَ عن الأرضِ!؟

الجواهر المجنحة

(وحي دراسة عن الحشرات والطيور الزاهية.)

أغنيتهِ هذا الجوّ مثلَ العبادِ
أغنيتهِ بالطيّشِ قبلَ الرّشادِ
ما هذه الأصباغُ يا طائراتُ؟
هل تلك أحلامُ المثلثِ؟
أشبههُ زَهْرٌ أو ثِمَارٌ تُرامُ
أوحى «كيوبيد» بها، فالغرامُ
نلقاه هَرْمُونٌ^{٤٠} الجمالِ البديعِ
قد جاوزَ الوهمَ بما يستطيعُ
جواهرُ الحبِّ، ومن رُوجِهِ
فتنفّحُ الفنّانُ من نَفْحِهِ
من كلِّ لونٍ عسجديٍّ مُنيرِ
في عالمِ الحبِّ الشُّرُودِ الغريرِ
يا راشفاتِ الشَّهْدِ! يا ساحراتِ!
للحسِّ، أم تلك رموزُ الحياة؟
ما اخترتهِ من كلِّ رسمٍ حبيبِ
نلقاه في كلِّ مثالٍ عجيبِ
في ذرّوةِ المجدِ لهذا «الربيعِ»
وأشعلَ الجوّ بسحرٍ مَنيعِ
تطيرُ في الجوّ عزاءَ الفقيرِ
وتُطلقُ الفنَّ العزيزَ الأسيرِ!

بلوطو

(السيار التاسع الذي تنبأ به الأستاذ برسفال لول الأميركي بحسابه الدقيق وكشف عنه كليلد تمبو سنة ١٩٣٠.)

يا شقيقاً لأرضنا كيف أنت؟
أبعدتكَ الأقدارُ في خَلْقِها الدُّنْ
حَبَّاتِكَ الشجونُ حينَ اختبأتَ^{٤١}
يا، ولكن عن شوقها^{٤٢} ما بُعدتَ

^{٤٠} الهرمون (بفتح الهاء): الانسجام الموسيقي.

^{٤١} يبعد بلوطو عن الشمس بنحو ٤٥ ضعف بعد الأرض عنها أي بنحو ٤٢٠٠ مليون ميل. وعلى هذه المسافة لا يصله من نور الشمس وحرارتها إلا جزء من ألفي جزء مما يصلنا منهما (راجع لأمثال هذه الشروح الفلكية كتاب «فتوحات العلم الحديث» لفؤاد صروف وكتابي The Universe Around Us and The Mysterious Universe للسير جيمز جينز وأمثالها من التصانيف العلمية المبسطة).

^{٤٢} شوق الدنيا: يريد نظامنا الشمسي.

حَفَّتِ الضُّوْءُ وَالْحَرَارَةُ إِلَّا
 قَدَّرَ الْعِلْمُ وَحَيَّهَا قَبْلَ عَيْنِ
 أُمَّكَ الشَّمْسُ لَمْ تَزَلْ تَبْعُثُ النَّوْرَ
 وَكَفَاهَا الْحَنَانَ فِي ذَلِكَ الْبُعْدِ
 لَا أُنَيْسُ لَدَيْكَ إِلَّا شَرِيْدُ:
 قَدْ عَرَفْنَاكَ، غَيْرَ أَنَّكَ فِي الْبُعْدِ
 لَيْتَ شِعْرِي: أَنَحْنُ فِي الْوَهْمِ لَا نَدْرُ
 أَمْ تُزَيُّ أَنْتَ فِي شَجْوَنِ جِسَامِ
 لِمَحَاتُ الْحَنِينِ لَمَّا لُمِحَتْ
 تَكشِفُ الْغَائِبَ الْمَحْجَبَ ثَبَّتَا
 وَرَ وَإِنْ صَارَ أَعْلَبُ النُّورِ مَيِّتَا
 دِ دَلِيْلًا عَلَى وِفَاءٍ تَأْتِي
 قَمَرٌ يَأْتِسُ رَأْيَ الْبُؤْسِ شَتَّى
 دِ غَرِيْبٌ، وَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ أَنْتَ
 رِي وَأَنْتَ الْهَنْيْءُ بَعْدًا وَصَمْتَا
 تَبْعُثُ النُّورَ لَوْعَةً تَمَّ مَوْتَا؟!
 وَبِحَسْبِهَا فِي وَقْفَةٍ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ

ما وراء المجرة

عَوَالِمٌ لَا تُحْصَى وَلَا هِيَ تُعْرَفُ
 تَنَاهَتْ تَنَاهَتْ فِي الْفَضَاءِ إِلَى مَدَى
 فَمَا قَنَصَتْهَا بُوْرَةُ الْعِلْمِ مَرَّةً
 رَأَى مِنْ وَرَاءِ الْكُوْنِ آيَاتٍ غَيْرِهِ
 رَأَى النُّورَ أَصْدَاءَ الْحَيَاةِ وَصَوْتَهَا
 مَجَامِيْعُ آلَافِ النُّجُوْمِ تَبْعَثْرَتْ
 بَدَتْ شَبَهَ فَوْضَى وَهِيَ شَتَّى نِظَامُهَا
 نَمَتْ فِي مِلْيَايِنِ السَّنِيْنَ الَّتِي خَلَتْ
 نَمَتْ وَنَمَتْ بَيْنَ اتِّسَاعِ حُدُوْدِهِ
 كَأَنَّ اتِّسَاعَ الْكُوْنِ فِقَاعَةٌ نَمَتْ
 وَنَخَشَى مَمَاتِ الشَّمْسِ وَالشَّمْسُ فِي غَنَى
 وَبِحَسْبِهَا فِي وَقْفَةٍ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ
 وَيَا رُبَّمَا الْمَجْهُوْلُ مِنْهَا الْمُعْرَفُ
 يُقْصِرُ عَنْهُ الْعَالِمُ الْمَتْلَهْفُ
 وَإِنْ لَمْ يَفْتَتِهَا الشَّاعِرُ الْمَتَصَوِّفُ
 بِلَحِظٍ مِنَ النُّورِ الْإِلَهِيِّ يَخْطِفُ
 وَمِنْ رُوْحِهِ الْجَذَابِ لِلرُّوحِ يَرْشِفُ
 وَهِيَهَاتَ عَيْنُ الشَّعْرِ عَنْهُنَّ تَطْرَفُ
 وَلَكِنْ مِنَ الْأَكْوَانِ مَا لَيْسَ يُوصَفُ
 مِنَ الْغَازِ كَالْأَنْوَاءِ تَنْمُو فَتَعْصِفُ
 حُدُوْدٌ مِنَ الْوَهْمِ الَّذِي لَا يُكَيِّفُ
 وَلَكِنهَا مَهْمَا نَمَتْ لَيْسَ تَتَلَفُ
 عَنِ الْخَوْفِ كَمَا تُعْطِي وَلَا تَتَخَوَّفُ
 عَلَى نَشْوَةِ الْجَوَالِ بِالْبَحْثِ تَكْلَفُ^{٤٣}

^{٤٣} المرجح أن الشمس تتحرك حول مركز «النظام المجري» بسرعة مائتي ميل في الثانية، ويستغرق إتمامها لدورة كاملة حوله مائتي مليون سنة.

يجاذبها من عالم الغيب مُلْحَفُ
وفي أسرها تزكو وتزهو وتَلَطَّفُ
ومن خلفه عقلٌ دقيقٌ ومُنْصِفُ
فكلُّ فضاءٍ فيه حَيٌّ مَثَقَّفُ
وفيهَا مِنَ الذَّرَاتِ مَا لَا يُؤَلَّفُ
عوالمٌ بِاللَّحْنِ السَّمَاوِيِّ تَعَزَّفُ
وما زالَ فِي إِبْدَاعِهِ الْحُرِّ يُسْرِفُ!

تدورُ كما دارت شمسٌ عديدةٌ
تقاسمتِ السُّدُمُ العديدةُ حَظَّهَا
تَشْتَتَتْ هَذَا الْكُونُ حَتَّى فِضَاؤُهُ
كَأَنَّ رِحَابَ الْكُونِ وَجِدَانُ شَاعِرِ
وفيهَا «كُونَتَاتٌ»^{٤٤}؛ الْحَيَاةُ أَجْنَةٌ
ولكنَّهَا لِلشَّعْرِ مِنْ لَبَنَاتِهَا
تَخَيَّلَهَا جَمْعًا، وَأَبْدَعَ غَيْرَهَا

وحي الراديو

وقد صارتِ الأحفادُ شبيعةَ جَانِ
وكم من فمٍ يحكي بألفِ لسانِ
على الناسِ إِسْرَاءً بكلِّ زمانِ
ورددتِ أصداءُ ببضعِ ثوانِ
وهل هو والإنسانُ يلتقيانِ؟
وإن كان لم يُقَرَّنْ بأيِّ بيانِ؟
وأصداءُ مَوْتَاهُ لوعظِ زمانِي؟
لقد سكننا الأمواجَ مثلَ معانيِ
إلى جنبٍ ما لم يستبتهُ جنانيِ
ومن كلِّ دان وهو ليس بدانِ
فيحجبها عنَّا حجابَ غوانيِ
دنيءٍ، ويأبى مَسَّهَا بهوانِ
تُصَانُ لِأَهْلِ الْفَنِّ أَيِّ صِيَانِ

سمعناكَ سَمَعَ الْجَانِ فِي صَوْتِ أَدَمِ
تَعَدَّدَتِ الْأَوْقَاتُ وَالْوَقْتُ وَاحِدٌ
وَصُغِرَتِ الْأَرْضُ الَّتِي طَالَمَا أَبَتْ
لقد جُبَّتْهَا فِي طَرْفَةِ الْعَيْنِ^{٤٥}؛ فَاتِحًا
فمن أيِّ دُنْيَا قَدْ أَتَى ذَلِكَ الصَّدَى
أَوْحِي غُبَارِ الْكُونِ مَا أَنْتَ مُعْلِنُ
أم الزمَنُ الْمَاضِي يُرَدِّدُ نَفْسَهُ
مُحَالٌ مُحَالٌ ضَيْعَةُ الرُّوحِ وَالْحِجَا
وما ذلك الصوتُ الجديدُ بمعجزِ
قد اكتظَّ هَذَا الْجَوْ مِنْ كُلِّ شَارِدِ
كَأَنَّ أَحَادِيثَ الْخَلِيقَةِ مَا وَعَى
يخافُ عَلَيْهَا مِنْ تَبَدُّلِ عَالَمِ
كما يَشْتَهِي الْفَنَانُ كُلَّ مَلِيحَةٍ

^{٤٤} هي مقادير الطاقة حسب نظرية بلانك.

^{٤٥} تدور الإشارة اللاسلكية حول الكرة الأرضية في ١/٢ ثانية فقط.

فليس سواهم يفهم الحسن فكرةً
أصحنًا إلى نجواك غزقي خواطر
ومن خلفها أمواج أخرى تكاثفتُ
ولولاك خلنا الصمتَ يغمُرُ جونا
ولكنما الألبابُ شتّى كأنها
ويعبده في رحمةٍ وحنانٍ
وأواجهها تطغى بكلّ مكانٍ
تكاثفتُ منسى من الحدثانِ
وقد بثتُ فيه الصوتُ بثتُ دُخانٍ
مسامعُ شتّى الحسّ والهيمان^{٤٦}

مخلب الطاوس

في عزّةٍ محسودةٍ متبخترًا
طُبعتْ جلالته بلطفِ جماله
فكأنما هو أنت لولا أنه
نهوى أناملِك الرشيقة بينما
إن لم تكن تلك الدماء خضابها
يمشي كما يمسي الغرام الملهم
وحماه مخلبه القوي المرغم
ما بات يقطر من مخالفه الدم
نخسى أظافرها^{٤٧} التي لا ترحم
فخضابها بفتونها يتضرم!

الأثمار

يا شمس! لا تأسي على نورٍ مضى
ملأ الوجود وإن يكن من جلّه
سكن المشاعر والعواطف وانتهى
واستمتعت صور الحياة بشمه
ما كانت الأثمار غير مثاله
النور مغبود بكلّ مكانٍ
ما لا تراه كعهده العينان
لقرارة الوجدان والإيمان
ويطعمه ويلونه الفتان
أو كانت الأثمار غير معان^{٤٨}

^{٤٦} راجع قصيدة «صائد النغم» — ديوان الشعلة، ص ٤٠.

^{٤٧} إشارة إلى عادة صبغ الأظافر باللون الأحمر، وقد تفشت بين الغانيات.

^{٤٨} انظر قصيدة «عرس الأصيل» بديوان «الشفق الباكي» ص ٢٣٨.

فبأبي موشور وأية حيلة
تتموج الأصباغ في قسامتها
وأذوقها فأذوق طعم أشعة
وأجرب الفن السماوي الذي
كلُّ المشاعر وحدة لخاطري
فلي الحياة تضاعفت بفنونها
وأعيشها صوراً بكلِّ جوارحي
وأذوق من هذي الثمار مصدقاً
ولقد أطيّر إليك فوق خاطري
وأعيش في نور شعاعاً صافياً

جمعت فتون ضيائك الفتان؟!
كتموج البلور بالألوان
خلقت حلاوتها لكلِّ زمان
جعل الحياة حليفة الدوران
متبادلات الحس والعرفان^{٤٩}
وبعمقها وبلطفها النوراني
فكأنني أحيا بكون ثان
وكأنها رُسل إلى وجداني
وأعب من ينبوع المحسان
وأعود في نور وفي نيران!

المريخ ينتظر!

صدفناً عن «القمر» المرتجي
وهل كان إلا ابناً في الوجود
فما بال «مريخنا» العبقري
وكم وهم العلماء الكبار
لقد أصبح العلم شغراً الخيال
لقد مزجاً بالعجيب المحال

زيارتنا في سهام تطير
يسير مع الأرض أني تسير؟
يُنَادِي؟ أم السمع ضلّ النداء؟
كما وهمت لغة الكهرباء
كما أصبح الشجر نفتح العلوم
وقد سبحا في مجال النجوم!

^{٤٩} راجع مقطوعة «اشترك المشاعر» بديوان «أنين ورنين» ص ١٠٥.



الصوفي (من رسم إيمانويل فوجيرات).

مِرَّةً لِلْعَالَمِ الصَّبِيِّ الْجَدِيدِ
 سَوَى بَرُوحٍ مَنِ الْفُتُونِ الْفَرِيدِ
 مِمَّةً لَيْلٍ لِعَالَمٍ مَفْقُودِ
 فَرْدٌ لِلْبَاحِثِ الْحَصِيفِ الْعَنِيدِ
 هُوَ رُمُوزٌ لَا مَبْحَثٌ لِلْوُجُودِ
 نَأَى كَمَنْ نَالَ رُؤْيَا الْمَعْبُودِ
 طَرِحًا حُلْمًا إِلَى الْكَمَالِ الْبَعِيدِ
 نِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ خِلَافٍ شَدِيدِ
 يَضُّ فِي حَالَةِ التَّجَلِّيِ السَّعِيدِ
 حَرَّ قَرْبَانٍ قَلْبِهِ الْغَرِيدِ

مُمَعِنُ الْفِكْرِ يُشْبِهُ الدَّهْرَ فِي النَّظْمِ
 حِينَ تَلْمِيزُهُ مُصَيِّحٌ إِلَى النَّجْمِ
 مُمَعِنُ الْفِكْرِ، مَشْرُقُ الْوَجْهِ مِنْ ظُلْمِ
 وَمُشِيرٌ إِلَى الْحَقِيقَةِ فَهِيَ الْـ
 وَكَأَنَّ الْكِتَابَ تَحْمَلُ يَسْرًا
 قَالَ مَا قَالَ، وَهُوَ يُمَعِنُ إِمْعَا
 وَفَتَاهُ الصَّغِيرُ يَتَّبِعُ بِالْخَا
 جَمَعَ الْحُبَّ لِلْحَقِيقَةِ رُوحِي
 وَكَأَنَّ الْفَتَى بِمَلْبَسِهِ الْأَبِ
 وَكَأَنَّ التَّأْمَلَ الصَّادِقَ السَّا

ظلة في مظهر التنجس المجيد
وإلحاحاً فواتناً للقصيد
ف، ووحى الأصباح وحي النشيد

وكان الإله في هذه اللح
نشر الحب للألوهة نوراً
وكان الإيجاز أبلغ في الوصف

البداية والنهاية

ر، ومن كهربائه قد خلقتنا
ت سر الحياة مبني ومعنى
فالضياء الضياء لب الوجود
يتناهى الفقيد كالمولود
ورعت بعد في ألوف الشمائل
لم يزل سرها بباقي وزائل
مثل ما كان للحياة البداية
ر معاني بداية في النهاية
ر إذا ما رآه وحيًا مقدس
لق في مثل لطفه أو تلمس؟
ر سنمضي كما بدأنا شعاعاً
ج تناهت دقائقاً وابتداعاً

من صميم الضياء، من وهج النور
شحنة الكهرباء في عالم الذر
كل شيء لولاه ما كان شيئاً
لبنات الوجود منه، وفيه
رتقاً^{٥٠} كانت الحياة، ولكن
فإذا النور واضحاً وخفياً
لم يزل غاية لكل نظام
صور ما لها انتهاء، وللنو
فاعذروا الشاعر الذي قدس النور
أي شيء سواه نم عن الخا
فمن النور قد بدأنا، وللنو
كل ما في الوجود نور بأموا

السير

حياة سمت فوق جسمي وعقلي
ومن خطرات الخيال المذل

لروحي في عزة المستقل
تخلص من شهوة كم تلح

^{٥٠} رتقاً: كتلة منسدة.

وَمَتَّعَنِي بَيْنَمَا صَانِنِي
فَمَا عَشْتُ عَبْدًا لَهذِي الْحَيَاةِ
وَكَيْفَ وَقَلْبِي مِنْ قَلْبِهَا
تَوَحَّدَ رُوحِي بِكُلِّ الْوُجُودِ
لَكِنَّ نُزْتُ مِنْ أَلْمِي الْمُسْتَبِدِّ
وَإِنْ لَمْ أَتُرْ فَهُوَ طَبَعُ الْعَنِيدِ
وَفِي مُهْجَتِي رَحْمَةٌ لَنْ تَغِيبَ
شَمَلْتُ بِهَا جَهْلَ أَهْلِ الزَّمَانِ

مَنْ الْقَهْرُ: قَهْرِ الْغُرُورِ الْمُضِلِّ
وَمَا عَفَّتْهَا بَيْنَ زُهْدٍ وَسُغْلِ
وَإِنْ خَالَفْتَنِي بِمِرْأَى وَسُكْلِ؟
فَرُوحِي مِنْهُ وَفِي الرُّوحِ أَصْلِي
فَكَمْ ثَارَ خُلُقُ «الطَّبِيعَةِ» قَبْلِي
أَعْدُ افْتِنَاتِ الْمَقَادِيرِ هَزْلِي
كَعَفْوِ الْحَلِيمِ لَخَصْمٍ وَخِلِّ
فَرَعَمَ التَّبَايِنِ هُمْ بَعْضُ أَهْلِي

بيت الأمة

طالَتْ عَلَى الْحَصْرِ السُّنُونُ
زُرْنَاكَ فِي تَقْدِيسِنَا
أُنْصَدُّ عَنْكَ وَأَنْتَ أَنْدُ
وَيُبَاحُ مَا أَوْلَى بِهِ الْهَدُ
يَا «مَصْرُ» يَا أُمَّ الْعِظَا
ثُورِي بِوَجْهِ الظُّلْمِ! تُو
«الوَاجِبُ» الدِّينُ الْمَقْـ
لَا خَيْرَ فِي أَحْلَامِهِمْ
لَا خَيْرَ فِي دُنْيَا الْمِرَا
يَا بَيْتَسَ عَهْدِ كُلِّ مَا
كَمْ حُرْقَةٍ فِي طَيِّ قَلْبِ
مَا زَلْتُ أَطْلَقَهَا وَأَنْدُ

وَالْحَصْرُ فِي شَرَفٍ يَهُونُ
هَيْهَاتَ تَمْنَعُهُ الْعَيُونُ^{٥١}
تَ مَبَاءَةَ الشَّرَفِ الْمَصُونُ؟
مُ الْمَدْمَرُ وَالْمَنْوُونُ؟
ثُمَّ! أَيْنَ مَا يُرْضِي «أَمُونُ»؟
رِي! وَليَكُنْ ثَأْرُ الْقُرُونِ
دَسُّ كَيْفَ يَجْهَلُهُ الْبُنُونُ؟!
إِنْ كُنَّ أَحْلَامَ السُّكُونِ
حِ تَسْفُ أَوْ دُنْيَا الْبَطُونِ
فِيهِ جُنُونٌ فِي جُنُونِ
بِجِي مِنْ مُعَانَاةِ الشَّجُونِ
فَقُنُّهَا كَمَا تَدْوِي الْحِصُونُ

^{٥١} العيون: الجواسيس.

لم أستطع كتمانها إن أستطع غمض الجفون
ما كنتُ بالجاني على وطني وإن زعم الخئون
لا بدّ للشعر الأبيّ من القساوة في اللحون
لا بدّ من تقريع جيـ لِ مُغْفِلِ عَظَمِ الشُّثُونِ
نسي الكرامة وانتشى بين السفاسفِ والمجون

* * *

يا «بَيْتُ» إن طال الحِصا رُ سلمتِ مِنْ نَلِّ وَهُونِ
لا شيءَ حولك ما يَسُ رُ، وخيرُهُ سَرُّ الظُّنُونِ
إن كانَ دَيْنُكَ باقِيًا فلقد تراكمتِ الديونُ
مَنْ ذا يُوفِي «سَعْدَ» ما حملته للخلدِ السُّنُونُ؟

أم مصر

(الخطاب موجه إلى صاحبة العصمة صفية هانم زغلول.)

عانيتِ ما عانيتِ مِنْ إيلامِ حين الرجالِ ضحايا الاستسلامِ^{٥٢}
يا أمَّ مصرِ ويا صفِيَّةَ سَعْدِها مَنْ ذا سواكِ أَحَقُّ بالإقدامِ؟
تكفيكِ غِضْبَةُ «مصطفى» أو «مكرم» صوتًا لمصرَ، فمصرُ تَأُرُّ نامي
هيهاتَ تَقْبَلُ لِلهُوَادَةِ ناعِبًا مهما تَذُقُ حَرْبًا^{٥٣} بكلِّ خصامِ
إِنَّ الأُخُوَّةَ مِلَّةٌ محبوبَةٌ أتُسيءُ للوطنِ الجريحِ الدَّامي؟
أسفي! تُفَرِّقُنَا الهواجِسُ هكذا في زَهُوِ مخدوعِ وطيشِ غلامِ
ينسون ماضي الذِّكرياتِ وما بَنَى «سعدُ» على كتفيهِ للأيامِ
أو لا، فما معنى الشُّقاقِ وقد جَنَتْ مِصرُ الأذى بتعدُّدِ الأحزَامِ؟

^{٥٢} يشير إلى حركة الانشقاق الأخيرة في الوفد.

^{٥٣} حربًا: هلاكًا وويلًا.

يا بئستِ الأحزابُ! بئستُ أينما
هيئاتُ يُنقذهُ سوى إقدامه
ولديكِ مَنبَعُها السَّليمُ، وحسبنا
وُجِدَتْ بشعبٍ ذاقَ حُكْمَ لئامِ!
ورجائِهِ وإبائِهِ البِسامِ
أَنْ نَسْتَقِي مِنْ ذَلِكَ الإلهامِ

ضريح سعد

(وهو الضريح الذي أبت حكومة صدقي باشا أن يخصص لجثمان سعد الطاهر.)

مَرَرْتُ على الضريحِ فهاجَ دمعي
أَحْظُ المومياءِ أَجْلٌ قَدْرًا
مررتُ على الضريحِ وكلُّ نفسي
على نُوبِ الخصوماتِ اللواتي
مَرَرْتُ على الضريحِ كأنَّ سمعي
كأنَّ غداً تَقَدَّمَ فيه يومي
فهل سَكَنْتَ مَشاعِرُهُ الضريحا؟
و«سعدٌ» أَنْقَذَ الوطنَ الجريحا؟!
شجونٌ في شجونٍ في شجونٍ
أَبْحَنَ كرامةَ الوطنِ الغيبينِ
تَلَقَّى منه تبشيراً وَحُبًّا
فبَشَّرَ مُهَجَّةً حَسْرَى وَقَلْبًا!

في الميدان

(الخطاب موجه إلى صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا.)

«يا مصطفى!»! عَشْ رمزَ شعبكَ آبيًا
في العَرَبِ ما كانَ التحزُّبُ ضَلَّةً
ما «الوفدُ»؟ ليسَ سوى تجسُّمِ فِكْرَةٍ
رُوحٌ مِنَ الشَّمَمِ العَظيمِ مَخْلَدًا
يسمو على الأحزابِ في إيمانهِ
إِنْ خانَهُ المَتنطعونَ فحسبُهُ
وأنا الذي يَأبى الهوادةَ قَلْبُهُ
لم أَنَسْ لومَ عِداكَ في جبروتهم
رَغَمَ الأذى وتألَّبِ الأحزابِ
وبمصرِ نلمحُه بكلِّ خرابِ
عُلَيَّا من الأجدادِ والأحقابِ
بيدِ القرونِ لِعِزَّةٍ وصَوَابِ
بالحقِّ يرفَعُه على الأربابِ
مثلي يَبْجَلُهُ وليسَ يُحابي
في الحقِّ، وليسَ خُصومُهُ بصحابي
وأنا رهيئُ البَطِشِ والإرهابِ

لم أنس سيدهم وإن هو عاتبًا
ضحيتُ إنصافي وقد بلغ المدى
وضعتُ الصداقةَ موضعَ الأنسابِ^{٥٤}
ضحيتُ في لذّةِ موصوليةِ
ظلمي وصرتُ مشاركًا لخرابي
ضحيتُ وكأنَّ كلَّ خسارتي
لَمَّا أمضَ الظالمينَ جوابي^{٥٥}
غنمٌ، فإن سماءهم لخرابي
وبقيتُ في همّي العميقِ بنعمةِ
وعددتُ في الحرمانِ كلَّ طلبِي!

المجاهد الكبير

(الخطاب موجه إلى الوطني الكبير السيد مكرم عبيد).

ضحكوا على لقب «المجاهد»، ليتهم
كم ضيعوا أمل البلاد بلؤمهم
ضحكوا على أحلامهم وغرورهم!
باعوا نفائسها وعابوا عاملاً
كم ضيعوا خيراتها بشرورهم
ووفى لسعدٍ ثم أزر مصطفى
صان النفائس هازئًا بكبيرهم
المحرس الناعين عزة شعبنا
بوفائه الباقي على تقديرهم
والمُنطق الشادين شعرَ حبورهم
غنمتك ألوية السياسة بينما
حرم الشداة من ابتداع أميرهم^{٥٦}

المكنسة

(قالها الشاعر في ثورة يأس، والخطاب فيها موجه إلى الوطني النزيه محمود فهمي بك
وكيل وزارة الأشغال).

^{٥٤} انظر قصيدة «الزعامة» الموجهة إلى دولة صدقي باشا — ديوان «الشعلة» ص ١٠٧.

^{٥٥} يشير إلى استياء صدقي باشا من دفاعه عن الوفديين مما أدى إلى إهماله شكواه بالرغم من الصداقة العائلية القديمة.

^{٥٦} إشارة إلى قدرته البيانية العظيمة وروحه الشعرية الممتازة.

فَوْقَ الْعُبَابِ

لم تَبَقْ مِكنَسَةٌ فِي الأَرْضِ صالِحَةٌ
لقد يئُسْتُ، وليس اليأسُ مِنْ خُلقي
هذي الوزاراتُ صارت كُلُّها بُورًا
تَغْلغلتُ فِي صميمِ الحُكْمِ هادِمَةٌ
لقد خبرتُ الرِّزايا مِنْ محامدها
وصار إحسانُ ظنِّي كُلُّهُ جَزَعًا
لكي تُطَهَّرَ «مُضْرًا» مِنْ أَعادِها
إِنَّ الفسادَ عميمٌ فِي نواحيها
مِنْ الخبائثِ تُرديها وتُرديها
مثلَ الجراثيمِ تَعديهِ فَتَعديها
وقد سئمتُ المآسي مِنْ مَلاهيها
مما يجرِّحُ سمعي مِنْ مخازيها

* * *

يا مُنصِفَ الحُكْمِ فِي طَهْرٍ وفي شَمَمٍ
لو كان مثلكَ متبوعًا لما عدمتُ
لكنْ بُلينا بأقوامِ زعانفَةٍ
فأفسدوا الحكمَ إفسادًا وإنْ نهبتُ
لا خيرَ فِي الحكمِ دونِ الشعبِ يَسندُهُ
مِثالكُ الشَّهْمُ مَنْ يُرَجى لراجيها
وسائلُ الحُكْمِ ما يسمو ببايها
صاروا الأعالى وقد كانوا أدانيها
وزارةً وأتتْ أُخرى تُعاديها
ولا بخيرٍ يُرَجى مِنْ أَعادِها

التضحيات

قومي جموعَ التضحياتِ وحدِّثي
لولا اعتلالُ «النيل» من أحزابه
عشنا إلى زمنِ نرى ساداته
رُدِّي الجبانَ إلى ظلامِ وجودِه
عُمُرُ أبحتُ لموطني ولأمّتي
لم أَرُجْ يومًا أنْ أكافأ بل مَدَى
عدَدَ السنينِ لجاهلٍ وطُفيلي!
لم تَعَلْ صيحةُ فاسقٍ معتلٌ
في غيرِ منزلةٍ وغيرِ محلٍ
وكفى من الصدقِ المنزّهِ حَوْلِي
بالبذلِ لا ينفكُ شاهدٌ عدلٌ
حظي ذبوعُ النورِ فيمن حَوْلِي

لو كنتُ ...

لو كنتُ مِنْ أَهْلِ التَّحَرُّبِ ضَلَّةً
لم أُعْطِ إِلَّا بَعْضَ حَقِّي بَيْنَمَا
مَسَحَ الذُّكَاءُ فَبَاتَ كُلُّ مُسَوِّدٍ
وَيَعِيشُ مِثْلِي فِي كِفَاحٍ دَائِمٍ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ كَلًّا مَادِحِي
بِئْسَ السِّيَاسَةُ! لا تُنَاصِرُ عَالِمًا
لغنمتُ أضعافَ الذي أعطوني
خُلِقْتُ حَقُوقٌ لِلخَسيِّ الدُّونِ
بذِكَائِهِ رَمَزًا لِكُلِّ جَنُونٍ
ما بَينَ حُسادٍ وَبَينَ عَيونٍ^{٥٧}
وأنا الغَيبِينُ لَهُمِ وَأَيُّ غَيبِينِ!
وتَهشُّ لِلجَاني وَلِلْمَأفُونِ!

* * *

أنى يَحينُ لِمِصرِ عَهدِ رِجائِها
ومتى نَكونُ بَوحِدةٍ وَبِعِزَّةٍ
ومتى يَكونُ العَلمُ حُرًّا سَيِّدًا
ومتى يُصانُ لِمِثْلِ جَهدِي حَقِّه
لو كنتُ مَنْ يَرضى الهَوانَ لِنَفسِهِ
حَسبِي إِذْ أَنى أَقاسِمُ أُمَّتِي
لا عَهدُ أَحزابٍ وَعَهدُ دِيونِ؟
فَنُعزُّ تاجَ «مَنا» وَرَمَزَ «أَموِنِ»؟
لا طَوعَ أَضغانٍ وَعَبَدَ بَطونِ؟
مِنَ كُلِّ مُغتَصبٍ وَكُلِّ خُثونِ؟
لنَعمتُ لَكنَّ في ظِلالِ الهُونِ
هَذي الشُورَ بِحَظِّي المَغبونِ!

بأس الشعب

هو الشَّعبُ رَبُّ البَأسِ في كُلِّ حالَةٍ
ولو حَكمَ الشَّعبَ الوَديقَ عَظيمُ
مُحالٌ مُحالٌ أن يَسودَ خَصيْمُهُ
وَإنَّ هُوَ فَذٌ حازِمٌ وَحَكيمُ

^{٥٧} عيون: جواسيس.

فَوْقَ الْعُبَابِ

سَيُنْصَفُهُ^{٥٨} مَرُّ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ^{٥٩}
خَيْرٌ بِأَهْوَاءِ الْحَيَاةِ عَلِيمٌ
وَلَيْسَ الْعَتِيَّ الرَّأْيِي لِلنَّصْرِ كَافِلًا
إِذَا الْحَقُّ لِلرَّأْيِي الْعَتِيَّ خَصِيمٌ
لَقَدْ رَاحَ «مَحْمُودٌ» وَ«صَدَقِي»^{٦٠} كَمَنَ مَضُوعًا
مَعَ الظُّلْمِ، فَالظُّلْمُ السَّخِيفُ قَدِيمٌ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّعْبُ رَغْمٌ وَدَاعِيَةٌ
وَعُدْمٌ، وَمَا الشَّعْبُ الْأَبْيُّ عَدِيمٌ
فَوَا أَسْفَى كَمَ مِنْ نَكَاءٍ مُضَيِّعٍ
وَكَمَ مِنْ نَكَيٍّ فِي الضَّلَالِ يَهِيمُ!

غدر الدخيل

(قيلت في الموقف الوطني المشرف الذي وقفه القاضي عبد السلام ذهني بك.)

عَفَاءً عَلَى دَارٍ عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي
بَنِي وَطَنِي! هَذِي حَمِيَّةٌ وَاحِدٍ
أَتَنْسُونَ مَاضِي سَخَطِكُمْ أَوْ إِبَائِكُمْ
لَقَدْ ثَارَ فِي وَجْهِ «الْعَدَالَةِ» عِنْدَمَا
وَقَدْ حَرَمُوا لِلْفَرْدِ رِقًّا وَحَلَّلُوا
بَنِي وَطَنِي! ثُورُوا عَلَى الضَّيْمِ مِثْلَمَا
إِذَا بَاتَ أَهْلُ الدَّارِ يَرْضُونَ بِالْغَبَنِ
فَأَيْنَ إِبَاءُ الشَّعْبِ يَهْدُمُ أَوْ يَبْنِي؟
وَكَلِّمُوا «سَعْدًا» وَكَلِّمُوا «ذُهْنِي»
رَأَاهَا مِثَالَ الظُّلْمِ فِي كُلِّ مَا تَجْنِي
أَذَى الشَّعْبِ فِي رِقِّ مِنَ الزُّورِ وَالْمَيْنِ
أَبَيْتُمْ إِبَاءً سَالَفَ الضَّيْمِ وَالْهَوْنِ^{٦١}

^{٥٨} أي الشعب.

^{٥٩} أي الزمان.

^{٦٠} محمد محمود باشا، وإسماعيل صدقي باشا.

^{٦١} الهون (بفتح الهاء وسكون الواو): الاستسلام.

وَأُنْسِيْتَمُو غَدْرَ الدَّخِيلِ بَعْدِيْنَ ٦٢
 وَلَوْلَاهُ لَمْ تُرْهَقْ مِنَ الْحُكْمِ وَالذَّيْنِ
 عَنِ الْكَيْدِ مِنْ حِزْبٍ لآخَرَ مُفْتَنٌ
 وَنَلْتَمَّ مَكَانَ الشَّمْسِ لَا مَنْزَلَ الْغَيْبِ

شُغِلْتُمْ بِأَنْوَاعِ الْخِلَافِ الَّتِي جَنَّتْ
 فَلَوْلَاهُ لَمْ نَعْرِفْ خِلَافًا وَلَا أَدَى
 وَلَوْ قَدْ شُغِلْتُمْ بِالَّذِي هُوَ كَائِدٌ
 لَسَادِ الْإِخَاءِ السَّمْحُ بَيْنَ صَفُوفِكُمْ

في مكتبتني

(نكب صاحب الديوان بضياع الكثير من المؤلفات المستعارة من مكتبتيه.)

أَصْدِقَائِي ٦٢ لَكُمْ كَمَا لِي عُذْرٌ
 هَذِهِ هَذِهِ مَجَالِسُهَا صَا
 كُتِبِي أَنْتِ بَعْضُ نَفْسِي فَمَا كَا
 كَيْفَ فَرَطْتُ؟ كَيْفَ فَرَطْتُ
 أَنَا كَالثَاكِلِ الَّذِي عَدِمَ السُّلْمَ
 مَا كِتَابٌ يَنْوِبُ عَنْ غَيْرِهِ إِلَّا
 كُلُّ سِفْرٍ شَخْصِيَّةٌ لَا يُحَاكِي
 كُلُّ سِفْرٍ مِنْ بَعْدِ صُحْبَةِ نَفْسِي
 مَا سَمِيَّ لَهُ وَمَا تَوَأَّمُ يَرُ
 إِنَّ فَقْدِي يُحْسَهُ الشَّاعِرُ الْحُرُّ

فِي بُكَاءِ الْفَقِيدِ مِنْ أَصْدِقَائِي
 رَتَّ خَلَاءً مِنْ بَعْدِ ذَاكَ الرُّوَاءِ
 نَ اخْتِيَارِي إِيَّاكَ إِلَّا رَجَائِي
 فِي الْوَدِّ وَمَثَلِي يُعَدُّ رَمَزَ الْوَفَاءِ؟
 وَوَانَ وَالصَّبْرَ فِي مَجَالِ الْعِزَاءِ
 زَمِيلٌ يَنْوِبُ عَنْ زُمْلَاءِ
 يَهَا تَمَامًا تَشَابُهُ الْأَسْمَاءِ
 هُوَ مِنْهَا جِزْءٌ مِنَ الْأَجْزَاءِ
 ضِي شُعُورِي وَمَا يُلَبِّي نِدَائِي
 وَإِنْ غَابَ عَنِ هَوَى الْجِبْنَاءِ

* * *

أَصْدِقَائِي وَجُوهُكُمْ لَائِمَاتِي
 كَلَّمَا زُرْتَكُمْ تَأَلَّمْتُ حَتَّى
 بَعْضُ عُذْرٍ وَبَعْضُ صَفْحٍ إِذَا كَا
 قَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ دُرُوسِ حَيَاتِي

فِي سُكُوتِ الْقَضَاةِ قَبْلَ الْقَضَاءِ
 خَلْتُمْ كَالْغِلَاطِ مِنْ أَعْدَائِي
 نَ أَجْلُ الذَّنُوبِ عِنْدِي حَيَاتِي
 كَيْفَ مَاتَ الْحَيَاءُ فِي الْأَحْيَاءِ!

٦٢ عهد سعد باشا وعهد النحاس باشا.

٦٣ الخطاب موجه إلى كتبه.

الزَّارِعُونَ

(من قصيدة «القرية المهجورة» للشاعر الأيرلندي أوليفر جولدسمث.)

وَيْلٌ لِأَرْضِ هَوْتٍ	فريسةً للسَّقَامِ
حَيْثُ الْغِنَى قَدْ نَمَا	حَيْثُ الرِّجَالُ الْحَطَامُ
يَا رَبِّمَا يُزْدَهَى	أَوْ يُمَحِّقُ الْأَعْيَانُ
فَنَفْخَةُ خَلْقِهِمْ ^{٦٤}	كَخَلْقِهِمْ كُلَّ أَنْ
لَكِنَّمَا الزَّارِعُونَ	فَخَرَّ الْبِلَادُ الْجَلَادُ
إِنْ هُدُّمُوا مَرَّةً	فَمَا لَهُمْ مِنْ مَعَاذٍ!

ديانا وأكتيون

(كانت ديانا معدودةً في الأساطير الرومانية إلهة الحرب والقنص والقمر، كما كانت تُعدُّ مهمنةً على الولادة. وكان كاهنها عبدًا أبَقًا لا ينال منصبه هذا إلاَّ بمحاربة سلفه في ذلك المنصب محاربةً فرديةً وجهاً لوجه. وكانت ديانا تُمَجَّد في عيدها في مساء الثالث عشر من أغسطس إذ يكون بدرُ الصيف متجلياً وإن استعمل عُبادُها المشاعلَ في حفلاتهم، وكان الحواملُ يَسْتَعْنُ ببركتها ويبتهلن لها. وكان يُؤَدَّنُ للعبيد في عيدها — الثالث عشر من أغسطس — بالراحة إشارةً إلى منزلتها في الحرب ورعايةً لكاهنها.

أما عن قصة ديانا وأكتيون فتتلخَّص في أنَّ من عادة الرِّبة ديانا بعد انتهاء رحلتها الليلية في مركبتها القمرية أن تأخذ قوسها وسهامها وتذهب في صُحبة حوريَّاتها لصيد الحيوانات الأبدية في الغابة، وحدث في عصر يومٍ من أيام الصيف بعد أن تعبت ديانا وصاحباتها من مطاردة الصيد أن لجأن إلى إحدى البرك الجبلية الهادئة التي كثيراً ما اتَّجهن إليها للاستنقاغ. وكانت المياه الشَّبْعَةُ تتَمَوَّجُ داعيةً لهنَّ، فلم يستطعن إلا تلبيتها بنزع ثياب الصيد القصيرة وغسل أعضائهنَّ الحارة. ولكن لسوء حظهنَّ لم يكن وحدهنَّ حينئذٍ في تلك الجهة، إذ إن المصادفة قضت بوجود أكتيون الصياد الذي كان يطارد

^{٦٤} يريد نفخة من صاحب السلطان.

الوعلَ منذ الفجر، وقد أحسَّ بالظماً والتعب فأتَّجه هو أيضاً إلى تلك البركة الجبلية المشهورة. وبينما كان يقترب إلى تلك البقعة المألوفة خُيِّلَ إلى أكتيون أنه سمعَ جلجلةً ضحكاتٍ فضيَّة، فأخذ يتسلَّل نحوها بحذرٍ شديدٍ مُفسِّحاً بلطفٍ ما بين الشُّجيرات التي تعترضه، فإذا به يرى مدهوشاً ديانا وصواحبها. وفي تلك اللحظة كانت ديانا قد التفتت لتتحقَّق من سبب الحفيف الذي سمعته أذنها المدربةُ المرهفةُ، فإذا بها أمام نظرة الإعجاب والدهشة من ذلك الصيَّاد الشاب! وحينئذٍ أخرسها الحنقُ لرؤية بشرٍ لها على هذه الصورة، فألقت بحفنةٍ من الماء في وجه أكتيون مُهيبةً به في تحدِّيها أن يذهبَ ويُعلنَ — إذا استطاع — أنه قد رأى ديانا عريانةً! ... وما كادت قطراتُ الماء المتلألئة تلمسُ وجهه حتى قفل لينفُذ أمرها، فإذا به يجد أنه قد استحالَ إلى أيِّلٍ ولم يبق من شخصه السابق سوى شعوره التّعس بهذا التَّحوُّل! ... وبينما هو في وقفةِ اليأسِ والرعبِ سمع أصوات كلابه، فازداد رعباً على رعبٍ وحاول الخلاصَ منها فإذا به يقع فريستها وإذا بها تقضي عليه بعد أن تحوَّلَ إلى صورةٍ أيِّلٍ ولم يُعد في صورة صاحبها.^{٦٥}

يا شهيدَ «الجمالِ» يا سيِّدَ الصَّيِّدِ

سِدِ ستحيا الفريدَ في الشُّهداءِ!

ما أبى أن تراه، لكنَّه خا

ف قُصُورَ الجمالِ في عَيْنِ رائي

حُرِّمَتْ رُؤيةُ «الجمالِ» على غيِّ

رِ ذويه مِنْ أهْلِ دُنيا الفنونِ

فذهبتِ الضحيةَ التي إنْ تُعُدَّ بَعْدَ

دُ ففى فتنةِ الورى والجنون!

* * *

تنفق الليلَ عند زورقها الفِضِّيِّ^{٦٦}

في رحلةٍ «ديانا» الجميله

^{٦٥} انظر كتاب «أساطير اليونان ورومة» تأليف جوربر، وأمثاله من المؤلفات.

^{٦٦} القمر.

فَوْقَ الْعُبَابِ

فإِذَا مَا أَتَى الصَّبَاحُ تَوَلَّتْ^{٦٧}
صَيْدَهَا بَيْنَ بَاسِقَاتِ ظَلِيلِهِ
بَيْنَ أَتْرَابِهَا الْغَوَانِي اللّوَاتِي
تَحْرُسُ الْحَسْنَ مِنْ شُرُورِ الْحَيَاةِ
سَائِرَاتٍ بِجَذِبِهَا سَاحِرَاتٍ
فِي تَجَنُّ عَلَى الْمُنَى وَافْتِنَاتٍ
لَمْ يَنْلِهَنَّ فِي الطَّبِيعَةِ حَيٌّ
بَلْ وَجَانِبَنَّ كُلَّ طَيْفٍ وَخَاطِرُ
غَيْرِ طَيْفٍ يَنْبِثُ فِي النُّورِ وَالظُّلِّ
عَجِيبٍ مِنْ رُوحٍ فَنَّ وَشَاعِرُ
وَتَوَلَّيْنَ مَرَّةً بَعْدَ صَيْدٍ
نَحْوَ إِحْدَى الْجَدَاوِلِ الْجَبَلِيَّةِ
فَنزَعَنَّ النَّيَّابَ فِي غَيْرِ خَوْفٍ
يَتَبَرَّدَنَّ بِالْمِيَاهِ الْحَفِيَّةِ
وَتَمَتَّتَنَّ فِي هَدْوٍ وَقَدْ نَا
لِ عِنَاءِ الطَّرَادِ مِنْهِنَّ قَبْلًا
فَإِذَا الْبِرْكَةُ الَّتِي قَدْ جَمَعَتْهُنَّ
فُتُونٌ عَلَى فُتُونٍ تَجَلَّى
غَيْرَ أَنَّ الْأَقْدَارَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
خَاطِرُ خَانَتْ هَدْوَهُنَّ الْحَبِيبُ
فَلَقَدْ سَارَ «أَكْتِيونُ» إِلَيْهِنَّ
وَمَا كَانَ عِنْدَهَا بِالرَّقِيبِ
سَارَ نَحْوَ الْمِيَاهِ وَالظَّمَأِ الطَّامِ
غِي مُلِحُّ يَسُوقُهُ كَالشَّرِيدِ

^{٦٧} تولت: لزمته.

حاسبًا نفسَه الوحيدَ وما كا
ن، ويا لبيته الشريدُ الوحيدُ
عندها رانَ للصدى ضحكاتُ
كأغاني الأضواءِ شتَّى البيانِ
فمضى شطرها على حذرِ الصا
ئد في فرطِ خفةٍ واتزانِ
مُفسِحًا بين ذلك الشجرِ اليا
فع نهجًا فثارَ منه الحفيفُ
فإذا بالحفيفِ مُستزعيًا سَمُ
ع «ديانا» كوقعِ ريحِ عصفُوفِ
مَرَنْتَ أذنها، وقد جَسَمَ الصُّو
تَ نفورُ من الغريبِ الدَّخيلِ
أفسدَ الراحةَ التي نشدتها
ورأى جسمها العزيزَ البليلِ
فأبتُ أن ينالَ ذلك إنسا
نُ إذا لم يكن بروحِ الألوهه
أين هذا من ذلك الصائدِ الفجِّ
ولو كان ذا أمانٍ نزيهه؟
أدهشته في هذه اللحظةِ الفتى
نةً بالمشهدِ العجيبِ العجيبِ
بينما أغضبتُ «ديانا» وقد ريب
سعتُ مع صاحباتِ للمستريبِ
فرمتُ ملءَ راحتِيها من الما
ءِ عليه بلعنةٍ وتحديي:
«سرّ - إن اسطعتَ - وأخبرِ الناسَ عني!»
فإذا «أكتيون» ممسوخُ صيْدِ!
حالَ كالأيِّلِ الذي لفظتُه
رحمةُ الكونِ للأسى والعذابِ

فَوْقَ الْعُبَابِ

وَأَتَتْهُ كِلَابُهُ وَهُوَ فِي الرَّوِّ
عِ فَامْسَى غَنِيمَةً لِلْكَلابِ!

* * *

يا شهيدَ «الجمالِ» يا سيِّدَ الصَّيِّدِ
سِ سَتَحِيَا الْفَرِيدَ فِي الشُّهَدَاءِ!
ما أبى أن تراه، لكنَّه خا
فَ قُصُورَ الْجَمالِ فِي عَيْنِ رائي
حُرِّمَتْ رُؤْيَا «الجمالِ» على غِي
سِ رِ ذُوِيهِ مِنْ أَهْلِ دُنْيَا الْفَنونِ
فَذَهَبَتْ الضَّحِيَّةُ الَّتِي إِنَّ تَعُدُّ بَعْدَ
سِ دُ فِ فِي فِتْنَةِ الْوَرى وَالْجَنونِ!

شعر النجوم

شِعْرُ الْكواكِبِ وَالنَّجومِ
جَعَلَتْ صَحائِفُهَا الْقرو
نُشِرَتْ على هَذَا الْفِضا
فَإِذا النُّظِيمُ مِنَ الْأشْعَّةِ
وَيُسَطَّرُ الْوَحْيَ الْفَرِيدِ
وَيُفَسَّرُ الْمَوْشورُ مَع
إِلَّا خَواطِرَ لِم تَزَلْ
مَلَأَتْ نَوازِعُهَا الطَّيوَ
الرَّائِياتُ مَنَى الْحِيا
كَم حاولتُ^{٦٨} فَتَحَ النَّجومِ
شِعْرٌ تَنوُّ بِه الْفُهومِ
نَ مِنَ السَّديْمِ إِلى السَّديْمِ
عِ بِرَاحَةِ الْأَزَلِ الْقَدِيمِ
يَنْقُبُ اللَّيْلَ الْبَهيمِ
سِ دَ مِنَ الْكواكِبِ وَالنَّجومِ
سِ نَهاها وَمَغزَها السَّليْمِ
وَقَفَّا على الشَّعْرِ الْحَميمِ
فَ، وَكَلَّها شَجَنُ الْيَمِ
ةِ الْباكِياتُ حُطَى النِّعِمِ
مِ فَكانَ مَصْرَعُها الْوَحيمِ

^{٦٨} أي الحياة.

كم في الفضاءِ مَنَاحَةٌ
قَتَلَى الأشعَّةِ كالكوا
والكونُ تَمَلُّهُ العوا
فأحسُّها نبضَ الأشعَّةِ
وأجسُّها وأشمُّها
فأرى بها جُرْحَ الزَّما
وأرى الضحايا بينها
الجاعلِ الموتِ الحياةِ
والكونُ يَتَّسِعُ اتِّسا
وسبيلُهُ الرُّشدُ القويـ
والموتُ أَخَذَ مُقيـ
كبِ والنجومِ بلا رحيمِ
طفُ وهو في قلقِ اليتيمِ
ةِ في تَأَلَّقِها العليمِ
بمشاعرِ الدُّنيا الرءومِ
نِ وطعنةَ الدهرِ الأثيمِ
لجلالةِ الربِّ الحكيمِ
فما الرَّمِيمُ بها الرَّمِيمِ
عَ البرِّ والخُلُقِ الحليمِ^{٦٩}
مُ وحظُّه المجدُّ القويمِ

الفرد والسمة

أَمْشَبَّهَا بِالْقَرْدِ مَنْ هُوَ رَبُّهُ
فَالْقَرْدُ جَلٌّ مِثَالُهُ وَوَفَاؤُهُ
أَعْلَمَتْ أَنَّكَ مِثْلُ أَسْمَاكِ^{٧٠} لَهَا
فَإِذَا سَمَتْ مَاتَتْ كَأَنَّ هَوَانَهَا
فضلاً، أَبَيْتُ لِمِثْلِكَ التَّشْبِيهَا
عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْخَوْنُ شَبِيهَا!
قَاعُ الْمَحِيطِ مَبَاءَةٌ وَحَيَاةُ
عَيْشٍ، وَغَايَاتِ السُّمُوِّ مَمَاتُ؟!

^{٦٩} إشارة إلى ظاهرة التمدد الكوني.

^{٧٠} تعيش بعض الأسماك الثديية في قاع المحيط ويقتلها الانتقال إلى أعلى، وكذلك حال بعض الادميين إذا علو فهم المحسنون المصلحون على التسامي في المجتمع.

تكريم الفاجر

ونادى مُناد: «كْرَمُوا العِلْمَ، كْرَمُوا!
 ما كان إِلَّا فاجِرًا أَيَّ فاجِرٍ
 لقد جاءَ فيه واصفًا لوَمَ نَفْسِهِ
 عَجَزنا عن التَّصوِيرِ تَلقاءَ مُعْجَزِ
 عَجَزنا ورَحَبنا بطَعنٍ وَخِصَّةِ
 وَأضحَكنا مَنْ خُوِدِعوا في مَدِجِهِ
 ولم أَرِ جَمعًا مِثْلَ هذا إذا التَّقَى
 كذا جَرَتِ الدُّنيا فُنونَ مَهازِلِ
 وكلُّ امرئٍ في وَسْعِهِ حَبَسَ نَفْسِهِ

فذلك للعلمِ الكَريمِ زَعيمُ
 وحسبُكَ منه في الفجورِ نَظيمُ^{٧١}
 ووصفُ لئيمٍ ما يقولُ لئيمُ
 لمرأتِهِ فيما يرى ويرومُ
 فإنَّنا بعهدِ يزدريه كَريمُ
 وكم يَخدعُ الحَرَّ البَريءَ أثيمُ
 تَشابُه فيه عاقلٌ وبَهِيمُ
 وأغلبُها للهازلينَ سَقيمُ
 غنِيًّا ولاقَى الناسَ فهو غَريمُ

طرطوف

(مهداة إلى نقيب الدجالين.)

«طرطوف» يا دَجَالَ «مصـ
 مَنْ لي بِمُلييرِ العَظيمِ مُصَوِّ
 إن تَرَحَّمِ الدينَ البَريءِ
 يا فاقِدَ الأَدبِ الصَّحيحِ
 خادَعَتنا زَمَنًا كما
 فكأنكَ الشَّيطانُ في
 مَنْ ذا نَلوومُ وكَلُّنا
 مِنْ بَعدِ ما أَضْحَى مِثالُ

«ر» العَبقَريِّ بلا جَدالِ
 رَا فيكَ الضَّلَّالِ؟
 فَعِندَكَ الأَدبُ السُّتارُ
 وتاخَذَ الأَدبِ الشُّعارُ
 خادَعَتَ أعلامَ الرِّجالِ
 خَتَلِ إلى أَقصى المَجالِ
 ذاكَ المَغفَلُ والسَّفَفيهُ
 لَكَ صَورةَ البَطَلِ النَّزِيهِ؟!

^{٧١} وصف الفاجر نفسه بمنظومته الشاملة «الفاجر في المرأة».

ولولا محبَّة أرض «مصر»
لعددت هجرتي البعيد
أفسدت يا «طرطوف» دنيا
حتى كأنَّ السَّمَّ في
ونيلها الشَّيْبِ الكَريمِ
ددة من نهايات النعيم
الناهلين من الأدب
هذا المعين لمن شرب!

في الطريق الحزين

(نظمها صاحب الديوان وهو يجتاز قرية المطرية القديمة.)

يا طريقي الحزين! عرَّجْ على العرَّ
في صميم الحقول سرِّ بي وخذني
في جوارِ المياه تجري فتروني
في جوارِ النبات يخفق من خَفِّ
في جوارِ الأنيس من طيرها الأب
في جوارِ الأعشاب يلمسها الما
في جوارِ النُّوارِ قَبْلَهُ النَّحْ
في جوارِ الأحلام في خُضْرَةِ الأَرِّ

سِ وَسِرُّ بَيْنَهُ بَرُوحِي وَجِسِّي
مِنْ وَجُودٍ وَهَبْتُهُ كُلَّ يَأْسِي
قَبْلَ رِيِّ الْغَراسِ قَلْبِي وَنَفْسِي
قَفِي وَيُقْضِي بَهْمَسِهِ مِثْلَ هَمْسِي
يَضُ^{٧٢} جَسَّ الثَّرَى حَرِيصًا كَجَسِّي
ءُ بَرَفِقِ وَالنُّورُ فِي شَبِّهِ لَمِسِ
لُ بِشَوْقِ الْمَدْلِهِ الْمُتَحَسِّي
ضِ وَقَدْ أَيْنَعْتُ^{٧٣} بَغْرَسِ وَغْرَسِ!

* * *

يا طريقي الحزين! ما عالمُ النا
أنا بعضُ من الوجودِ الذي يَأُ
من أغاني الضياء، من طهره السا
من نجومِ السَّماءِ والأرضِ أحلا
من معانٍ خَفِيَّةٍ نَشُوتِي الكَبِّ

سِ لِمِثْلِي، فَلَيْسَ مِثْلِي بِأَنْسِي!
بَى وَجُودًا عَلَى فِسادِ وَرَجْسِ
حَرِ، مِنْ حَمْرِهِ كِيَانِي وَأَنْسِي
مِي وَمِنْ رُوحِهَا الْمَشْعَشَعِ كَأْسِي
رَى وَمِنْ مُقْبِلِي الْبَعِيدِ وَأَمْسِي

^{٧٢} يشير إلى أبي قردان.

^{٧٣} أي الأحلام.

فَوْقَ الْعُبَابِ

أَسْمَعُ الصَّمْتَ كَالْأَغَانِي الَّتِي تَنْدُ
قَدْ حَوَاهَا^{٧٤} كَمَا حَوَى مِنْ قُرُونٍ
أَقْتَنِيهَا بِنَشْقَةٍ ثَمَّ لَا أُرُّ
مَنْ جَمَالِ الْأُلُوهُةِ الْمُتَنَاهِي

هَلْ فِي الْجَوِّ دُونَ سَمْعِ وَجْسٍ
خَلَجَاتِ النُّفُوسِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ
ضَى سِوَى كُلِّ مُسْتَعَزٍّ وَقُدْسِي
فِي جَمَالِ الْأَثِيرِ يُضْحِي وَيُمْسِي

* * *

يَا طَرِيقِي الْحَزِينِ! إِنِّي غَرِيبٌ
رَبِّمَا قَدَّرَ الثَّرَى ثَمَّ إِحْسَا
رَبِّمَا الذِّكْرِيَّاتُ رَفَّتْ عَلَيْهِ
نَجْنِي مِنْ تَعَثْرِي بَيْنَ أَشْبَاحِ
نَجْنِي! إِنَّ فِي الطَّبِيعَةِ نَجْوَا
فِي جِمَاهَا الْفَنَانُ يُسْمِعُهُ الْخَا
فِي جِمَاهَا يَعِيشُ لِلشَّاعِرِ الْحُبُّ
فِي جِمَاهَا أَنَامٌ وَالْعِشْبُ وَجَدَا
وَأَنَاجِي حَتَّى الْجِنَادِبَ فِي زَهِّ
وَالرَّغَامَ الَّذِي يُحَجِّبُ عَنْ غَيْدِ
رَقَدَتِي عِنْدَهَا كَسْكِرَةِ فَرَحَا
بَيْنَمَا الْعَالَمُ الْمُؤَصَّلُ فِي الْغَدِّ

وَالغَرِيبُ الغَرِيبُ رَهْنٌ لِتَعْسِ
سِي إِذَا مَا أَبَاهُ أَبْنَاءُ جِنْسِي
كَرْفِيفِ النَّدَى الشَّفِيقِ الْمُؤَسِّي
وَمَنْ نُقِلْتِي لِرَمْسِ وَرَمْسِ
يَ ففِيهَا لُبِّي وَشِعْرِي وَطَرْسِي
لِقُ مَا كَانَ فِي خَفَاءٍ وَلُبْسِ
فُتُونًا مِنْ كُلِّ نَجْمٍ وَشَمْسِ
نِي وَقَلْبِي زَمِيلُ «عَبَّادِ شَمْسِ»
و، وَفِي نَشْوَةِ أَوْسَدِ رَأْسِي
رِي قَرُونًا عَزِيزَةً رَهْنٌ حَبْسِ
نِ بَدْنِيَا تَخْتَالُ فِي صَفْوِ عُرْسِ
رِ قَرِيرٌ بِكُلِّ جَانٍ وَجِبْسِ!

الزعماء

عَفْوًا لِقَسْوَتِي الَّتِي لَا أَبْتَغِي
ذِمَّةَ الرِّجَالِ لَهَا الْمَكَانَةُ فِي الْعُلَى
وَإِذَا الْأَمَانَةُ لَمْ تَسُدَّ فَجَمِيعُ مَا

مِنْهَا سِوَى الْغَايَاتِ مِنْ إِحْسَانِكُمْ
وَيَزِيدُهَا قَدْرًا مَدَى إِيمَانِكُمْ
حَكَتِ الْمَوَاهِبُ سَخْرِيَّاتُ زَمَانِكُمْ

^{٧٤} أي الجو.

أَغْفَلْتُ كُلَّ مُسَوِّدٍ لَمْ يَقْتَرِنُ حَظُّ لَه بِالْحَظِّ فِي أَوْطَانِكُمْ
وَجَعَلْتُ إِكْبَارِي لِمَنْ تَقْدِيسُهُ لِلشَّعْبِ مَيِّزَ شَانِهِ عَنِ شَانِكُمْ

مصر المنتجة

(أهديت إلى دولة النحاس باشا لمناسبة عنايته بالنهضة الاقتصادية).

شعري! لك الإنصافُ غيرُ مرائي
أهدِ الثناءَ إلى ممثِّلِ أُمَّةٍ
بلغتْ نِزَاهَتُهُ النِزَاهَةَ كُلَّهَا
وَبِحِلْمِهِ حِينَ السِّيَاسَةُ مَا لَهَا
«المصطفى» المعتزُّ من إخلاصِهِ
عَبَثًا نَحَاوُلُ أَنْ يَكُونَ لِمَثَلِهِ
وكفاهُ رمزُ طَهَارَةٍ قَدْسِيَّةٍ
كَمِ مَنْ زَعِيمٍ غَيْرِهِ مَتَعَثِرٍ
وكفاهُ فخرًا صِدْقُهُ وَوَفَاؤُهُ
إِنْ لِيَمَ كَانَ اللُّؤْمُ رَمَزَ مَحَبَّةٍ

فَاهِدِ الثَّنَاءَ وَكُنْ أَحَبَّ ثَنَاءٍ
بِالْخُلُقِ قَبْلَ مَكَانَةِ وَنَدَاءٍ
حَتَّى يُعَابَ بِخُلُقِهِ الوَضَاءِ
إِلَّا الدَّهَاءُ، وَلَمْ يَكُنْ لِدِهَاءِ
بَيْنَ الْوَرَى فِي الصَّحْبِ وَالْأَعْدَاءِ
خُلُقُ الدُّهَاءِ وَمَنْهَجُ اللُّؤْمَاءِ
هِيَ قَدْوَةٌ لِلشَّعْبِ وَالرُّعْمَاءِ
بِذِكَائِهِ الْمَتَذِذِبِ الْأَهْوَاءِ
فِي بَيْئَةٍ لَمْ تَكْتَرِثْ بِوَفَاءِ
وَتَطَّلِعِ فِي الْمَحْنَةِ السَّوْدَاءِ

* * *

أَحْسَنْتَ يَا مَنْ لَا يُرَدُّ نِدَاؤُهُ
هَلِ «مِصْرُ» إِلَّا أَهْلُهَا وَنِتَاجُهَا
فَابِنِ الْعِظَائِمِ بِالْفِعَالِ مُوَفَّقًا
فِي ذَلِكَ التَّشْجِيعِ وَالْإِنْشَاءِ
وَتِرَاثُهَا وَمَكَارِمُ الْأَنْبَاءِ
تَرْفَعُ لِآتِيهَا أَجَلَ بِنَاءِ

رثاء شيخ العروبة

أحمد زكي باشا (نشرت يوم وفاته).

أيها الموتُ لقد هُنَّا خِدَاعَا قد خَطَفْتَ النَّبْلَ وَالْفَنَّ الصَّنَاعَا
ما مَلَكْنَا مِنْهُ حَتَّى مَوْقِفَا لوداعٍ ... كَيْفَ حَزَمْتَ الْوِدَاعَا؟!

* * *

باني الجامع^{٧٥} لا يَرْضَى لَهُ ما ارْتَضَى النَّاسُ جَمَالًا وَابْتِدَاعَا
أَنْتَمَا مَجْدَانِ حَيْثُ اجْتَمَعَا غَمْرًا النَّاسَ سَلَامًا وَشُعَاعَا
رَقْدَةُ الْخَلْدِ الَّتِي تَرَقَدُهَا لَمْ يَنْلِهَا النَّاسُ مِنْ قَبْلُ سِرَاعَا^{٧٦}
نَلْتَهَا فِي خَطْوَةِ لَكْنِهَا خَطْوَةُ الْجَبَّارِ فَتَحًا وَانْدِفَاعَا
خَلْفَهَا الْأَجْيَالُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ أَدَبٍ حَيٍّ وَمَجْدٍ مَا تَدَاعَى
ذِكْرِيَاتُ كَنْتُ حَامِي عِزِّهَا فَرَأَيْنَاهَا وَقَدْ كَانَتْ سَمَاعَا
مَنْ لَهَا الْيَوْمَ سَوَى ذِكْرِكَ فِي حُبِّنَا الْجَمِّ فَيْرَعَى وَتُرَاعَى^{٧٧}
كَنْتُ تُسْتَفْتَى فَتُفْتَى دَائِمًا بِالصَّرِيحِ الْحَقِّ عِلْمًا وَاتِّبَاعَا
تُنصتُ الدُّنْيَا لِمَا تُفْضِي بِهِ مِنْ حَدِيثٍ يَغْمُرُ الدُّنْيَا اتِّسَاعَا
رَبِيعَتِ الْأَنْ وَلَكِنْ رَوْعَةً سَوْفَ نَحِيَاهَا مَعَ الدُّنْيَا التِّياعَا
إِنَّمَا الْعُرْبُ لِسَانٌ أَيْدٍ وَتَرَاتُ كَنْتَ وَاقِيهِ انْصِدَاعَا
شَيْخُهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ حَازِبٍ تُنْقِذُ الْبِرَّ إِذَا مَا الْبِرُّ ضَاعَا
مَا أَقَلَّ النَّاسَ فِي رُؤَادِهِمْ حِينَ يَفْنُونَ مَعَ الْجَهْلِ صِرَاعَا

* * *

يَا سَمِيٍّ وَصِدِيقِي! لَيْتَ لِي فِي وَفَائِي أَنْ أَفِي الْعِلْمَ الْمَضَاعَا
لَيْتَ لِي قَدَرَ وَفَائِي قُدْرَةَ كَشَعَاعِ الشَّمْسِ جَوَابًا مُشَاعَا

^{٧٥} إشارة إلى الجامع الفني الذي بناه الفقيد ودفن فيه، وكان يتفنون في زخرفته وإنشائه.

^{٧٦} إشارة إلى وفاته السريعة على أثر مرضه الذي لم يمهله غير يوم واحد.

^{٧٧} وتراعي: أي الذكريات.

قَبْلَ أَنْ أُرْضِيَ حُزْنِي وَالْبِرَاعَا
تُفْحِمُ الدَّهْرَ كَمَا تَمْحُو الدَّمَاعَا

عَلَّنِي أُرْضِيَ الْمَعَالِي رَاثِيَا
إِنَّمَا أَتَارَكُ الْحَسَنَى الَّتِي

الشعر والوطن

عَزِيزَ الشَّعْرِ لِلوَطَنِ الْغَبِيَنِ
وَوَادَّ الشَّعْرِ لِلْغَرَضِ الْمَهِينِ
نِفَاقَ الشَّعْرِ لِلْأَحْزَابِ مَبْدَا
بِهِ، إِذْ لَنْ يَكُونَ الذُّلُّ مَجْدَا
زَعِيمٍ يَنْصَحُ الْحُرَّ الزَّعِيمَا
وَلَا يَخْشَى صَدِيقًا أَوْ خَصِيمَا؟
بِمِصْرٍ، وَإِنْ أُسْتُ لِمِحْضِ حُبِّي
وَإِنْ ضَلَّ الْوَرَى، وَلِعَهْدِ قَلْبِي

تَنَادَى النَّاظِمُونَ بِمَا دَعَوْهُ
وَلَمْ يَكُ غَيْرَ تَلْفِيْقٍ سَقِيمِ
إِذَا طَغَتِ السِّيَاسَةُ وَاسْتَحَلَّتْ
فَلَا كُنَّا وَلَا كَانَ افْتِتَانُ
وَهَلْ شِعْرٌ بِلَا قَلْبٍ أَبِي
يَقُولُ الْحَقُّ مَوْفُورًا عَزِيزًا
لَكُمْ عَنَفْتُ مَنْ أَحْبَبْتُ، حُبًّا
فَعَشْتُ أَنَا الْوَفِيُّ لِخَيْرِ شَعْبِي

عام البانجان!

(من مشاهد الريف الأليمة.)

لِلْعَيْشِ ... مَا حَظُّ هَذَا الْعَيْشِ فِي الذُّلِّ؟!
وَجِدُّ مَحْرُومَةٍ مَا طَالَ مِنْ ظِلِّ
وَلَيْسَ يُنْفَقُ فِي تَطْبِيبِ مَعْتَلِّ
وَحَمَلُوكِ الَّذِي قَاسَيْتِ مِنْ حِمْلِ
عَانَيْتِ فِي الْبُؤْسِ مَا فَاتَتْهُ مِنْ نُلِّ
كَأَنَّمَا رُشِقَتْ وَالْحِظُّ بِالنَّبْلِ^{٧٨}

يَا مَنْ تُجَفَّفُ بَانْدِنَجَانَهَا جَزَعَا
أَصْبَحْتَ يَا بِنْتَ مِصْرٍ جِدًّا مُجْدِبَةً
وَالْمَالُ يُنْفَقُ فِي إِيْذَاءِ مِضْطَهَدِ
هَوَى رِجَالَتِنَا فِي مَا يَدْنُسُهُمْ
وَصِرْتَ سَائِمَةً تُرْعَى، وَرُبَّتَمَا
هَذَا كَسَاؤُكَ أَسْمَالُ مَمْرَقَةٌ

^{٧٨} النبل: السهام، واحدها نبله.

وما الحياةُ وهذا النُّورُ كاللَّيْلِ؟
كأنما غُذِّيتُ بالصَّابِ والخَلِّ!
جهودِكِ اليومَ في إرهابِكِ الكليِّ؟
فضيِّعوه وضاعوا في مَدَى الدُّلِّ!

وذا نَهَارُكَ مِثْلُ اللَّيْلِ فِي عَمِّهِ
وتلك أَسْرَتُكَ المَهْدُومُ هيكُلُهَا
فأين أين بنو مِصرَ الألى مَدَحُوا
ناموا واخلُّوا غِنَى الفِلاحِ مَسْغِبَةً

القَوَادُ والجند

بينما نحن على الدُّلِّ نيامُ!
وكأننا أبرياءَ دونَ نائمٍ!
إنما لا تُسرفوا في لَوْمِهِمُ
لو تجنَّبتم دواعي هَدْمِهِمُ
تُرجع الوادي إلى عَزَّةِ أمسٍ
هي كالميتةِ في أعماقِ يأسٍ
وغريبُ الناسِ فينا الجبناءُ
تخطفُ المجدَ وتُحيي الشهداءَ!؟

أمَّتي! كم نُشبعُ القَوَادَ لومًا
كلُّنا المذنبُ! كم نرسلُ ذمًّا
أصلِّحُوا القَوَادَ نقدًا أصلِّحوا
ربما يَفْلَحُ مَنْ لا يَفْلَحُ
أه! كم يَعشِقُ قلبي وَحْدَةً
لو عقلنا ما عرفنا شِدَّةَ
أمَّتي! إنَّا جميعًا إخوةُ
كيف لا تَدفعُ «مِصرًا» نخوةُ

لوعة الغروب

(في بورسعيد)

حبيبٍ ولا مَأمَلٍ يُنْتَظَرُ
بِ بآخرِ إشعاعِها المَدَّخِرُ
وما عائقُ الموجِ حتى احتضِرُ
فما كاد يُدركُ حتى استترُ
وما الشمسُ إلاَّ رسولُ القَدَرِ
وإنَّ لِمَما في مَجَالِ النظرِ

تَوَلَّى النهارُ بلا مُنقِذٍ
وجازفتِ الشمسُ قبلَ الغروِ
فما صدمَ الماءَ حتى هوى
وغابتُ كما غابَ سرُّ الضميرِ
وما البحرُ إلاَّ خِصَمُ الحياةِ
لقد جُمِعَا في الخفاءِ العميقِ

وَمَمَّ السحابُ الحزِينُ الشريدُ
ولم يحمل الأفقُ من صبغةِ
أحسُّ بها نفحةً من جمالِ
قد اتَّفقا في اجتذابِ العيونِ
وكانا صلاةً ضحايا الغروبِ
تجددها رَحمةً في السَّماءِ
ويفرح في موتها العاشقون
فماتت أشعته المحسناتُ
وأنشدتُ وحدي رثاءَ الجمالِ
عن الوجدِ في ساعةٍ من ضَجْرٍ
سوى لوعةٍ لفؤادٍ شَعْرُ
مَرُوعٍ على لفحةٍ من شَرَرٍ
كما اختلفا في فُنونِ الصُّورِ
وبين ضحاياهُ دهرٌ عَبْرُ
وإن خفيت عن شعورِ البشرِ
كأنَّ النهارَ حبيبٌ غَدَرُ
وإن بُعِثتُ في ضياءِ القمرِ
وقد غرق الناسُ بين السَّمَرِ

ملاك أم شيطان؟!

(الرسم للفنان الفرنسي ماناسيه.)

الجمالُ الجمالُ في هذه الدُّنْـ
لستِ إلَّا رموزهُ لعيونِ
في مثالِ الهدوءِ جِلستكِ الحسـ
جُمِعتُ حولكِ الطيوفُ فكانتُ
كلُّ لونٍ له مَعانٍ دِقاقُ
أين أين الشيطانُ من ذلك الحُسـ
ما نزعَتِ الستارَ إلَّا وفاءً
منكِ نستافُ نشوةَ الفنِّ ألوا
يا لآيِ الإبداعِ في ذلك الجسـ
هو شعْرٌ ومن جناه تداعى
كلُّ جزءٍ له نشيدٌ حبيبُ
جُمِعتُ كلها فكنَّ عجيبيًا
يا هو الخالقُ الصريحُ المحجَّبُ
لمحتُ فيكِ نورهُ يتوتَّبُ
نناءً لكنَّها شعورٌ تلهبُ
كاجتماعِ الطيوفِ من حولِ كوكبِ
كمعانٍ إلى السماواتِ تُنسبُ
من ومنه الحياةُ في الكونِ تُسكبُ؟
حينما الفنُّ للجمالِ تعصَّبُ
نأً ومن نبعكِ المقدسِ نشرُبُ
مِ فمَنه الإيحاءُ للشعرِ يُطلبُ
صُورٌ للخلودِ لا تتذبذبُ
في هتافٍ وفي خُفوتٍ مُحَبَّبُ
قد حواه تصوُّفٌ فيكِ أعجبُ!

* * *

ري نفوسًا بحلمه تتعدَّب
لا يُدَانِي، وفي تحدِّ مؤدَّب
ر وفي رقصه الطروبِ المعدَّب
نُّ من الظفرِ والرَّجاءِ المخيَّب
نك في روعةٍ تشوقُ وتُرهبُ
هي بإعجازه العتيِّ المُهدَّب
صُورًا من عبادةٍ لا تُخيَّب
في حنانٍ والذهرُ بالناسِ يصخبُ!

ذاك حُلْمُ الجمالِ نشوانَ لا يدُ
عَصَبَ الرَّأْسِ فِي جلالَةِ سحرِ
وإذا الشَّعْرُ فِي تَمُوجِ مأسو
وإذا وجهُك الحَيِّ أَفانيـ
وتراءى نهداك كالحارسي حُسـ
وهما فتنةٌ مِنَ النَّسَقِ الزَّا
لم يزدني تأملي فيك إلا
أنعشتُ خاطري وقد ذابَ شِعْرًا

الطاووس الأبيض

ية كالنورِ يُضمرُ الألوانا
دُ فيكفي اجتذابُك الفئانا

أنتَ في الحُسْنِ مُضْمَرُ اللَّوْنِ والحِلـ
إنَّ يعبُكَ الذينَ لم يشعروا بَعـ

وحي البحيرة

(نظمها الشاعر في الصباح الباكر في عودته بالقطار من بورسعيد وقد لمح عن بُعدِ
قواربَ الصيدِ في بحيرة المنزلة.)

هذي الأهلَّةُ^{٧٩} ما لها مذعورةٌ
جُمِعَتْ وَعَزَّزَهَا السَّحَابُ كأنَّما
وإذا المياهُ مَلَاعِبُ جَنِيَّةٍ
وإذا المشاهدُ فِي تَحْوُلِ سَكْرَةٍ

فتلوح في الأفقِ البعيدِ حيارى؟!
تَخشى إذا اشتعلَ النَّهَارُ النَّارَا
شَتَّى وَأَعشابُ المياهِ عذارى
منا، ونلمحها كذاك سُكاري

^{٧٩} إشارة إلى مرأى القوارب عن بُعد.

كالعالم المجهول نخطف حلمه بعض الحظوظ وعندها يتواري!

* * *

يَثْبُ الخيالُ بنا إلى أكنافها ويعودُ مدحورًا، فإن رموزها إن يدرها أحدُ فطيرٍ شاعرٍ يقتاتُ بالألوانِ قبلَ غذائه يقضي الليالي عابداً متبتلاً وينوح للغرقى، فكم من نجمةٍ علقتُ به الثاراتُ حتى أنه وكذاك قلبي طارَ حولَ خيالها يجري القطارُ ولا أجسُ به كما وكأنه مرأى الفنائه محببًا تتناوبُ الخطراتُ ملءً تناقضٍ تجري وتنتظمُ الوجودَ بأسره هي مسرحٌ تخذُ الخفاءَ جماله فجمعتها بيد الأثيرِ ضراعةً

ويثورُ في شَغَفٍ يظلُّ مُثارًا شأتِ الخيالِ وفاتتِ الأسرارُ قد أفحمَ الشعراءَ والأطيارا مُتَعًا وتشربُ روحه الأنوارا يدعو النجومَ ويسألُ الأسحارا خُدَعَتْ وقد غرقتُ، ويطلبُ ثارا ليعيشُ في عُمر يراه مُعارا قلقًا يُراودُ حُسْنُها السَّحارا أَحسستُ بالصمتِ البعيدِ جهارا بسكونه، وكأنه ما ثارا لُبِّي كما تتناوبُ الأدهارا وترى البحيرةَ كنيئةً وشعارا فطنًا وأرسلَ رغوهُ الأشعارا للحسنِ حين الموجُ أن مرارا!

على حافة التربة

(في ضاحية المطرية)

أمتعتُ بالماء المهفهف ناظري وكأنما هي في الحياة أصيلة سحرٌ تكفلُ موجهَ وجوده ورشيقة الحشرات تلعب حوله دنيا خيالٍ والحقيقة عندها سكن الغرامُ بها فكلُّ مليحة

وبه الظلالُ عن الغصون تشفُّ والأصلُ ظلُّ في الهواءِ يرفُّ وقد احتواه وما احتواه الطرفُ وتطيرُ وهي من الحبورِ تخفُّ ما يلهم الوهمُ الحبيبُ ويصفو بحبيبها تعتزُّ أو تلتفُّ

فَوْقَ الْعُبَابِ

مَنْ كُلُّ نَبْتٍ لَا يَجُلُّ وَإِنَّمَا
مَنْ كُلُّ طَائِرَةٍ بَزِيٍّ بَعُوضَةٍ
مَنْ كُلُّ غَائِصَةٍ يُحَارِبُ عَيْشَهَا
الْفَقْرُ يَشْمَلُهَا جَمِيعًا بَيْنَمَا
وَنُحْسٌ نَحْنُ بِفَقْرِنَا وَخُشُوعِنَا
الْفَنُّ مَجْدُهُ وَيَأْبَى الْعُرْفُ
وَحَيَاتُهَا دُنْيَا عِدَاهَا^{٨٠} الْوَصْفُ
عِلْمٌ، وَيَنْصُرُهَا الْجَمَالُ فَتَطْفُو
الْفَنُّ يُكْسِبُهَا غِنًى فَتَعْفُ
فَنظَلُّ نَنْهَبُ حُسْنَهَا وَنَسْفُ!

القلادة المحسودة

يَا لَيْتَنِي الْجَعْرَانُ فِي الْجَيِّدِ
مَتَرْنَحًا مِنْ لُطْفِهَا الْغَالِي
مُتَسَلِّسًا وَالْقَيْدُ لِي نِعَمٌ
قَدْ صِيغَ مِنْ ذَهَبٍ وَمِنْ حَجَرٍ
وَأَنَا الْمَصُوعُ عَوَاطِفًا كَرُمْتُ
فَأَنَامُ فِي حُلْمٍ عَلَى حُلْمٍ
مَتَوَتَّبًا فِي كُلِّ تَنْهِيدِ
وَاللُّطْفُ تَشْرِيدي وَتَبْدِيدِي
فَالْحُسْنُ تَنْعِيمِي وَتَقْيِيدِي
وَكِلَاهُمَا الْفِتَانُ لِلْغَيْدِ
أَتَرَى أُنَالُ رِعَايَةَ الْجَيِّدِ؟
مَتَيْقُظًا فِي كُلِّ تَنْهِيدِ!

التعاون

(ألقيت في حفلة تكريم رجل التعاون والقلم الصديق الأديب محمد عبد الغفور يوم أول يولييه سنة ١٩٣٤ بمدينة زفتى، وقد أقامها ممثلو الجمعيات التعاونية والأدباء في منطقتة.)

أَمَحَرَّرَ الْفَلَاحِ مِنْ أَغْلَالِهِ
ذَوَقْتَهُ مَعْنَى التَّعَاوَنِ بِأَذْلًا
الآن يُنْشِدُكَ الْوَفَاءَ جَمِيلًا
فَاقْبَلْ تَعَاوُنَ حُبِّهِ مَبْذُولًا

^{٨٠} عداها: لم يدركها.

كم مِنْ لِيَالٍ قَدْ سَهَرْتَ لِنَفْعِهِ حَتَّى مَرَضْتَ وَمَا مَرَضْتَ بِخَيْلَا
كَالنَّيْلِ يُعْطِي الْخِصْبَ رَغَمَ رُسُوبِهِ وَكَفَاكَ أَنْ تُرْضِيَ أَبَاكَ «النَّيْلَا»!

* * *

«زفتى!» يفارقك الأبى بروحه إلَّا عَلَيْكَ مُسَاءً وَسَائِلًا
الغرس قبل راحتيه بنضرة والماء أشبع سعيه تقبيلًا
والجو في خطراته أنفاسه تُوجِي لِأَنْفَاسِ الْعُقَاةِ جَلِيلًا
المنقذ الفلاح يعرف أصله هَذَا الثَّرَى وَذَوِيهِ جَيْلًا جَلِيلًا
فيظل يداب كي يزيد شعاعه أَلْقَا، وَكِي يَهَبَ السَّلَامَ ظَلِيلًا

* * *

«عبد الغفور» وأنت جم مواهب كَرَمْتَ فَمَا تَتَلَبَّبُ التَّبَجِيلَا
جاءت نُكْرَمُكَ المآثر حُرَّة قَبْلَ الْوُفُودِ، وَتَلِكْ أْبْلُغُ قَبِيلَا
وكان عمرك نفحة علوية لِلشُّعْرِ فِي زَمَنِ نَرَاهُ عَلِيلَا
فأثار خاطري الكليل، ومن ينل وَحِيًّا كُوْحِيكَ لَنْ يَكُونَ كَلِيلَا
وبعثت شعري كالصبي لأهله فَرَحًا يَعَانِقُ رَاحِلًا وَخَلِيلَا
يا ما أقل الناس مثلك قُدوةً وَمَوْدَعِيكَ الْأَوْفِيَاءَ مَثِيلَا!

الحقول

(خواطر السفر)

أهلاً سريّات الحقول! أعود في شغفي، ويأبى لي القطار لقاء!
ويطير بي هذا البخار كأنما يخشى عليّ الفتنة العمياء!
ما باله يطوي الفراسخ بينما هذا ابتسامك كالشموس أضاء؟
بعث الرجاء بكل زهر فاقع للقطن وضاء غنى ورجاء
والجدول الجاري يصون ثراه أو يستحيل إذا رواه ثراء
والفالحون الزارعون حياله أمراء لو لم يبلغوا الإجراء
وقفوا وقوف الذل عند نضاره يتبادلون الحسرة الخرساء

فَوْقَ الْعُبَابِ

في أُمَّةٍ هَمَّ مَجْدُهَا لَوْ أَنَّهَا
سَادَ الطَّغَامُ بِهَا وَهَانَ عَزِيزُهَا
وَالشَّعْبُ مَا لَمْ يَسْتَعِزَّ بِذَاتِهِ
رَشَدَتْ وَلَمْ تَرْفَعْ بِهَا الْجَبْنَاءَ
وَسَمَا الْبِنَاءِ وَخَانَتِ الْبِنَاءَ
بَاتِ الْغِنَى وَالْفَقْرُ فِيهِ سَوَاءٌ

الأشجار الشريفة

(صورة سريعة)

وَقَفْتُ مُشْرَدَّةً إِزَاءَ «النَّيْلِ»
لَكِنهَا تَلْقَى الْهَجِيرَ عَذَابَهَا
وَقَفْتُ مُشْرَدَّةً كصُورَةِ أَهْلِهَا
وَعُويلُهَا لَفْحُ الْهَجِيرِ، وَذُلُّهَا
و«النَّيْلُ» فِي جَدْوَاهُ غَيْرُ بَخِيلِ
وَالْمَاءُ لَا يَرُوى ظَمَاءَ ذَلِيلِ
مَتَفَرِّقِينَ عَلَى أَسَى وَعُوِيلِ
ظِلُّ مِنَ الْأَغْصَانِ غَيْرُ ظَلِيلِ

فرحة الألوان

(من مشهد فتاة ريفية ذات ملابس زاهية الألوان.)

سِيرِي بِفَرِحَةٍ لَوْنِكِ الْبَرِّاءِ
لَمْ يَبْقَ لِلرِّيفِ الْجَمِيـ
سِيرِي فَأَلْوَانُ الثِّيَا
وَإِذَا حَكَتْ لَوْنَ الدِّمَا
هَذَا كَنُوزٍ لِلْحَيَا
لَمْ يَبْقَ مِنْ سَلْوَى لَهُم
هِيَ إِذَا افْتَقَدَ السُّرُورُ
لِ سِوَى الْأَشْعَةِ لَا الشُّعُورُ
بِ غُرُورِهَا أَشْهَى الْغُرُورُ
ءِ فَأَيُّ قَلْبٍ لَا يَثُورُ؟!
ةِ وَأَهْلِهَا أَهْلُ الْقُبُورِ
إِلَّا التَّوَهُّمُ فِي النُّشُورِ!

الأرز الطائش

(من إحياء السفر من نافذة القطار.)

الأرزُ مَاجَ على الحقولِ
مترنبًا مترنبًا
في خُضرةٍ مصفرةٍ
ونِضارةٍ ذهبيةٍ
يُرَوَى وَيُرَوَى وهو لا
ظمًا الحياةَ إلى الحياةِ
متصوِّفًا وهو الجميـ
متلهفًا متضاربًا
والأرضُ تَأبَى طَيْشَهُ
فكأنه قلقُ المَلولِ
وكأنما الماءُ الشَّمولِ
فاللونُ شمسٌ لا تحولُ
جُمِعَتْ لتُنشَرَ في الأصيلِ
يُرَوَى من الظمِّ المَهولِ
وليس من ظمِّ الحقولِ
لُ بكلِّ مجهولِ جميلِ
متطلعًا للمستحيلِ
وتردُّه ردُّ البخيلِ!

بنات الشفق

(نظمت عند شاطئ استانبول.)

لبسنَ الجمالِ جمالَ الشَّفَقِ
وسرَّنَ على خطراتِ النسيمِ
عرايا تَصَوِّفَنَ بينَ الفنونِ
تَخْطِرَنَّ في صُورٍ من حنانِ
وأرسلنَ في كلِّ قلبِ حياةٍ
تَشْبَعُتْ من سحرِها العبقريِّ
فأنشَقُ أنفاسَ هذه الحياةِ
وأعيدُ أعضاءهنَّ الغوالي
تموِّجَنَ في روعةٍ للجمالِ
وفي سُمْرَةٍ من معاني الخُمورِ
ووزَّعَنَ أحلامه في الغسقِ
فأفعمنه بالهوى والعبقِ
وأشعلنها في النهى والحدقِ
تشرَّبها الموجُ بعدَ الأفقِ
وهذي حياةٌ تحاكي العرقِ
وأكذبه في فتونِ صدقِ
ويملاً روجي هذا الألقِ
كأنِّي أعبدُ ربَّ الفلقِ
وفي لهفةٍ للأماني أدقِ
وفي حُمْرَةٍ من معاني الشَّفَقِ

فَوْقَ الْعُبَابِ

وفي جرأةٍ للجمالِ العزيزِ
تواءمَ في كلِّ أجزاءِه
نتابعُه بعميقِ الخشوعِ
ونعبدُه في حنينٍ يثورُ
وفي لثماتٍ لنا في احتجابِ
فيا مَعْبَدَ البحرِ عِشْ للجمالِ
كأنا نقدِّسُه من فَرَقِ
وإنْ ثارَ بين الورىِ وافترقُ
ونغنم منه الهوى والأرقُ
وفي شعرِ قلبٍ شجِيٍّ حَفَقُ
تَراءى النسيمُ بها أو نطقُ
وعِشْ للغرامِ وِصْنُ مَنْ عَشِقُ!

الراقصة ببا

(سونينة)

يا «ببا» يا «ببا»
يا مُتَعِ الهوى
نهايةُ الغنى
يا رقصَةً حوتُ
يا فِتْنِ الصِّبَا
يا نُخْبَ المنى
سناك لا الغنى
ما عالمُ أبى
للوعةِ الصِّبَا!

إلى ناقد الجمال

(مهداة إلى الصديق الأديب حسن بهجت.)

يا ناقدَ الحسنِ الأصيلِ وما له
أمنتُ بالذوقِ الذي أبدعتهُ
هاتِ الحديثَ عن الجمالِ فإنني
وَصِفِ العيونَ لنا وما حَبَّبَتْهُ
وَصِفِ الجوارحَ كُلَّها في قُدْرَةٍ
وَصِفِ الخوالجَ والعواطفَ والمنى
رَدُّ لَأَحْكامٍ ولا لَغرامِ
من خالصِ الإلهامِ للإلهامِ
لحديثكِ الفنيِّ أشوقُ ظامي
من كلِّ مَعْنَى فاتكِ بِسَّامِ
وَصِفِ الهوى والخالقِ الرِّسَامِ
واليأسِ في الرقصاتِ والأنغامِ

وجميع ما تختاره وتُعزّه
صِفْ ناقداً ومحلاً فلربما
ونماذج الأشواق والأحلام
أشبعَت بالأوصافِ كلَّ غرام!

قصائد الحقول

مُبدعاتُ فيها الرويُّ من الما
والنبتُ السَّريُّ والناسُ والحَزْ
أتملَّى الذي تَمَنَّى فيها
ليت شعري: ألك من مهجة الإند
ذاك شعراً الحياة أفاظه الحُلْ
وهو بعض من عالم كل ما فيد
ء تلاً على الحفافي الحسان
تُ وشتى الحياة بعض المعاني
كتملي الفنَّان للفنَّان
سان شاقَت أم مهجة الديان؟!
قُ وأحداثه فنون البيان
ه أناشيدُ شاعرٍ فتان!

تصوُّف الطبيعة

تصوِّفَتْ في فصولِ العامِ أجمعها
ففي الربيعِ معانٍ من تيقظها
ويجمعُ الصَّيفُ ألواناً تُعذبُّها
حين الخريفُ صلاةً كلُّها لهفُ
بينما الشتاءُ صيامٌ، في تجرُّده
أبهى التصوُّفِ، أسماها وأغناها!

* * *

كلُّ الفصولِ جمالٌ في تصوُّفها
رأيتها مثل «سافو» في ملاحظتها
في زهوها الحلو أو في لَفح غضبتها
هي الجمالُ بألوانٍ منوَّعةٍ
لو أننا قد عرفنا بعض معانها
يبوح بالشعر للأحياء مرآها
أو عند ثورتها أو عند سُكناها
وحسبنا من مجاليه محيَّها!

المرآة العميقة

كثيراً ما يقف الشاعر في الصباح الباكر عند ترعة المطرية ينتظر السيارة بينما يقرأ في الماء أمثال هذه المعاني.



المرآة العميقة: ترعة المطرية (من تصوير الفنان إسماعيل حافظ).

أرعى شة الماء هذي
وحضرة الماء هذي
تقيم فيه المرآئي
غنى لراء ورائي
قد مسها الحب حتى
فلست أعرف نعتاً
قرأت فيها المعاني
وكل معنى أمامي
عواطف للغدير؟
رمز لروح قرير؟
حلى لغير انتهاء
في الأرض أو في السماء!
صفت صفاء الحنين
لها يحاكي حنيني
من السماء تطل
يجل عمًا يجل

لكن أحسُّ برُوحِي
كأنما الماءُ يُوحِي
ماذا تحجَّبَ فيه
حتى على عاشقيه
يا ماءً كم فيك مَعْنَى
أحسُّه وهو يَحْفَى
فيها المرآئي الخفيَّة
رسالة العبقريَّة
وطبَّعه أن يبوح؟
يُخفي سُعورَ الصريحِ
شأى المعاني العميقة
كما تُحسُّ الحقيقة

ذكرى ميت غمر

إن أنس ليلة Bella Vesta^{٨١} حينما
هيهات أنسى رحلتي وتمتعي
سرنا إزاء الماءِ نطوي جسره
فنصون في أسماعنا تسألَه
والليل كالصبِّ الكتوم فسره
وكلاهما متمازجٌ متماثلٌ
سرنا ووحى الليل يشملنا هدى
وطويلُ أشرعةِ الزوارقِ بينما
والماءُ في الرياح^{٨٢} ملءٌ سكونه
تخذُ الحقولُ جواره ندماءه
ونرى مصابيحَ الزوارقِ حالها
المالchon حيالها في فرجة
حتى أتينا «ميت غمر»، دليلنا
دنيا عواطفها انتظمنَ حدائقًا

لأقى الصباحِ الليلَ بين يدينا
في الليلِ عندك لا أبالي الأينا!
والماءُ في عجبٍ يسائلُ عنا!
ونمرُّ نخطفُ منه مَعْنَى مَعْنَى!
بادٍ وخافٍ: في دجى وشعاعِ
إلا على الفنَّانِ والإبداعِ
ووساوسُ العرْسِ الحفيِّ الراني
هُزَّتْ من النسَماتِ والألحانِ
قلقٌ وعطفٌ في سماتِ الشاعرِ
وتخذُنه رمزًا لربِّ قاهرِ
حالُ الطفولةِ في التَّوتُّبِ نورها
بشعورها وغناؤهم تصويرها
نسماتها وعبيرها وضيائها
وترفُّ في صُحفِ المياهِ سماؤها

^{٨١} بلافتا: من ملاهي الإسكندرية.

^{٨٢} الرياح التوفيقى، وقد صحبه الشاعر بالسيارة ليلاً من بنها إلى ميت غمر.

وَحَنِيَّةُ الْقُصْبَاءِ تَحَسَّبُ عِنْدَهَا
وَالنَّيْلُ فِي رَوْعِ التَّقِيِّ نَسِيمُهُ
وَلَقَدْ جَلَسْتُ إِلَى صَبَاحَةِ رَفْقَةٍ
فَبِكَلِّ لَفِظٍ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ غَنَى
حَتَّى نَسِيْتُ الْوَقْتَ كَيْفَ أَعَدُّهُ
رَبَطَ الْهَوَى بَيْنَ الْقُلُوبِ فَكُلُّ مَا
وَأَتَى النَّهَارُ وَكَمْ حَمَمَتُهُ أَطَايِبُ
وَالنَّيْلُ يَدْعُونَا فَنَقْبِلُ جُودَهُ
فَرَحْتُ بِنَا فَرَحَ الْكَرِيمِ بَضِيفِهِ
وَكَأَنَّهُ شَعْرُ الْحَنَانِ مَرْحَبًا

هَمْسًا وَتَلْمُحٌ فِي الْمَخَابِيءِ «مُوسَى»
وَكَأَنَّمَا أُسْرَى النِّسَائِمُ «عَيْسَى»
جَعَلُوا الْمَسَاءَ مَنْوَرًا مَأْثُورًا
كَالنُّورِ، وَالْإِنْسَانُ بَزَّ النُّورَا
بَعْضَ الْوُجُودِ وَنَحْنُ لَا نَرْضَاهُ؟
عَادَى الْهَوَى نَنْسَاهُ أَوْ نَأْبَاهُ
عَنَى بِهَا الْمَجْدَافُ وَالْمَلَّاحُ
وَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ أَفْرَاحُ
وَتَأَلَّقَ الزَّبْدُ الْوَضِيءُ عَلَيْهَا
وَكَأَنَّمَا كُنَّا نَحِجُّ إِلَيْهَا!

في حمى الهدير

(جلسة في حديقة دهتورة عند قناطر زفتى.)

ها هنا في حمى الهدير
نُطْلِقُ الشَّعْرَ وَالشَّعُورُ
ووثبة الموجِ ثائرا
ونجعل الروضَ شاعرا!

* * *

ها هنا والعشبُ جَمُّ الظلالِ
فلا نرى إلا معاني الجمالِ
والنيلُ يجري في ابتهاجٍ عجيبِ
يجري كما يجري الشُّرُودُ الْغَرِيبِ
بَعَثِرِ الْمَوْجِ وَسِرِّ سَيْرِ مَاءِ
ما أروعَ الحمرةَ مثلَ الدَّمَاءِ
يا راويا تَهْدَارُهُ مَا رَوَى
إِنْ يُحْجِزِ الْمَاءُ فَفَيْكَ انطوى
يا نيلُ حُرٌّ أَنْتَ مَهْمَا سَعَوْا

نَسَائِلُ الرِّبْوَةِ عَنْ حُلْمِهَا
تَهْفُو مِنْ الْأَرْضِ إِلَى أُمَّهَا
ورعشةُ النُّورِ عَلَى صَدْرِهِ
فِي سَكْرَةِ الْجَارِي إِلَى قَبْرِهِ
يا نيلُ! لَكِنْ قَفْ بِرُوحِ الْحَبِيبِ
فِي هَذِهِ اللَّهْفَةِ بَيْنَ الْقُلُوبِ
مِنْ سِيرَةِ النَّاسِ وَسَيْرِ الْعَصُورِ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْرَارِ وَحَيِّ الْأَثِيرِ
فِي حِجْزِكَ الْيَوْمَ فَأَنْتَ الْأَبِي

تفيض بالحب لمن قد رعوا
وهذه الأشجار مثلي لها
وهذه الخضرة في سمعها
رويتها بالصوت أو بالمنى
والراحل الماضي - كن قد مضى -
عهدك الحرة فيض العتي
في نظرة نحوك نجوى الحنان
من صوتك الداوي معاني الأمان
من قبل ماء عسجدي منير
قلبي، فهل يعنى بهذا الهدير؟

* * *

ها هنا في جمى الهدير
نطلق الشعر والشعور
ووثبة الموج ثائرا
ونجعل الروض شاعرا!

الصنوبر الكاذب

(في حديقة دهتورة عند قناطر زفتى.)

عُدْ يا غرابُ إليّ! عُدْ! لا تحسني!
هذا الصنوبر كاذبٌ في وهمهم
أخشيتني وخشيتهُ أم أن ما
وأنا القنوعُ وأمة الغربان
عُدْ يا غرابُ! فللصنوبرِ دعوةٌ
ماذا أبيتَ صداقةَ الإنسانِ
كلُّ الحنانِ لديّ لو حادثتني
أترك أنتَ مثيلهم في فهمهم؟
تهواه أنتَ من الملاحه قد سما
في ذوقها جازتْ مدى الفنّان؟
مثلي وللغرسِ المهفهفِ لفتةٌ
فانظر إلى الشجرِ الصديقِ الحاني!

زفتى في المساء

(لمحة من شاطئ ميت غمر.)

ألقُ على «النيل» المغازلِ ضوئها
لكنّما يحيا على تحنانه
وتلوحُ أخیلة الضياءِ غرائباً
والضوءُ فوق حنانه مبهورُ
وسواه في الماءِ العتي يموتُ
فيهنَّ «أوزيريس» والتابوتُ

و«النيل» حيٌّ كائنٌ فشرايُهُ
أرسلتُ أحلامي إليه سوائلاً
في الذكرياتِ وفي الأشعةِ قوتُ
فرجعنَ لي شعراً عليه حبيبتُ!

رثاء هندنبرج

(توفي زعيم الأمة الألمانية وقائدها الأعلى في الثاني من أغسطس سنة ١٩٣٤).

يا شهيداً في «تنبرج» أفاء^{٨٢}
عشتَ للشعبِ ومتمَّ المرتجى
ليس مَنْ يمضي شهيداً في الوغى
ليس مَنْ يحفظ حقَّ الأقوياءِ
نَمْ هنيئاً أيها الشيخُ الذي
نَمْ هنيئاً! ذاك حقُّ نلتَه
واسعَ الحيلةِ منقضاً بها
نَمْ هنيئاً إنْ يكُ الموتُ وغي
نَمْ بتُرْبٍ ناضرٍ قدَّستَه
كلُّ شبرٍ منه نكرٌ رائعٌ
ضمَّختَه عزَّةٌ روحيةٌ
شرفُ الأوطانِ مِنْ عُنصرها
حينما حاصرتْ جيشاً مُزبداً
حينما غطَّى البحيراتِ اللظى
والعدُوُّ الضَّخْمُ في مصيدةِ
لم يجدْ في الأرضِ أذنى مَهْرِبٍ
وهوى في الأُسْر لا عن ضلَّةِ

هكذا المجدُ ووَحيُ الشُّهداءِ!
بازلَ النَّفْسِ شُعباً ومضاً
فوقَ مَنْ يمضي شهيداً في البناءِ
مثلَ مَنْ يُرجعُ حقَّ الضعفاءِ
جددَ الشعبِ شباباً ودماءً
بالخطيرِ النَّصرِ بدءاً وانتهاءً
فإذا الباغِي هباءً في هباءِ
فخلودُ الذكرِ حربٌ للفناءِ
بالضحايا البسلاءِ السُّعداءِ
ومعانٍ مِنْ تَفانٍ وفداءِ
ودماءٍ قَدْرُها فوقَ الدِّماءِ
وإباءِ الضَّئيمِ في يومِ الإباءِ
بين نارينِ لأجنادٍ وماءِ
وتراءى شُعلةً نفسُ الهواءِ
فاتتِ اليأسَ ولم تَعُدْ الرجاءِ
وتنأَتْ عنه أسبابُ السَّماءِ
أو غَبَاءِ، وهو في أسْرِ الذكاءِ

^{٨٢} أفاء: رجع، وتنبرج هي القرية التي دفن فيها الفقيه والتي كانت أصل شهرته إذ تركز فيها القتال بين الروس والألمان في بروسيا الشرقية.

قُوَّةٌ فَوْقَ الْقَوَى وَالْأَقْوِيَاءِ إِنَّمَا صَادَتْهُ مِنْ أَحْلَامِهِ
عِنْدَمَا أَحْدَقَ بِالشَّعْبِ الْبَلَاءُ قُوَّةٌ الْإِخْلَاصِ فِي تَضْحِيهِ
مِنْ تَعَارِيفِ التَّفَانِي وَالْفِدَاءِ! قُوَّةٌ تَعْرِيفُهَا أَسْمَى مَدَى

* * *

هكذا المجدُ ووَحيُ الشُّهداءِ! يا دفينًا في «تَنْبَرَجٍ» أفاء
يملأُ الرُّعْبُ لذكراهِ الفِضَاءُ بَطْلُ الْحَرْبِ جَرِيئًا فَاتِحًا
يجعلُ التَّسْلِيمَ كَالْفَتْحِ سِوَاءُ وَالْأَجَلُ الشَّهْمُ فِي كَسْرَتِهِ
وَيَصُونُ الشَّعْبَ صَوْنُ الْأَمْنَاءِ شَامِخُ الرَّأْسِ يُفَدِّي تَاجَهُ
وعديمُ المِثْلِ في يومِ الوفاءِ يا عَظِيمَ الْخُلُقِ سَلْمًا وَوَعَى
أو بِقَرْبَانٍ لِحَبِّ وَوَفَاءِ لَمْ يُغَالِ الشَّعْبُ فِي تَكْرِمَةِ
هي أسمى مِنْ بَرُوجِ وِبْنَاءِ؟^{٨٤} كَيْفَ وَالنَّفْسُ الَّتِي بَدَّدَتْهَا
بِسُكُونِ الدَّهْرِ مِنْ بَعْدِ الْقَضَاءِ نَعَشُكَ الْهَادِي مَا أَشْبَهَهُ
نَاطِقُ قَبْلِ الْبَرَايَا بِالثَّنَاءِ حَاطَهُ مِنْ كُلِّ ذَكَرٍ أَثْرُ
حَرَمِ الْخَلْدِ وَمِحْرَابِ الْبِقَاءِ دَائِمُ الرِّهْبَةِ مِنْ شَخْصِكَ فِي
وَكَانَ الْحَبُّ هَالَاتُ الضِّيَاءِ! دَائِمُ الرُّوعَةِ فِي تَقْدِيسِهِ

* * *

هكذا المجدُ ووَحيُ الشُّهداءِ! يا دفينًا في «تَنْبَرَجٍ» أفاء
مِنْ وَفَاءٍ، وَلِكِ الْحَيِّ النَّدَاءِ لَكَ فِي الْمَوْتِ الَّذِي كُنْتَ تَشَاءُ
لشُعوبِ الْأَرْضِ نُورًا يُسْتَضَاءُ وَلَكَ الْمَجْدُ الَّذِي أَطْلَعْتَهُ
أَهْلُهُ إِلَّا بِبَطْشِ أَوْ رِيَاءِ مُعْجَزُ الْقَرْنِ الَّذِي لَمْ يَحْتَفَلْ
بِالعَظِيمِ الْخُلُقِ حَيِّ الْكِبْرِيَاءِ جِئْتَهُ الْمُنْقَذَ مِنْ أَدْوَائِهِ
هذه العِزَّةُ فِي يَوْمِ الْعِزَاءِ آه! مَنْ لِي أَنْ أَرَى فِي وَطَنِي
حَرَّمَ الذُّلَّ بِهِ حَتَّى الْبِكْءِ نَحْنُ صَرَعَى مَاتِمٍ فِي مَاتِمٍ
رَافِعُ الْهَامَةِ مُحْسُودُ اللِّوَاءِ بَيْنَمَا شَعْبُكَ فِي لَوْعَتِهِ

^{٨٤} إشارة إلى النصب التذكاري العظيم في تنبرج وإلى بروج الثمانية.

ما زعيمٌ أنجبته أُمَّةٌ مثلَ مَنْ أنجبَ فيها الزُّعماءُ
إيه «هندنبرج»! هذي غايةٌ عَظُمُ الموتِ وَوَحْيُ العِظَماءُ

إلواز وأبييلارد Héloise & Abélard (قصة الحب الخالد)^{٨٥}

كان «أبييلارد» من أشهر فلاسفة المسيحية في القرن الثاني عشر للميلاد، وبلغ مركز أسقف كنيسة «نوتردام دي باري» في شبابه بفضل معارفه وذكائه الخارق، كما كان معلماً محبوباً ساحراً، فانتخب معلماً للآنسة الحسناء «إلواز» قريبة الأسقف «فلبير» ومن ثمة بدأ الحبُّ ينشأ بين «أبييلارد» و«إلواز» Heloise & Abelard حتى بلغ غاية العشق والشهوة، ففصلَ بينهما ونال «أبييلارد» من التعدي الوحشي عليه ما ناله بإغراء «فلبير» ... وأخيراً صار «أبييلارد» راهباً كما ترهبت «إلواز» وعانى «أبييلارد» الكثير من الاضطهاد ومات شقياً، وعاشت «إلواز» بعده سنين في عذاب الحب الغبين. وبعد وفاتها بزمن جمع الأبرار رفاتها برأ بذكراهما في مدفن واحد، وهما الآن مدفونان بمقابر «بير لاشيز» ببباريس.

أَيُّ مَعْنَى مِنَ الْجَمَالِ أَيُّ مَعْنَى مِنَ الْهَوَى
لَمْ يَخَافَا مِنَ الْمُحَالِ حِينَ خَافَا مِنَ النَّوَى
فِي نَعِيمٍ مِنَ الْأَلَمِ
وَحَيَاةٍ مِنَ الْعَدَمِ؟!
نَشَدَا جَوْهَرَ الْحَيَاةِ فَإِذَا الْحُبُّ صَائِنُهُ
نَشَدَاهُ بِلَا انْتِبَاهِ حِينَ نَادَتْ مَفَاتِنُهُ
نَافَذَاتٍ إِلَى الصَّمَمِ
دَافِقَاتٍ مِنَ النَّعْمِ!
مَا رَعَى الْحُبُّ فَيْلسُوفُ إِنَّ لِلْحُبِّ دِينَهُ

^{٨٥} تجد تفاصيل هذه القصة في كتاب Personality تأليف ماجوري بارستو جرينبسي، ص ١٣٤.

لا ولا العالمَ السَّخِيفُ وهو يُرْضِي جُنُونَهُ
بَلْ دَعَا الحُبُّ عَابِدِيَهُ
دَعْوَةَ الخَالِقِ النَّزِيَهُ
قد هَوَى الأَسْقَفُ العَظِيمُ فَتَسَامَى وَقَد هَوَى
إِيهِ «إِلْوَاژُ»! هلْ غَرِيمٌ مُرْشِدٌ ضَلَّ مَا ارْغَوَى
وضلالُ الهوى هُدَى
وهُدَى غيرِهِ سُدَى؟!
كُنْتُ تَلْمِيزَةَ العُلُومِ ثمَّ أَسْتَاذَةَ الغَرَامِ
فَتَسَاقَيْتُمَا النِّعِيمَ وَتَنَاسَيْتُمَا الأَنَامَ
فِي وُجُودِ حَوَاكِمَا
لَمْ يَنْلُهُ سِوَاكِمَا!
ثُرْتُمَا ثَوْرَةَ الغَرَامِ وَأَتَى بَعْدَهَا اللَّهَبُ
لَمْ تَخَافَا مِنَ الحَرَامِ هلْ حَرَامٌ لِمَنْ أَحَبُّ؟
وَأَبَى الدَّهْرُ مَا أَبَى
مِنْ وِصَالٍ وَمِنْ صَبَا
فَإِذَا الحَرْبُ مُعْلَنَةٌ وَيَلُ حَرْبٌ لِعَاشِقَيْنِ
لَيْسَ لِلدَّهْرِ مِنْ سِنَةٍ عَنِ حَبِيبَيْنِ صَادِقَيْنِ
سُنَّةُ الدَّهْرِ دَائِمًا
سَادَ فِي الحُبِّ ظَالِمًا!
أَيُّهَا الدَّيْرُ مَرْحَبًا إِنَّ غَدَا الحُبِّ كَالشَّرِيدِ
مَلَجًا الحُبِّ إِنَّ أَبَى عَالَمِ الأَسْرِ وَالعَبِيدِ
عِرَّةُ الحُبِّ فِي الذُّرَى
وَهُوَ مَنْ أَلْهَمَ الوَرَى!
فُرَّقَا بَعْدَ نِعْمَةٍ فِي وِصَالٍ هُوَ الحَيَاةُ
فَتَدَاوَى بِنِقْمَةٍ وَالتَدَاوَى مِنَ المِمَاتِ
فِي اعْتِزَالٍ كِلَاهِمَا
نَالَ مَا نَالَ مِنْهُمَا

فَوْقَ الْعُبَابِ

وَعَدَتْ قَسْوَةَ الْأَنَامِ وَعَدَتْ قَسْوَةَ الزَّمَنِ
و«أبيلارد» فِي الرِّغَامِ حِينَ «إِلْوَارُ» فِي الْمِحَنِ
وَإِذَا الْمَوْتُ رَاحِمٌ
وَإِذَا الْمَوْتُ ظَالِمٌ!
مَاتَ وَالْمَوْتُ فِي الْعَذَابِ فِي اضْطِهَادٍ عَلَى اضْطِهَادٍ
شَابَهُ الْوَصَلَ لَا الْعِقَابُ إِنْ يَصْنُ ذِكْرُهُ الْوِدَادُ
فَإِذَا الْمَوْتُ مَغْنَمُهُ
وَإِذَا الْعَيْشُ مَأْتَمُهُ!
وَمَضَتْ بَعْدَهُ السُّنُونُ فِي حِمَاها نَشِيدُهُ
حِينَ «إِلْوَارُ» فِي جُنُونٍ دَائِمًا تَسْتَعِيدُهُ
مَنْ أَنَاشِيدَ لِلنَّهْرِ
فِي حَنَانٍ مِنَ الْقَمْرِ!
وَإِذَا الْمَوْتُ مُشْفِقًا جَاءَهَا بَعْدَ قَائِدًا
مَا رَأَتْهُ مُنَافِقًا أَوْ رَأَتْهُ مَعَانِدًا
هُوَ أَصْفَى مِنَ الْبَشَرِ
هُوَ أَحْنَى مِنَ الْقَدَرِ!
فَإِذَا الْحُبُّ فِي الثَّرَى قِصَّةٌ جِدُّ خَالِدَةٌ
قَدْ عَرَاهُ الَّذِي عَرَى وَثَوَى الْحَسَنُ عَابِدَةٌ
رَغْمَ دُنْيَا مَعَانِدَةٌ
بَقِيَا وَهِيَ بَائِدَةٌ!
رَقْدًا رَغْمَ فَرَقَةٍ رَقْدَةَ الْمَوْتِ فِي حَنَانٍ
حِقْبَةً بَعْدَ حِقْبَةٍ فَإِذَا الْمُدْنِبُ الزَّمَانُ
يُنْصِفُ الْحُسْنَ وَالْهَوَى
مِثْلَ مَنْ تَابَ أَوْ هَوَى!
وَإِذَا طَاهَرُ الرُّفَاتِ يُجْمَعُ الْآنَ فِي الْمِمَاتِ
بَعْدَ أَنْ ذَاقَ فِي الْحَيَاةِ كُلَّ لَوْنٍ مِنَ الشَّتَاتِ
ذَاكَ قَبْرٌ مُقَدَّسٌ

كُلُّ ما فيه يُحْرَسُ!
رَقْدًا الآنَ في وصالٍ رَقْدَةَ الحَبِّ والجمالِ
واستباحًا مِنَ المحالِ كَلَّ غَالٍ وكَلَّ غَالٍ
ثُمَّ نالا مِنَ الدُّمُوعِ
كَلَّ شِعْرًا لَنَا يَضُوعُ!

نصير العمال

(إلى الشريف عباس حليم في سجنه.)

مهما اضْطُهِدْتَ فثِقْ بأنك غايَةٌ
عَادُوكَ للشرفِ الرَّفِيعِ وإِنَّمَا
يا خادِمَ العمالِ حَسْبُكَ رُتْبَةٌ
بِئْسَ السياسةُ! بِئْسَ! كيفَ تَعِيبُ ما
إِنْ حَرَمْتَ لِقَبَ «النبيلِ» فَإِنَّمَا
أو أودعوكَ السجْنَ فهو مَثابَةٌ
ولسوفَ تَرَفَعُ رَأْسُكَ العالِي غدا
هذي الجنايَةُ مِنْ تَفَرُّقِ أُمَّةٍ
ما ضُرُّهم لو ناصروا «الوفد» الذي
ما ضُرُّهم؟ وهل التفرُّقُ والهوى
بِئْسَ السياسةُ! تَقْتُلُ الخَيْرَ الذي

للحَبِّ، لا لإساءَةِ الأعداءِ
هو وحده الباقي على الأتواءِ
في الناسِ هذا البرُّ بالضعفاءِ
أولى به الإكرامُ في الكرماءِ؟!
أنتَ العَظيمُ النبلُ في النبلاءِ
مِنْ وصمةِ الجبروتِ للشرفاءِ
في حينِ تَحْفَظُ رَأْسُ «الرؤساءِ»
شَقِيتَ مَرافِقُها مِنَ الزُّعماءِ
ما زالَ مَطْلَعُ عِزَّةٍ ورجاءِ؟
إِلَّا مَهاوي الذَّلِّ دونَ مرءِ؟
يُحيي الإخاءَ، فماتَ كُلُّ إخاءِ!

نور الشمس

تناولته الإعجازَ من صنَعِ خالقي
تَفَجَّرَ منها كالينابيعِ دافقاً^{٨٧}
وأفعمنا: لم نَدْرِ هل هو طاقةٌ
يُقْبَلُّنا في الصُّبْحِ تقبيلَ وامقٍ
ويضربنا في لُفْحَةِ الظهرِ جانِباً
وهل كان نُورُ الشمسِ مُراً وسائِغاً
ألم يكُ بَعْضُ الشمسِ منذ دقائقِ؟!^{٨٦}
وفاض بموجِ كالعواطفِ خافقٍ
تسيلُ أم الدَّرَاتُ من سهمِ راشقٍ؟^{٨٨}
وعند غروبِ الشمسِ في رَوْعِ عاشقٍ
كأنَّا تلقينا أراجيفَ حانقٍ
سوى جوهِرِ الدُّنيا ورمزِ الحقائقِ؟

قطار الفن

(خواطر شعرية نظمها صاحب الديوان في قطار البحر يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٤)
وقد نعته بقطار الفن لما فيه من نماذج الجمال الكثيرة وأهل الفن وكان في صحبته
الشاعران الدكتور زكي مبارك وعبد العزيز عتيق.)

سِرِّ يا قطارُ مجازفًا ومُغامرا
حملتِ ألوانَ الجمالِ، ومَنْ يَنْلُ
هذي الحقولُ تلقَّتْ لك بغتةً
يرقصنَ في وهجِ الأشعةِ مثلما
أو طِرْ فحظك أن تكون الطائر^{٨٩}
ما قد حَمَلتَ يَطيِرُ جريئًا قادرا
متعجباتِ كالسحابِ شواعرا
ماج الهواءِ عواطفًا وخواطرا

^{٨٦} تبلغنا أشعة الشمس بعد فراقها في نحو ثماني دقائق، وقد كانت قبل ذلك جزءاً من كتلة الشمس، فهي تحمل معها شيئاً من تلك الكتلة.

^{٨٧} تشع الشمس من مادتها يومياً ما متوسطه ٣٦٠ ألف مليون طن.

^{٨٨} إشارة إلى الخلاف بين العلماء في دراسة الأشعة: أهي طاقة وحدتها «كم» أم هي «مادة» وحدتها «ذرة» أم هي جامعة للصفتين؟

^{٨٩} من عادة قطار البحر أن لا يقف إلا في محطة من المحطات بين القاهرة والإسكندرية وأن يسير بسرعة فائقة.

وتمرُّ بالشَّجَرِ الذي في وثبه
والنيلُ تعبرُهُ كعبرِ عواطفي
قد جاءَ بالفيضِ الكريمِ مبكِّراً
وكأنما مصرُ الشقية في الأسي
مُتلاطمَ الأمواجِ، مُشتعلَ الهوى
والنخلُ تروي ما يُثير شجونَه
والأرزُ زاهي اللّونِ، لكنْ زهوهُ
وتدلَّتِ الصفصافُ حين شعورُها
والجدولُ الآسي يئنُّ لفقدِها
صُورُ الحياةِ الصامتاتُ، وكلُّها
وخطفن من وحي الجمالِ مُصاحبي
سرِّ يا قطارُ ولا تقف! ما وقفةُ
سرِّ يا قطارُ إلى الشواطئ فاتحاً
قد صرتَ بالفنِّ الجميلِ مقدِّساً

وهو الأسيرُ نَرَى المقيدَ أسرا
بحرَ الحياةِ وقد تَمَرَّدَ زاخرا
وكأنما قد خاض حرباً ظافرا
والبؤسُ قد ناحتُ فعجَّلَ باكراً^{٩٠}
متوثباً، متجمعاً، متطائرا
فترى المياةَ الداميات ثائرا
كممثِّل طربٍ يهزُّ السامرا
في الماءِ غرقى تستثير الشعرا
وكأنما لم يأتِ ذنباً غادرا
عبَّرنَ أفئدةً وكنَّ مشاعرا
والنورُ كم سرقَ الملاحَةَ ساحرا
لكَ حين تحملُ للحياةِ نخائراً؟!
واحِمِ الجمالِ العبقريِّ الثائرا
وغدوتَ بالحسنِ المقدِّسِ قاهرا

حرب الشاطئ

(استيحاء شاطئ استانلي)

أوماً لهذي الحربِ مِنْ آخر؟
أوماً سمعتَ الصخرَ في فرَقِ
أوماً رأيتَ الرملَ منصرماً
هذي جنودك في تدفُّقِها
جَرَحَى العناءِ دِماؤها زَبْدُ

يا عابثاً بالشطِّ! يا ساخر!
مستسلماً كالفارسِ العائر؟
مثل الأسارى في يدِ القاهر؟
جيشان مكسورٌ على كاسر
لا يستقرُّ وجرحُها غائرُ

^{٩٠} وافي فيض النيل في هذا العام مبكراً.

فَوْقَ الْعُبَابِ

تَتَرَى صَفُوفًا فِي حِمَاةِهَا
وَتَخَالِطُ فَكَأَنَّهَا فِرْقُ
وَالشَّمْسُ تُرْسِلُ مِنْ أَشْعَتِهَا
فَنَرَى اللَّهَيْبَ عَلَى الْمِيَاهِ جَرَى
وَالسُّحْبُ فِي جَزَعِ تِرَاقِبِهَا
وَالنَّاسُ بَيْنَ الْمَوْجِ فِي مَرَجٍ
وَالْحَسَنُ عَنِ نَجْوَاهِ فِي شُغْلٍ
طَافَتْ نَمَاذِجُهُ فَمَا تَرَكَتْ
وَتَجَرَّدَتْ مِنْ كُلِّ مَلْبَسِهَا
يَا بَحْرُ! يَا مَرَأَى الْحَيَاةِ وَيَا
تَكْبُو وَمِنْهَا الصَّاحِبُ الثَّائِرُ
مَهْرُومُهَا فِي حَلْبَةِ الظَّافِرُ
حَرْبًا عَلَى إِقْدَامِهَا الْجَائِرُ
جَرَى الْأَسَى فِي ثَوْرَةِ الْخَاطِرُ
فَكَأَنَّهَا مَرَأَى لَهَا طَائِرُ
لَا يَشْعُرُونَ بِرُوحِهِ الْحَائِرُ
فَحُرُوبُهُ كُوفَائِهِ الْغَادِرُ
إِلَّا فُؤَادًا فِي الْهَوَى صَاغِرُ
إِلَّا مَلَابِسَ رُوحِهَا السَّاحِرُ
حَرَبَ الْحَيَاةِ حَيِيَّتَ لِلشَّاعِرُ!

المهلهلة

هَلْهَلْتِ مَلْبَسِكِ الْجَمِيلِ كَأَنَّمَا
كَتَفَاكِ قَدِ عَرِيًّا كَأَنَّ مَوْكَلًا
فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكِ ثَارَتْ رَحْمَتِي
وَفُتِنْتُ بِالْحَسَنِ الَّذِي أَبْدَعْتَهُ
هُوَ مَلْبَسُ الْمَأْسُورَةِ الْمُتَوَجِّعَةِ
بِالْأَسْرِ مَزَّقَ مَا لَبَسَتْ وَمَزَعَهُ
وَمَحَبَّتِي وَغَدْتُ بِحَسَنِكَ مَوْدِعَهُ
فِي زِيٍّ عَرِيْبٍ يَقْدَسُ مُبْدِعَهُ!

الراية السوداء

رَفِيٌّ عَلَى الشَّاطِئِ فِي تَحْذِيرٍ مَنْ أُمُوا الْمِيَاهُ
رَفِيٌّ وَإِنْ كَانَ احْتِشَادُ الْمَوْجِ يَكْفِي رُوعَةً
أَمَّا عَلَى الشَّاطِئِ وَالْحَبُّ عَتِيٌّ كَالْعُتَاهُ
مَنْ ذَا يَصُونَ النَّاسَ مِنْ بَلْوَى مَدَاهُ سَاعَةً؟

* * *

طاحت بنا أمواجه تطغى كما يطغى الخضم
وتتابعت منّا ضحاياهُ فهانت كالرمال
بحرٌ ولكن عُمره عُمرُ العواطف والأمم
قد بزّ في إيغاله الجبار آيات الخيال!

المسافر

أطل وجه القمر	من بين جون السحاب
لمؤمن في سفر	كأنهنّ الصّعب
ولا تُبال الصّعب	سرّ يا ملاك السماء
وإنّ تسرّ في عذاب	ففيك رُوح الرجاء
رجع الهوى من قلوب	ما نورك الحيّ إلا
كما تراعى الحبيب	ترعاك نورًا وظلًا
وكنّ لنا بلّسما	فسرّ ولا تبتئس
لو لم يُناج السما	فكلنا قد يئس

فيضان النهر المقدس

(نظمت عند «كازينو الحمام» بالجيزة في أصيل يوم ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٤.)

حَرَبٌ على الأحابِ والألاف!	«النيل» — يا للنيل وهو موافٍ
وقضى على الشطّ الودود العافي	أوفى على الجُزرِ الغريقة ضاحكًا
وإذا الضفافُ غدوّنَ غيرَ ضفاف	فإذا الغراسُ شهيدةً وشهيدةً
في الرّوعِ أخفاهنّ ليس بخاف	والموجُ مصطفقُ كخفقِ قلوبنا
بحقائقِ الزّمنِ العتيّ الجافي	متوثّبًا وثبّ الخيالِ مقيدًا
جمعت من الأصالِ والأطيافِ	متجلببًا من سمرّة زهبية

وبرعشة المتمرِّدِ المتلافِ
 مِنْ مَنبَعِ الْجَنَاتِ لَا الْأَعْرَافِ
 هَذَا النَسِيمُ بِرُوحِهِ الرَّفَافِ
 شِعْرًا مِنَ الْأَبَادِ دُونَ قَوَافِ
 وَالْبَحْرِ وَقَعُ وَثُوبِهِ الْهَتَّافِ
 تَشْدُو نَوَاعِيرُ لَهَا بِزَفَافِ
 وَافٍ وَقَد بَاتَ الْحَبِيبُ يُوَافِي^{٩١}
 عَرَسٌ لِأَحْلَامِ لَهَا أَلْفَافِ
 وَتَحْفُهُ الْأَرْبَابُ فِي آلَافِ
 نَقَشْتَهُ فِي الْأَفْقِ الْحَنُونِ الصَّافِي
 فِي غَيْرِ إِغْرَاقٍ وَلَا إِسْفَافِ
 فِي الْأَفْقِ طَائِرَةٌ كَطَيْرِ وَافٍ
 تُصْغِي إِلَى فَيْضَانِهَا الرَّجَافِ
 أَحْدَاقِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَنَافِ
 لِلنَّيْلِ مِنْ سِحْرِ وَمِنْ أَطْيَافِ

في فرجة الشيخ الوقور شخوصه
 جاءت أساطير الجمال بمائه
 فتقدست نفحاته حتى سرى
 الملهم النوتي في إنشاده
 مزج الروي به تموج مائه
 وحي يسير إلى الجداول عندما
 وتئن كالشادوف أنة عاشق
 هو عرس هذا «النيل»، في تجديده
 عرس تباركه القرون حفيّة
 وترى «الطبيعة» كالمصور عنده
 حتى بدا سحر الغروب كسحره
 ومضت مشاعرنا بلهفة شاعر
 وعلى خيالات المياه كأنها
 وتبادل الأحقاب نجواها من الـ
 حتى نعيش العابدين بعالم

على رمل الشاطبي

كاللهفة للنزق العائر
 كاللوعة في رُوح الشاعر
 كالتوبة من قلب الكافر
 فإذاها كالمعنى الساحر
 غابت في المهجة والخاطر

الموج على الشط توالى
 والماء هدير يتعالى
 والعشب على الصخر تجلّى
 صور للحس ممثلة
 باللمس تحس فإن لمست

^{٩١} أنة اللهفة من المحب الوافي إلى حبيبه المواني بعد جفاء.

غابت أو عادت في صُورٍ
والحسنُ على الرملِ ترامَى
أتملاه وكانَ به
حُبِسَتْ فيه فإذا صدحتُ
وكانَ النظرَةَ تَسْقِينِي
فإذا الأجسامُ مقدَّسَةٌ
تُشتاقُ ولكنَ عزَّتْها
تَهوى الأهواءُ مبعثرةٌ
ويطوف الناسُ بكعبتهِ
بالى العُبابَ وما بالى
وصلاةُ البحرِ صلاتُهمو
جذبتُهُ إلى الحسنِ معانٍ
ويبثُّ الزفرةَ في زَبِدٍ
وإذا الساعاتُ تمرُّ سُدَى

أخرى في ذاكرةِ الذاكرِ
كخيالِ الإصباحِ الباكرِ
ألحانًا من صُبحِ آسرٍ
صدحتُ في إحياءِ قاهرٍ
خمرًا من معناه الطاهرِ
كمعاني الصوفيِّ الحائرِ
خُلِقَتْ للنظرَةِ لا الناظرِ
وتثلمُ كالضوءِ الخائرِ
وهو المستأنسُ والنافرِ
فصلاَّتْهمو قلقُ زاخرِ
كم يشقى البحرُ بلا عاذرِ
والشطُّ به لاهِ غادرِ
يَفْنَى كالشوقِ المتناجرِ
إلا للفنَّانِ الماهرِ!

لغة الوداع

(عند شاطئِ استانلي في ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٤.)

حانَ الوداعُ فناج ما
يا قلبُ ما بَعَدَ الوداعِ
خذُ ما استطعتَ من الأشعِ
ومن انسجامِ الحسنِ في
ومن الغروبِ، وشمسهِ
والسُّحبِ تسبحُ فوقها
حتى تغيبَ وعندها
أهوي كما تهوي إلى الـ

سَمَحَ الجمالُ به وصلَّ
عِ سوي أسى العيشِ المملِّ
عَة في التأملِ والتَّملي
نور على ظلِّ وظلِّ
وهجُ على وهجِ أجلِّ
في قُرصها الناريِّ مثلي
أهوي إلى شجني المُضِلِّ
بحرِ العظيمِ المستقلِّ

متلاطمًا بالموج في ظَلَمَ عَلَى ظَلَمٍ وَذُلُّ
خُذْ يَا فؤادي وأدخِرْ كالنَّمَلِ مِنْ حُسْنِ ودلُّ
فالحسنُ زادي والبعاء دُ رفيقُ حرمانِي وليلي
هذي كنوزُ لا تُحَدُّ وكلها بُعثرنُ حولي
خُذْ وأدخِرْ منها! لعل لي أستجمُّ بها! لعلي!

البشبيشي الشاعر^{٩٢}

(إلى صديقي الأديب الكبير محمود البشبيشي.)

يا صديقي الذي تجلَّى بألوانٍ مِنَ النبلِ في معاني الأديبِ
ما عزائي الوفيُّ في خطبك المُدْمِي قلوبًا في فِقدِ هذا الحبيبِ؟
أَسْرَةُ الشَّعْرِ بِيَتُّكُمْ وابنُكَ الرَّاحِلُ مِنْ نَفْحَةِ الخيالِ العجيبِ
كان رمزًا للشَّعْرِ في عيشةِ الحُرِّ وفي رُوحِهِ الجميلِ الخصبِ
أَيُّ لَحْنٍ يَرِثِيهِ إِلَّا حنانٌ مِنْ أبٍ لِلأبِ العَظِيمِ الأريبِ؟
فاضٌ مِنْ مُهجتي كما فاضَ بركانٌ بذوبٍ مِنْ الحميمِ اللهيِّ
شدَّ هذا الحنانُ مِنْ مُهجةِ الشاعرِ في موقفِ الوداعِ الرهيِّ
صُنِّتَهُ عنكَ ... إِنَّ مَحْضَ عزائي ووفائي لَوْنٌ مِنَ التَّعْذِيبِ
وسألتُ الشَّموسَ أَنْ تُرسلَ النورَ مُعيدًا لقلبكِ المسلوبِ
وسألتُ الجمالَ أَنْ يبعثَ البسمةَ كالطَّبِّ مِنْ حَصيدِ طبيبِ
وسألتُ الحياةَ في كلِّ شيءٍ أَنْ تُغنيَ نَشيدَ هذا المغيبِ
وتَمِيطَ اللثامَ عن ذلكِ الخافي مِنَ الحُسْنِ في رحيبِ الغيوبِ
لِتَشِيمَ النعيمَ في مُلكِهِ الحافلِ بالحُبِّ لا الأسيِّ والنحيبِ
في سماءٍ مِنْ صُحبةِ «الشاعرِ الأسمَى»^{٩٣} وفي حُسْنِهِ النضيرِ القشبيِّ

^{٩٢} هو الشاعر النابه محمد أبو الفتح البشبيشي وقد توفي في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٤.

^{٩٣} الخالق سبحانه وتعالى.

حيث يُوحى لنا بما يبعثُ الرَّحمةَ والحُبَّ في الفؤادِ الجديبِ
ويُغَنِّي لنا بأسمى عزاءٍ لبكاء الصِّبا ونوحِ المشيبِ

غول الحرب

ألا تَسْتحي يا حاصدَ الناسِ بعدما
ألا تستحي؟ لكنْ لمن أنتَ تَسْتحي
لقد تركوا دُنياهمو رهَنَ عُصبةٍ^{٩٤}
وما فقهوا أنَّ الحياةَ فُنونُها
ولولاهمو كان التعاونُ مِلَّةً
ولم نَبُقْ أشباهَ الضواري كأننا
حصدتَ ملايينًا حصادَ خرابٍ؟
إذا الناسُ ألقوا حَظَّهم لكلابٍ؟!
تُهَيِّئُ للتَّدْمِيرِ كلَّ سبيلِ
فنونُ سَلامٍ لا فنونُ عويلِ
تُقَدِّسُ والإنسانُ سيِّدَ نفسه
أعادِ، فكلُّ في أحابيلِ رَمْسِه!

خراب الفلاح

(مرفوعة إلى الشريف عباس حلیم.)

مَنْ ذا سِوَاهِ المَعَانِي
إذا شكونا فَعَدَلْ
يا للضرائبِ باتتْ
كأنما ما كفاهُ
عَيْشٌ؟ وهل تَمَّ عَيْشٌ
أبناءً «مصر» المواضي
هذي القذارَةُ رَمَزٌ
هذي البيوتُ قبورٌ
ونحنُ أهلُ المَعَانِي؟
فكلُّنا شِبُهٌ جاني
هي الخرابُ الثاني
عَيْشٌ عديمُ الأمانِي
على رَدِّي وامتهانِ؟
مِنَ البعيدِ الزَّمانِ
لهم بكلِّ مكانِ
تموتُ فيها الأغاني

^{٩٤} عصابة أصحاب المصانع الحربية ومن إليها.

أَمَّا الطَّعَامُ فَوَهُمٌ أَمَّا الْكِسَاءُ ففَنَانِ
والكلُّ شَبُهٌ مَرِيضٍ يُسَامُ خَسْفَ الْجَبَانِ
وما لهم مِنْ صَدِيقٍ وما لهم مِنْ ضَمَانِ
فيا نَبِيلَ الْمَسَاعِي لَأَنْتَ أَكْرَمُ بَانِي
كم عَامِلٍ فِي هَوَانٍ أَعْتَتَهُ مِنْ هَوَانِ
فَأَنْقِذْ أَخَاهُ وَحَقِّقْ رَجَاءَ شَعْبٍ يُعَانِي

رِسَامَةُ الْآثَارِ

(إلى الأنسة الشاعرة جميلة العلايلي في منفاها بأسوان.)

رِسَامَةُ الْآثَارِ تَفْتَنُهَا الدُّمَى
وَأَفَتْ رِسَائِلِكَ الْعَزِيزَةَ بِالْهَدَى
قَدْ كُنْتَ طَائِرَةً بِنَشْوَةِ سَاحِرٍ
وَالآنَ فِي شِكْوَاكِ عُدَّتْ قَرِيرَةٌ
فَإِذَا اِكْتِنَابُكَ كَالْغَمَامِ مَصْفَقٌ
رُوحٌ كَرُوحِكَ كَالشَّمُوسِ تَعَدَّدَتْ
لَا يَدْعُ إِنْ شَاقَتْكَ أَطْيَافُ السَّنَى
عَكَسَتْ بِمَرَاةِ السَّنِينِ وَمَا طَوْتُ
وَحَنَّتْ عَلَيَّ «أَنْسِ الْوُجُودِ» كَأَنَّمَا
الْهَيْكَلِ الْبَسَامِ بَيْنَ حَرِيقِهِ
فِيهِ الْحَنِينُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ تَجَاوَبَا
غَرَّقَ الْجَمَالَ شَهِيدَهَا فِي عَثْرَةٍ
وَيُخَالِ «أَوْزَيْرِيْسُ» فِي إِحْيَائِهِ
و«سِت» الْخَثُونُ عَلَيَّ الصَّخُورُ بِذَلَّةٍ

أَتْرَى فَتَنْتَ رَوَائِعِ الْآثَارِ؟
وَالْوَحْيِ مِنْ مَلَكُوتِهَا الْجَبَّارِ
جَازَ السَّمَاءَ لِعَالَمِ سَحَّارِ
فِي جَبْرَةِ تَسْمُو بِرُوحِ الْجَارِ
وَإِذَا قَرَارُكَ صَارَ غَيْرَ قَرَارِ
وَتَغْيِبُ إِدْرَاكًا عَنِ الْأَبْصَارِ
مَا بَيْنَ آثَارٍ وَبَيْنَ صَحَارِي
مِنْ رَائِعِ الْأَحْدَاثِ وَالْأَسْرَارِ
تَحْنُو عَلَيَّ مَعْبُودَهَا الْمَخْتَارِ
عِنْدَ الْغُرُوبِ وَبَيْنَ دَمْعِ جَارِ
كَتَجَاوَبِ الْأَصَالِ وَالْأَسْحَارِ
وَلَوْ أَنَّهُ حَيٌّ عَلَيَّ الْأَدْهَارِ
قَدْ عَادَ رَغْمَ عَدُوِّهِ الْغَدَّارِ
جَاثٍ وَتَلَطَّمُهُ يَدُ التِّيَّارِ

ودموع «إيزيس»^{٩٥} يُحاولُ طُهرُها
 ما شئتِ عندكِ مِنْ فُنُونِ حُرَّةٍ
 فلئن نُفيتِ — وللسياسةِ عَدْرُها —
 إننا سواسيةٌ بما نَشَقَى به
 لم يَبْقَ مِنْ صُورِ العِزاءِ لمثلنا
 إني بمنفَى هائلٍ مِنْ عَزَلتي
 لا سلمَ للقلبِ الأبِّي وحوله
 لا سلمَ إلَّا في مخادعةِ المُنَى
 فلقد طغى الشُّرُّ العميمُ وأصبحتُ
 تطهيرَه فيظلُّ رهنَ العارِ
 للشعرِ ما يُزهِمى على الأشعارِ
 فالنفيُّ بعضُ كرامةِ الأحرارِ
 وكأَنَّنا هَدَفُ لَدَى الأقدارِ
 إلَّا عزاءُ النفيِ والأسفارِ
 وكذاك أنتِ بلوعتي وبناري
 دُنيا مِنْ الأقدارِ والأكدارِ
 بالفنِّ نُسَدِلُهُ على الأوغارِ^{٩٦}
 «مصر» الحزينةُ دولةُ الأشرارِ

سؤال النحلة

جاءتُ تُسأَلُ نحلتي السمرَاءُ: «أين الرَّعفرانُ؟
 أين افتنانُ النرجسِ الغَضِّ وأين العيسلانُ؟
 أينتُ حُلَى السِّيراسِ والسُّنْبُلِ، أحلامُ الحسانُ؟^{٩٧}
 أينتُ جواهرها؟ وهل ضاعتُ كما ضاعَ الزَّمانُ؟»
 فأجبتُها: «يا نحلتي للزَّهرِ أعمارٌ تُصانُ
 عُمُرٌ لنضرتِه وعُمُرٌ في البُذورِ على أوانٍ
 وسواهما عُمُرٌ لأخيلةِ الفُنونِ وللبيانِ
 ولأنتِ شاعرةُ الشواعرِ والخبيرةُ بالجِنانِ
 ولأنتِ أدري مِنْ خيالي بالجمالِ والافتنانِ

^{٩٥} ماء النيل. وست هو أخ أوزيريس وقاتله بخدعته المشهورة (انظر أوزيريس والتابوت).

^{٩٦} الأوغار: الأحقاد والأضغان.

^{٩٧} الزعفران crocus، والعيسلان hyacinth، والسيراس daffodil، والنبيل (التوليب) tulip، وجميعها من أزهار النحل الشائقة.

فَوْقَ الْعُبَابِ

فَتَمَثَّلِي مِثْلِي الرَّبِيعَ وَجَوْهَ السَّلِسِ اللَّيَّانِ
وَتَمَتَّعِي فِي الحُلْمِ بِالزَّهْرِ الَّذِي وَلَّى وَبَانَ
الآنَ يَحْيَا عَطْرُهُ فِي الذِّكْرِ مِنْ بَعْدِ البَنَانِ
وَالآنَ دَاعِبَ تَبْرُهُ تَبَرَ الأَشْعَةِ فِي أَمَانِ
هُوَ مِلءُ أَنْظَارِ الفَنُونِ وَإِنْ يَغِبُ دُونَ العِيَانِ
فَتَأَمَّلِيهِ، تَأَمَّلِي! وَتَنَاوَلِي مِنْهُ الجُمَانَ
وَتَرَنَّمِي وَكأَنَّمَا عَادَ الرَّبِيعُ المُسْتَلَانَ
خَيْرٌ لَنَا دُنْيَا الخِيَالِ تَعَفُّ عَنْ دُنْيَا الهَوَانِ
وَمَنْ ابْتَهَاجِكَ وَابْتَهَاجِي قَدْ تُصَاغُ قَصِيدَتَانُ
أَنَا عَارِزٌ بِهِمَا كَعَرْفِكَ إِنْ أَسَاءَ لَنَا الجِبَانُ!»

يوم في سنتريس

(مهداة إلى الصديق الدكتور زكي مبارك ذكرى زيارتنا لسنتريس يوم الجمعة ١٩
سبتمبر سنة ١٩٣٤.)

يا يَوْمَ إيناسي الَّذِي لَمْ يَنْفِدِ ما زَلتَ فِي خَلْدِي وَإِنْ لَمْ تُخَلِدِ
بَلْ أَنْتَ فِي الخُلْدِ الأَتَمِّ مَشعِشَعًا فِي الذِّكْرِياتِ مَوْزَعًا فِي المَشْهَدِ
نِشْوانُ مِنْ لِقْيَاكَ، لَمْ أُبْرِحْ كَمَا لا قَيْتُ أَنْسَكَ فِي سَنَاكَ السَّرْمَدِي
جَعَلَ الصَّدِيقُ بِكَ الضِّيافَةَ نَعْمَةً لا تَنْتَهِي، وَمَأْتَرًا لِلْمَفْتَدِي
خُلِقْتَ مِنَ الإِحْسانِ حَتَّى أَنْنِي أَنْسَيْتُ ما يَجْنِي الزَّمانُ المَعْتَدِي

* * *

يا يَوْمَ إيناسي الَّذِي لَمْ يَنْفِدِ ما زَلتَ فِي خَلْدِي وَإِنْ لَمْ تُخَلِدِ
جِئْنَاكَ أَشْبابَ العُفَاةِ هَوَايَةً لِلْحَسَنِ، لا كالبائِسينَ القُصْدِ
فإِذاه^{٩٨} يَنْهَلُ فِيكَ بَيْنَ مُدَوِّبٍ شَبِيمٍ، وَيَلْمَسُ فِيكَ بَيْنَ مُجَسَّدِ

^{٩٨} أي الحسن.

والحُسْنُ أكرمُ ما يكون لكارمٍ
مَثَلْتُ معاني الصفوِّ في قسماثِه
ما نالها إلاَّ التَّصوُّفُ وحده
هذي «الطَّبِيعَةُ» في جلالَةِ مُلكها
بَسَمْتُ إِلَيَّ فكان في بسماتها
بَسَمْتُ ورثَلتِ الحِياةُ نَشِيدَها
أَتَى التَّفَتُّ فُتِنْتُ مِنْ أَطِيفِها
وأصِيخُ لِلذَّرَّةِ التي وَقَفْتُ كما
فتنمُّ عن أسرارِه في صَمَّتِها
وأراقبُ الرِّياحَ^{٩٩} يزخرُ مَوْجُه
ونَمُرُّ في الطَّرْقِ الودِيعَةِ صانها
والجدولُ الجاري كمرآةٍ لها
غسلتْ عَذارَى الرِّيفِ جِيرةَ شَطِّه
متضاحكاتٍ والخريزُ كأنَّه
ونزورُ ساقِيةَ الصَّدِيقِ وعندها
ونرى الصِّباةَ في النواحِ وطالما
ونمضُ مِنْ قَصَبِ يَطِيبُ لنا كما
ونزورُ مِنْ تلكِ المنازلِ وادعًا
ونرى الجمالَ كأنما إفصاحُه
نَدريه بالحسِّ الخفيِّ وإنَّ يَكُنْ
نَدريه مِنْ رُوحِ البصيرةِ قبل أن
فإنَّ الجمالُ هو الحِياةُ، وسِرُّه
وإذا الألوهةُ لا تَلوَحُ لجاحدِ

والحُسْنُ أبخلُ ما يكون لمجتدي
وجزى الهوى جزي المعاني الشُّردِ
بنهى الآلهِ العبقريِّ الأُوحدِ
إنَّ الجلالَةَ بالسذاجةِ تَبتدي
من عالمِ المجهولِ آيةً مُوجِدي
وكأنني بنشيدِها في مَعْبِدِ
ولمحتُ ملءَ الغيبِ ما لم يُوجِدِ
وقَفْتُ جنودَ الدَّهْرِ للمتمرِّدِ
وتحنُّ مثلي للخفيِّ المُبْعَدِ
بالذكرياتِ وبالحنينِ إلى الغدِ
مِنْ شامخِ الأشجارِ كلُّ مُجَنِّدِ
وبِه من الآبادِ ما اشتاقتُ يدي
حُلاَّ كأصباغِ الخريفِ العسجدي
أصداهُ فرحتهنَّ في الماءِ الصَّيدي^{١٠٠}
للذكرياتِ مَدامعُ لم تُعْهَدِ
بالأمسِ غنتُ بالنشيدِ المُسْعِدِ
تلهو الطفولةُ في رضى متجدِّدِ
لكنما خلقتَه عِرَّةً سَيِّدِ
عينُ الغموضِ لباحثٍ متفقِّدِ
ملءَ النواظرِ والمسامعِ واليدِ
يُدري بلحظِ عاشقٍ متودِّدِ
هَدْيُ الموفقِ أو ضلالُ المُلجِدِ
وتلوحُ للمتلهِّفِ المتعَبِّدِ!

* * *

^{٩٩} رياح المنوفية.

^{١٠٠} الظمان إليهن.

ما زلتَ في خَلْدِي وإن لم تُخَلِدِ
 في كل ما يهواه قلبٌ معيِّدٍ
 بأشعةٍ ومنمَّمًا بزبرجدٍ
 يُغني سوى شرفِ النهى والمحتدِ
 ولو أنه يلقى عناءَ مُسَوِّدٍ
 في عِزَّةٍ من شوقنا المتردِّدِ
 وكأنما هو في صلاةٍ المهتيدي
 بالمنظرِ الحالي وبالعُشبِ الندي
 ملءَ العواطفِ والنهى متعدِّدٍ
 كأحبِّ ما يطغى الهوى بمصفدٍ
 بينا انطلقنا في هوى المُستعبدِ
 سيَّارةً طارتُ كطيرٍ ممرِّدٍ
 ما بين عَرَافٍ وبين مُغرِّدٍ
 هي كالتأمُّلِ للأبِّي الأيِّدِ
 ذهبَ الغروبُ بها زهابٌ مُبدِّدٍ
 طاحتُ إليه على الخيالِ المُزبدِ
 فرَجَعْتُ في حلمي بأروعِ سُودِّدٍ
 عند الطبيعةِ ما استسرَّ بجلمدِ
 للكونِ في هذا الأثيرِ المُفَرِّدِ^{١٠٢}
 إبهامٌ إحساسٍ بروحِ مُخلِّدِ
 كبرى فتتبعها ظنونُ الحُسدِ
 والحُسنِ في دنيا العقوقِ لتهنَّدي

يا يومَ إيناسي الذي لم يَنفَدِ
 حَفَلْتُ بمجدِكَ «سنتريس» وعيَّدتُ
 قد جئتُ منَ وطنِ الجمالِ مَفوِّفًا
 فإذا بأهلِها غَنُوا عن كلِّ ما
 حتى النباتُ له ازدهاءُ مُسَوِّدٍ
 والبركةُ الخضراءُ أسنُّ مائها
 ومنَ الدُّيوكِ على السطوحِ مؤدِّنُ
 ومنَ السوائِمِ ما يُجَلُّ فتونهُ
 حتى رجعنا في غنىٍ لم يَنفَدِ
 لم تفتقدِه^{١٠١} وإن نكنُ نؤنا به
 سكنتُ إلى الرِّياحِ غيرَ أسيرةٍ
 والليلُ كالمسحورِ حيثُ تُقلِّنا
 تتراقصُ الأشباحُ في أفيائه
 ومنسَّقُ اللبِّحِ المهيبِ برهبةٍ
 وتعودُ ألوانُ المفاتنِ بعدَ ما
 فكأنها بُعِثتُ منَ الأبدِ الذي
 وكأنها غمرتُ جميعَ كياننا
 حُلْمٌ طوى صُحفَ الدُّهورِ ولم يدعُ
 أو ما تحجَّبَ كالظُنُونِ بخاطرِ
 حُلْمٌ هو الفنُّ الجميلُ وإن يَكُنْ
 والناسُ ترقبنا فتلمحُ نشوةً
 وكأننا عُدنا نبشُرُ بالهوى

* * *

ما زلتَ في خَلْدِي وإن لم تُخَلِدِ!

يا يومَ إيناسي الذي لم يَنفَدِ

^{١٠١} يريد سنتريس.

^{١٠٢} المفرد: المستقل المتحرر.

في مولد السيدة زينب

نُضِلُّ هُمومَنَا بينَ الزَّحَامِ!
تَدْفُقُ كَالظَّلَامِ عَلَى الظَّلَامِ
كَمَا تُجْدِي تَهَاوِيلُ المِنَامِ
فَكَيْفَ إِذْنُ بِتَوْدِيحِ الكَلَامِ؟!
سوى فَرِطِ الأَوَامِ عَلَى الأَوَامِ
رَأَيْنَا البَدَرَ يَسْبَحُ فِي الغَمَامِ
مِنَ الأَضْوَاءِ رَاحَ المِسْتَهَامِ
تَخَلَّتْ عَن تَعَلَّاتِ الغَرَامِ
لِغَيْرِ السَّلْمِ فِي مِثْلِ القِتَامِ
خُلِقْنَا لِلزَّحَامِ بِبَلَا عِظَامِ
جُسُومًا فِي مَوَائِجِ الجِسامِ
وَكَانَ حُطَامُهُ صُورَ الطَّغَامِ
مُضْمَخَةٌ بِأَلْوَانِ الحِرَامِ
وَلَيْسَ سِوَاهُ مِن أَهْلِ «المَقَامِ»
تَتَوَجَّهَ عَلَى المُهَجِ الدَّوَامِي
وَمِنَ أمثَالِهِ عِلَلُ الكَلَامِ
بِلِثْمِهِمَا سِوَى حَدِّ الحُسَامِ
كَأَنَّ الرُّشْدَ نُهْرَةً الانْتِقَامِ
رَوَاجًا لِلرَّذِيلَةِ وَالتَّعَامِي
فَأَحْلَامُ تَبِوْءٍ بِالاصْطِدَامِ
لأنواعِ الخِصُومَةِ وَالوِثَامِ
لِيَزْخُرَ بِالكِرَامِ وَبِاللِثَامِ
فَسَاءتْ فِي اضْطِرَابٍ وَانْسِجَامِ
تُخَالِ سِلَاحَ أَعْدَاءِ السَّلَامِ
تَهَاوِيلُ الدَّعَايَةِ لِلجِمَامِ

صَحَكْنَا لِلهُمُومِ وَقَلَّتْ: هَيَّا
فَسَرْنَا فِي مَوَاكِبِ حَاشِدَاتِ
وَلَا يُجْدِي عَلَيْهَا النُّورُ إِلَّا
فَوَدَّعْنَا التَّنْفُسَ حِينَ سَرْنَا
وَأَظْمَأْنَا الزَّحَامُ فَمَا شَرَبْنَا
وَكَنَّا قَدْ نَسِينَا السُّحْبَ حَتَّى
وَيَشْرَبُ رَاحَهُ، وَلَكُم شَرَبْنَا
وَلَكِنْ هَذِهِ سَاعَاتُ وَهَمِ
وَقد ثَارَ الغِبَارُ فَصَارَ مَعْنَى
وَنَحْنُ نَسِيرُ إِعْجَازًا كَأَنَّا
نَسِيرُ وَيدْفَعُ التِّيَّارُ دَفْعًا
كَأَنَّ «النَّيْلَ» فَاضَ فَكَانَ خَلْقًا
وَكَم مِّنْهُمْ وَلِيٌّ فِي ثِيَابِ
يَشْقُ الجَمْعَ مَزْهُوًّا قَرِيرًا
كَأَنَّ مَعَالِمَ الزِينَاتِ قَامَتْ
يُبَارِكُ كُلُّ مَكْلُومٍ عَلِيلِ
وَتَلْتَمُّ رَاحَتَاهُ، وَلَيْسَ أَوْلَى
مَهَازِلُ فِي المَوَاسِمِ صَارَخَاتُ
إِذَا رَاجَتْ بِهَا الأَسْوَاقُ كَانَتْ
مَوَاكِبُ مَا لَهَا عَقْلٌ وَإِلَّا
كَأَنَّ البُعْثَ أَخْرَجَهَا مَرَايَا
نَسِيرُ وَيَزْخُرُ المِيدَانُ حَتَّى
قد انْسَجَمُوا عَلَى صُورِ اضْطِرَابِ
وَأَلْوَانِ الطَّعَامِ تَفُوحُ حَتَّى
«فَلِلأَحْشَاءِ» مَا شَاءَ المَنَادِي

صِيَاخُ جَرِّ أَنْوَاعِ الْخِصَامِ
 لَشَوْقِ الْأُمِّ أَوْ شَوْقِ الْغِلَامِ
 نَشَاوَى أَوْ ضَحَايَا لِلْسِقَامِ
 فَإِنْ يَبْسِمُ تَعَثَّرَ فِي ابْتِسَامِ
 مِنَ الْعَرَبَاتِ أَوْ قَطِرِ التَّرَامِ
 فَلَمْ تَعْبَأْ بِمَعْنَى الْاِحْتِشَامِ
 فَمَا لَاحُوا بِهَا مُثَلَّ الْأَنَامِ
 وَأَعْلَامُ الْمَشَايِخِ فِي احْتِدَامِ
 إِلَى حَرَمِ الزِّيَارَةِ فِي عُرَامِ
 وَقَدْ أَوْدَى بِهَا عَبَثُ الْحَرَامِ
 كَأَنَّ سُرُورَهُ سُكْرُ الْمَدَامِ
 عَلَى رَأْسٍ تَدْحَرَجُ فِي الرَّغَامِ
 بَرَقِصٍ لِلْأَنْوِثَةِ فِي اضْطِرَامِ
 فَكَيْفَ إِذَا رَأَتْ دَوْرَ اللَّثَامِ؟!
 سُكُولَ النَّابِغِينَ مِنَ اللَّثَامِ
 بِأَضْوَاءِ كَأَوْسَمَةِ سَوَامِ
 مِنَ الزِّيْنَاتِ مَشْرِقَةُ النِّظَامِ
 مَفَاتِنُهَا حُطَامٌ فِي حُطَامِ
 عَلَى قِصَعِ الدَّنِيِّ مِنَ الطَّعَامِ
 فَمَا يَدْرِي الْوَرَاءَ مِنَ الْأَمَامِ
 أَحَقُّ مِنَ الْمِهَارَةِ بِاللِّجَامِ
 وَسَاقِي الشُّرْبِ كَالْمَوْتِ الزُّوَامِ
 يَلُوحُ بِعِزَّةِ الْبَطْلِ الْهَمَامِ
 لِأَحْلَامِ الطَّفُوفَةِ كُلِّ عَامِ
 سِوَايَ أَضَلَّ فِي هَذَا الزُّحَامِ!

«وَلِلْأَرْزِ» الْمَفْلِفِ فِي صَوَانِ
 «وَلِلْحَلْوَى» عَلَى الْعَرَبَاتِ نَجْوَى
 تَمَوْجُ الطُّرُقِ بِالْآلَافِ مَوْجًا
 فَلَيْسَ فِيهِمْ لِمَبْتَسِمٍ مَكَانٌ
 وَتَنْبِخُ بَيْنَهُمْ بِالزَّمْرِ شَتَّى
 كَأَنَّ الْحَشْدَ أَرَهَقَهَا جُنُونًا
 تَعَلَّقَ كُلُّ مَنْكُوبٍ عَلَيْهَا
 وَطَبَّلَ غَيْرُهُمْ وَالرَّقِصُ يَدْوِي
 وَأَمْوَاجُ الْجَمُوعِ تُصَبُّ صَبًّا
 وَأُخْرَى فِي تَدْفِقِهَا حِيَارَى
 وَهَذَا الْقِرْدُ يَلْعَبُ فِي سُرُورِ
 وَهَذَا الْبَهْلَوَانُ الطِّفْلُ يَمْشِي
 وَهَذِي الطِّفْلَةُ الْحَسَنَاءُ تَلْهُو
 مَفَاتِنُهَا بَعَيْنَيْهَا تَرَاءَتْ
 وَكَمْ مِنْ بَاعَةٍ سَرَحُوا وَكَانُوا
 وَكَمْ فَوْقَ الْحَوَانِيَّتِ ابْتِهَاجُ
 وَعِنْدَ الْجَامِعِ الْمَعْبُودِ شَتَّى
 يَضِيغُ جَمَالُهَا وَكَأَنَّ مَرَأَى
 كَمَرَأَى الْجَائِعِينَ وَقَدْ تَهَاوَوْا
 وَمَرَأَى كُلِّ فَلَاحٍ شَرُودِ
 وَمَرَأَى كُلِّ غَانِيَةٍ لِعُوبِ
 وَمَرَأَى كُلِّ رَاضِعَةٍ وَبَاكِ
 وَمَرَأَى كُلِّ شَحَّازٍ أَصِيلِ
 وَمَرَأَى اللَّاعِبِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ
 وَمَرَأَى التَّائِهِينَ وَلَيْسَ فِيهِمْ

رثاء الشابي

مَكَانُكَ فِي الأُخْرَى مَكَانَةٌ أَرْبَابِ
 لِمَثَلِكَ إِلاَّ الخُلْدَ فِي دَارِ أَحْبَابِ
 مِنَ اللّهِ لَمْ تَرْجِعْ كَرَجْعَةِ غُيَّابِ
 فَأَيْنَ مُذَابُ النُّورِ يَمْلَأُ أَكْوَابِي؟
 خَوَالِجُهَا لِلْفَنِّ أَسْبَابُ أَسْبَابِ؟
 عَلَى البُعْدِ وَصَّافَ الحَيَاةِ بِإِسْهَابِ؟
 فَوَاتِنُ أَقْطَابِ تَفَانُوا وَأَقْطَابِ؟
 عَجَائِبُهُ^{١٠٣} كَادَتْ تُقَوِّضُ إِعْجَابِي
 تَشَكَّلَ فِي رُوحِ كَرُوحِكَ وَثَابِ
 وَأَسْهَبَ فِي مَعْنَى مِنَ الشَّعْرِ خَلَابِ
 بِأَصْبَاغِهِ الحَسْرَى وَإِنْ نَلْنُ تَرْحَابِي
 حَبِيسَةَ أَلْفَاظِ، طَلِيقَةَ آرَابِ
 جَمَالٍ مِنَ الأَحْلَامِ وَالفِكْرِ وَالدَّابِ
 مِنَ الأَدَبِ المَعْبُودِ غَايَةَ أَنْسَابِ
 وَكُلُّ لَه دَمْعٌ دَفِينٌ بَتَسْكَابِ
 يَفِيضُ بُوْحِي مِنْ غِنَائِكَ مُنْسَابِ
 كَذَلِكَ مَنْ نَابُوا فَلَيسُوا بِنُؤَابِ
 وَإِنْجَابُهُ أَنْوَاعُ حُزْنٍ وَإِنْجَابِ
 فَمَنْ عُمُرِهِ عُمُرٌ لَدُنْيَا وَأَحْقَابِ

أَبَا القَاسِمِ الشَّابِي! أَبَا القَاسِمِ الشَّابِي!
 أَبِي الخَالِقِ الفَنَّانِ جَلَّتْ فُنُونُهُ
 وَمَا المَبْدَعُ الفَنَّانُ إِلاَّ أَشْعَةُ
 سَقَتْنَا رَحِيقَ الفَنِّ صِرْفًا وَوَدَّعَتْ
 وَأَيْنَ الجَمَالُ العَذْبُ أَلْحَانَ شَاعِرِ
 وَأَيْنَ الَّذِي يَدْرِي خَفَايَا نَفُوسِنَا
 وَأَيْنَ الَّذِي آيَاتُهُ فِي تَصَوُّفِ
 مَضَتْ وَمَضَى! يَا هَوْلَ مَأْسَاةِ عَالَمِ
 كَأَنَّ جَمَالَ الفَجْرِ لَمَّا تَرَكْتَهُ^{١٠٤}
 فَعَلَّمَنِي نَوْحَ الخَرِيفِ وَوَجَدَهُ
 وَأَشْبَعَنِي حُزْنًا عَمِيقًا مَجْدِدًا
 وَنَاوَلَنِي هَذَا الرِّثَاءَ أَشْعَةَ
 تُبَشِّرُ بِالحَبِّ الأَرِيحِ، وَحَظُّهَا
 لَهَا لَهْفَةٌ مِثْلِي، وَكَمْ عِنْدَ لَهْفَتِي
 فَكَلُّ عَنِ البَاقِيْنَ يَبْكِي بِكَاءِهِمْ
 تَغْلُغَلُ فِيهِ الشَّجْوُ صِرْفًا كَأَنَّمَا
 أَنْوَبُ عَنِ الرِّائِثِينَ مِثْلِي وَلَمْ أَنْبُ
 تَنَوَّعَتِ الأَحْزَانُ فِي مَن حَيَاتُهُ
 وَمَا الفَقْدُ لِلْفَنِّ الجَمِيلِ بَهِيِّنِ

* * *

نَعِيكَ! يَا لَلرُّوعِ يَنْسِفُ أَعْصَابِي!

أَتَانِي كِتَابُ الوُدِّ مِنْكَ وَطِيئُهُ

^{١٠٣} عجائبه: غرائب شذوذه ونقائضه.

^{١٠٤} توفي الفقيه في فجر اليوم التاسع من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٤.

فَوْقَ الْعُبَابِ

أُفْرِحَنِي دَهْرِي وَيُحْزِنُنِي مَعَا؟!
لَقَدْ هَدَمَ الدُّوَلَاتِ مِنْ قَبْلُ هَازِنًا
وَقَدْ عَانَدَ الْأَمَالَ حَتَّى تَعَثَّرْتُ
وَمَا «تُونُسُ» الْخَضْرَاءُ بَعْدَكَ جَنَّةٌ
وَلَكِنَّ لِلشَّعْرِ الْعَظِيمِ عَلَى الْمَدَى
نَعْم! هُوَ جَانٌ لَا يُبَالِي بِإِغْضَابِ
وَلَمْ يَخْشَ مِنْ خُصْمٍ وَغَضْبَةٍ حَسَابِ
فَلَمْ يَبْقَ لِلدُّنْيَا سِوَى الْأَمَلِ الْكَابِي
وَلَا نَجْمِكَ الْخَابِي سِوَى نَجْمِهَا الْخَابِي
مَنْ التَّارُ مَا يَقْضِي عَلَى عَسْفِهِ الْأَبِي!

* * *

صَدِيقِي! صَدِيقِي! أَيُّ حَزَنِ يِنَالِنِي
كَأَنَّ أَغَانِي الْكُونِ قَدْ غَالَهَا الثَّرَى
أَلَسْتَ الَّذِي نَاجَى الطَّبِيعَةَ كُلَّهَا
أَلَسْتَ الَّذِي غَنَّى الْأَنْوْثَةَ كُلَّ مَا
أَلَسْتَ الَّذِي قَدْ عَاشَ فِي النَّاسِ سَاطِئًا
أَلَسْتَ الَّذِي قَدْ مَاتَ فِي غُرْبَةِ الضَّنَى
وَمَا حَجَّبْنَاهُ عَنْ رُؤَى الْحِكْمَةِ الْوَرَى
وَأَيُّ شَجْوَنِ تَسْتَهِينُ بِإِرْهَابِي؟
فَطَاحَتْ كَمَا طَاحَتْ أَنْشِيدُ الْبَابِ!
وَتَرَجَمَهَا سَحْرًا سَرِيًّا لِأَدَابِ!
يُعَبِّرُ عَنْ أَسْمَى الصَّلَاةِ بِمَحْرَابِ؟
وَفِي الْفَنِّ مَسْرُورًا وَحِيدًا بِأَوْصَابِ؟
وَيَشْرَ بِالْعُودِ الْقَرِيبِ لِمَرْتَابِ؟^{١٠٥}
إِذَا خَذَلَ الْأَحْلَامَ سَطْوَةً حُجَابِ؟

* * *

رَحَلْتَ صَدِيقِي بَعْدَ مَا جِئْتَ مُوصِيًّا
أَنَا حَارِسُ الْفَنِّ الَّذِي أَنْتَ رَبُّهُ
وَلَكِنَّ لِي فِيمَا نَظَمْتَ مَدَامَعًا
تَلَوْحُ بِأَثْنَاءِ السُّطُورِ لِشَاعِرِ
بِشَعْرِكَ، فَارْحَلْ غَيْرَ خَاشٍ وَهَيَّابِ!
وَهِيَهَاتِ خِذْلَانِي مُوَاهِبَ وَهَابِ
قِصَائِدَ لَمْ تُعْلَنَ — وَإِنْ أَعْلَنْتَ — مَا بِي
فَرُوحِي مِنْ نَفْسِي وَأَرْوَاحِ أَتْرَابِي

الرحيق الإلهي

فِي غَادَتِي، فِي زَهْرَتِي، فِي نَحْلَتِي
حَمْرُ الْأَنْوْثَةِ: نَشُوتِي بَلْ فَتَنْتِي
وَبِكَلِّ حُسْنِ كَالْحِنَانِ لِمُهْجَتِي
وَعِبَادَتِي، فَعِبَادَتِي مِنْ فَتَنْتِي

^{١٠٥} كانت هذه آخر كلماته عند وفاته.

شملتَ معانيها خواطرَ نِعْمَتِي وشأتَ تعاريفَ الجمالِ للذَّتِي
ما بينَ إبهامٍ وبينَ إبانةٍ

يا بني القبط!

رُ سَوَى الفَنِّ في جلالِ أبي
بِ فِلَسْتَمِ مِنْ مِصرَ في أَيِّ شَي
مَةِ والعِلْمِ والطَّمُوحِ العَتِي
يا بِنِيها عَن رُوحِها الفَنِّي
جَمَعَتَهُ يَدُ الشَّرِيفِ السَّرِيِّ^{١٠٦}
لي وبالفنِّ مِنْ دَفِينِ وحي
بشُموسٍ مِنْ أَمَسِنا العُلوي
رُ وإِنصافُ مَجِدِنا العَبقَري؟
قَد نَسِيتُم نِداءَ الرُوحِي
أينَ أَلحانُ عَصْرِها الذَهبِي؟
وَهَل غِيرُهُ الوَضِيءِ الغَنِي؟
بشَعورِ المُنزَهِ الصُوفِي
رَرةً مِنْ حالِها الشَجيِّ الشَقي
عَزَفَ حَتى وإِن يَكُنْ كَالدَّوي
مُذ تَوَلَّتْ عَن سِحرِها القِبطِي
لِلجَمالِ المَقَدِّسِ السَّرمِدي
جَمالٌ أو عِزَّةٌ مِنْ نَبِي!

يا بني القبط! يا بني مصر! هل مصَّ
إِن يَفْتَكُم تَقديسُهُ الدائمُ العَهْدُ
أمةُ الفَنِّ والحِضارَةِ والحِكمِ
مِنْ بِنِيها أنتم، فَكِيفَ غَفَلتُم
أينَ آثارُكمُ سَوى بَعْضِ ماضٍ
كِيفَ لا تَنهَضونَ بِالأدبِ الغا
كُلُّكمُ مُشَرِّقُ الذِكاةِ فَعُودوا
أينَ أينَ التَصويرُ واللَّحْنُ والشُّعْ
قَد قَنَعتُم بِزِخرفِ العِيشِ حَتى
هَذهِ وحِشَّةُ «الكنيسة» تُشجِي
كِيفَ تَبقى عَديمَةً مِنْ غِنى الفَنِّ
زُرْتُها أَشْتَهى هَنا لروحي
فإِذا بي أَعودُ في أَلَمِ الحَسِّ
كُلُّ لَحْنٍ يَموتُ فيها قَبيلَ الـ
ومَضتْ مِثْلَهُ فُنونُ غِوالِ
فانفَضوا غَفلةَ القِرونِ وهَبُّوا
أَنصِفُوا أَمسَكمُ فليسَ سَوى الفَنِّ

^{١٠٦} مرقص سميكة باشا مؤسس «المتحف القبطي».

بيت العنكبوت

قال لي العنكبوتُ: «يا صاحبي الشا
أنتَ مَنْ يدَّعي الضَّالَّةَ والضعفَ
أينَ هذا مِنْ شعركم أيها النا
قد خلقتُم من الخيالِ بيوتًا
ليس للفنِّ من نصيبٍ لديكم
تضربونَ الأمثالَ بالضعفِ عندي
كم عجيبٍ فيما بنيتُ جدير
قد هزأتُم بحكمتي وأنا الغا

عرَ لم تَدْرِ أَيَّ فنٍّ بنيتُ
فَ لبيتي، والبيتُ بالفنِّ بيتُ
سُ وما فيه من غرورٍ ووهمٍ؟
وأنا من صميمِ ذاتي وجسمي
وهو عندي اللبابُ في كلِّ شيءٍ
وهو جذُّ المهندسِ العبقريِّ
باقتداءٍ لو أنكم تُبصرونَ
فرُّ في ضحكتي لمن يهزءون!»

في معرض الأزهار

كلُّ زهرٍ كأنه الشَّمْسُ في القَدِّ
عَرَضُوهُ كأنما الناسُ أهلو
أَيُّ بأسٍ لنا على مُهَجَةِ الشَّمِّ
ذاك شأنُ الأزهارِ! ليست مبانٍ
وقفَ الناسُ مُعجبين، ولي وَحْدَ
أتملُّ الجمالَ في صورةٍ جا

ر وفي سرِّه العميقِ الخفيِّ
ه ولكنَّهم بجهلٍ وغيٍّ!
س أو النجمِ عند رَصدٍ ورسمٍ؟
ها سوى الرَّمزِ للجمالِ الأتمِّ
دي صلاةٌ خفيةٌ في ضميري
زت حُودًا للفهمِ أو للشعورِ!

الطبيعة والناس

لا تعجبوا ... حُبِّي «الطبيعة» وَحَدَّهَا
قد صانَ من حُبِّي لهذا الناسِ ١٠٧

١٠٧ انظر مقطوعة «حباتان» في ديوان «أنداء الفجر» ص ٦، وقصيدة لفتات الغريب، في ديوان «زينب» ص ١٥، وقصيدة «الطبيعة» في ديوان «مختارات وحي القلم» ص ٣٦.

كرواية «الحلاج» و«الدَّبَّاسِ»!
 عن مَدْحِ كُلِّ مُقَدِّرٍ تَعْلِيمِي
 مَتَنَكِّرِينَ كَحَالِ كُلِّ لَتِيمٍ
 وَمُفَاخِرِينَ بِكُلِّ مَا أُعْطِيَتْ!
 مَوْتِي؟ وَكَيْفَ يَتِيهُ فِينَا الْمَيِّتُ؟!
 سَرَقُوا فُنُونََ تَخِيلِي وَبِيَانِي
 عَرَفُوا حُقُوقَ الْفَنِّ لِلْفَنَانِ
 مَتَنَوُّعِ الْأَلْوَانِ وَالتَّرْقِيعِ
 فَهَوَى، وَهَلْ يُزَجِّي ثَبَاتُ رَقِيعِ؟!
 غَرُّ وَلَذَّتُهُ مَعَ الْأَغْرَارِ
 كَالْبَبْغَاءِ يَشِيدُ بِالْأَنْوَارِ
 وَالنُّورِ؟ إِنَّ النُّورَ لَا يَرْضَاهَا
 فِيهَا الْأَشْعَةُ تَسْتَحِيلُ دُجَاهَا!
 أَنَا مَنْ شَدَوْتُ بِهِ سَنِينَ حَيَاتِي
 وَانْسَابَتِ الْأَمْوَاجُ فِي ذَرَاتِي
 غَيْرِي لِمَبْدئِهَا وَعَرَفَتْ كُنْهَهَا
 قَبْلًا وَمَنْ نَهَلُوا وَذَاقُوا حُسْنَهَا؟!
 وَنَرَى السَّوَائِمَ بِالْفَخَارِ تَصِيحُ
 وَنَرَى الْوَفَاءَ يُدَاسُ وَهُوَ جَرِيحُ!

هي مَلْجَأِي، كم في الحياة رَوَايَةٌ
 أُعْطَى تَعَالِيمِي السَّخِيَّةَ فِي غِنَى
 فَيَعُودُ مَنْ عَشَقُوا الْجُحُودَ بِذَمِّهَا
 مَتَظَاهِرِينَ بِحَلِيتِي وَجَوَاهِرِي
 يَا لِلْأَنَامِ وَلِلضَّمَائِرِ! مَا لَهَا
 سَخَرَتْ بِهِمْ صُورُ «الطَّبِيعَةِ» عِنْدَمَا
 وَتَبَجَّحُوا كَالْمَجْرَمِينَ، فَلِيتَهُمْ
 مِنْ كُلِّ جِلْفٍ خُلِقَهُ كِنَعَالِهِ
 كَمْ نَالَ مِنْ جَدَوَائِي فِي تَعْبِيرِهِ
 الْأَدْعِيَاءَ الْمَارِقُونَ، وَكُلُّهُمْ
 لَا يَعْرِفُ النُّورَ الْعَزِيزَ وَإِنْ يَكُنْ
 هَذَا النُّفُوسِ الْمَظْلَمَاتِ، فَمَا لَهَا
 ظَلَمَتْ مِنَ الْخُبْثِ الْأَصِيلِ فَأَصْبَحَتْ
 النُّورُ؟ لَيْسَ النُّورُ إِلَّا مُهْجَتِي!
 نَبَضَتْ بِأَمْوَاجِ الضِّيَاءِ عَوَاطِفِي
 وَطَلَاقَةُ الْفَنِّ الَّتِي لَمْ يَنْتَصِرْ
 أَيْعِيبُهَا الْأَحْلَاسُ مَنْ فُتِنُوا بِهَا
 عَشْنَا إِلَى زَمَنِ نَرَى أَمْثَالَهُمْ
 وَنَرَى الْمَآثِرَ لِلْجُحُودِ غَبِينَةً

العيدان

(في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٤ بمناسبة قيام الوزارة النسيمية.)

فوق الهوى ونوازع الأحقاد
 يتهالكون تهالك الأضداد
 لولا تَوَثُّبُ مَهْجَتِي وَفَوَادِي

كم صَحْتُ فِي قَوْمِي، وَصَبِحَةٌ مُهْجَتِي
 كَمْ صَحْتُ أَدْعُو لِلتَّوْحِيدِ حِينَمَا
 فَرَجَمْتُ حَتَّى كَدْتُ أَيَّاسٌ مِنْ أَسَى

فَوْقَ الْعُبَابِ

وَشْتِمَتْ مَنْ يَجْعَلُونَ هُمومَهُمْ
فَالْيَوْمَ يَنْقَطِعُ النَّبَاحُ وَيَعْتَلِي
وَيُصِيخُ رَبُّ الْعَرْشِ غَيْرَ مُحَجَّبٍ
وَنَرَى الْبِنَاءَ وَقَدْ تَصَدَّعَ عَائِدًا
لَا خَيْرَ فِي بِنْيَانِ قَوْمٍ قَائِمٍ
لَا خَيْرَ فِي الْأَحْزَابِ حِينَ رَجَاؤُنَا
بَذَرَ الْخِلَافِ وَإِنْ أَفَادَ الْعَادِي
خُلُقَ الرِّجَالِ وَحِكْمَةَ الْقَوَادِ
عَنْ شَعْبِهِ، وَيَسُودُ صَوْتُ الْوَادِي
كَمَا تَرَى الْأَمْجَادِ فِي الْأَجْدَادِ
فَوْقَ الْخِلَافِ وَفَوْقَ كُلِّ عِنَادٍ
عَهْدٌ لِمِصْرَ وَلِلْمَلِيكِ «فَوَادٍ»

* * *

مَنْ مُبْلَغُ الزَّعْمَاءِ رُوحَ أَخُوِّ
عِيدَانٍ: عِيدٌ لِلْجِهَادِ وَلِلْمَنَى
فِي يَوْمِنَا الْمَعْدُودِ فِي الْأَعْيَادِ
وَكِلَاهُمَا أَحْيَاهُ طَوْلُ جِهَادٍ

العهد الجديد

(إلى صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا بمناسبة فوزه الدستوري يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤).

صُنْ عَرْشَ «مِصْرَ» وَصُنْ «لِوَادِي النِّيلِ»
يَا مُنْقَذَ الْوَطَنِ الْجَرِيحِ بِبَأْسِهِ
هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي رَجَّيْتُهُ
وَزَعِيمَهُ الْأَسْمَى^{١٠٨} يُحَجِّبُ صَوْتَهُ
عَنْ صَاحِبِ الْعَرْشِ الْمُفَدَّى حِينَمَا
كُنْ أَنْتَ بِاسْمِ الشَّعْبِ وَاسْمِ الْعَرْشِ مَنْ
كُنْ مُسْتَبَدًّا عَادِلًا، فَكْفَى كَفَى
كُنْ مُسْتَبَدًّا عَادِلًا، وَاعْمَلْ عَلَى
وَاعِدْ لَنَا الْيَوْمَ الْمَرْجَى عِيدُهُ

حَرِيَّةً تَبْقَى بَقَاءَ «النِّيلِ»
وَبِحَذَقِهِ الْمَشْهُودِ وَالْمَكْفُولِ
وَالشَّعْبُ بَيْنَ مَصْفَدٍ وَذَلِيلِ
وَتَحَجَّبُ الْأَحْزَابُ صَوْتَ الْجِيلِ
ضَلَّتْ صَوَالِحُنَا بِغَيْرِ دَلِيلِ
يُرْجَى رَجَاءً مُؤَصَّلٍ وَوَكِيلِ
أَضْغَاثُ أَحْزَابٍ وَبَطْشُ دَخِيلِ
تَطْهِيرِ «مِصْرَ» بِصَدَقِ الْمَأْمُولِ
عِيدٌ يَبْزُ سِنَاهُ كُلَّ مَثِيلِ

^{١٠٨} مصطفى النحاس باشا.

وزعيمُ «مصر» الألمعيُّ زعيمُها
يا للسنينِ مَضَتْ أَمَامَ تجارِبِ
ضاعتُ كما ضاعتُ جهودٌ حولها
ما كان أولها بمصرَ بنايةً
كم مِنْ مواهبٍ سُخِّرَتْ لمقابِحِ
تلك السنونُ فِدَى ويا بنَسِ الفِدَى
حتى تُشارفَ «مصرُ» عهدَ أخوَّةِ
في ندوةِ التمثيلِ^{١٠٩} لا التمثيلِ^{١١٠}
ضاعتُ ضياعَ مَهازلٍ وهزِيلِ
ومضتُ بكلِّ قَتِيلَةٍ وقَتِيلِ
وتضامناً نرعاه بالتبجيلِ
ما كان أحرأها بكلِّ جميلِ
للحقِّ منتزَعاً مِنَ التَضليلِ
وطهارةِ كسَماءِ «وادي النيلِ»

لبوا نداء الوطن!

(قيلت في تعزيز مشروع القرش).

لَبُّوا نِدَاءَ الوَطَنِ لَبُّوا نِدَاءَ الحِياهِ
لِكلِّ مَجْدٍ ثَمَنُ والمجْدُ مَجْدُ البِناءِ

* * *

أبناءَ «مصر» اطرحوا هذا الجمودَ السقيمُ!
هل يَرتجى مَطْمَحُ مِنْ غيرِ جُهدٍ عميمٍ؟
لا شيءَ في الكونِ يحيا بغيرِ حزمٍ ودأبِ
ولا الممالكُ تُبنى إِلَّا بعقلٍ وقلبِ
هَلُمَّ أبناءَ «مصرًا» هَلُمَّ! بعضُ الزكاهِ
خَذُوا العِظائمَ قهراً بالجهدِ أَخَذَ الدُّهَاهُ
إنَّا بعصرٍ لئيمٍ يَثورُ فيه الأبى
وكلُّ باكٍ غريمٍ يدوسُه كلُّ حي

^{١٠٩} البرلمان الحقيقي.

^{١١٠} البرلمان المصطنع.

فَوْقَ الْعُبَابِ

لن تُرْجِعُوا مَجْدَ «مِصْرَ»
لن يَعْرِفَ الدَّهْرُ حُرًّا
فكيف «بالقرش» يَغْلُو؟
تَقْدَمُوا أَوْ فَخَلُّوا
«الشمس» جادتْ عليكم
فكيف ترضون أنتم
و«النيل» مِنْ رُوحِهِ
فأينَ مِنْ نَفْحِهِ
إِلَّا عَلَى التَضَحِياتِ
إِلَّا عِدُوَّ المِمَاتِ
وكيف يَسْمُو البِنَاءُ؟
هتافكم والرَّجاءُ
بالتبرِ قَبْلَ الحَنِينِ
بكلِّ قولٍ ضنينٍ؟!
ضَحَى لروحِ البِلادِ
ذاكَ الهتافِ المُعادَى؟!

* * *

لَبُّوا نداءَ الوطنِ
لكلِّ مَجْدٍ تُمَنِّ
لَبُّوا نداءَ الحياهِ
والمجدِ مَجْدُ البِناءِ

تحية المؤتمر الوطني

(نظم الوفد المصري مؤتمراً وطنياً عظيماً سيعقد بالقاهرة في مستهل سنة ١٩٣٥م فرحب به مقدماً صاحب الديوان بهذه القصيدة.)

لقد ثَبَتَ الحَقُّ حتى انتصرَ
وعادتْ «لمصر» معاني الحياةِ
تباركتْ يا عيدَ هذي الحياةِ
لقد دفتنا سِنينَ الظُّلامِ
وقد أرهقتنا العوادي الجِسامِ
وعادتْ أغاني السلامِ الحبيبِ
وكم في العيونِ دُموعٌ تَرفُ
وكم في القلوبِ حُفوقٌ عميقُ
وقد غرَّدَ الآنَ طيرُ الخريفِ
وقد زَيْنَ الأفقَ مِنْ كلِّ لونِ
وأذعنَ للمؤمنينَ القدرَ
ليدوي بها بَعثُنا المنتظرَ
ويا صيحةَ الحقِّ في «المؤتمر»
وإن لم تَنلْ مِنْ كمينِ الشرِّ
ومرَّتْ مَرورٌ طيوفِ الضُّجرِ
كأنَّ الكفاحَ خيالٌ عَبْرُ
بشكرٍ كما رَفَّ دَمعُ الزَّهرِ
كخفقِ الجناحِ لطيرِ نَفْرُ
كأنَّ الربيعَ السريَّ ابتدرَ
جمالاً، وقبلًا بكى واستعرَ

وأخلص «للنيل» صوتُ النسيم
 وحتى المني بحفيفِ الشجرِ
 وشاركنا «رمضان» الوسيمُ
 وما كان «للعيد» معنًى لديه
 تطلّع^{١١١} في شوقنا للجديد
 وحتى المؤذنُ في لحنه
 فلم ندرِ كالفجرِ إلهَ شعراً
 كذلك حرّيةُ الناسِ نبعُ
 وتبعثُ نفحتها الميَّتينِ
 ويصدحُ في نورها كلُّ شيءٍ

* * *

لقد ثبتَ الحقُّ حتى انتصرَ
 وعادتْ لمصرَ معاني الحياةِ
 سئمنا تكاليفَ تلك السنينِ
 سئمنا تفككَ خيرِ الروابطِ
 وما نال زُرَاعنا العاملينِ
 وتسخيرَ أقوى الذكاءِ الأبِّي
 كأنَّ الزكاةَ لحكمِ الطغاةِ
 سئمنا، سئمنا ... فيا مَرحبًا
 سيُنصفنا من مديدِ السُّباتِ
 سيرجعنا للإخاءِ الحميمِ
 وتشدو «الطبيعة» لحنًا طريفًا
 وتلمحُ «مصر» رجاءً جديدًا

وأذعنَ للمؤمنينَ القَدَرَ
 ليُدوي بها بَعثنا المُنْتَظَرَ
 وطولَ التَّقِيَّةِ بعدَ الحدَرَ
 بين القلوبِ وبين الأَسَرَ
 وقد سكنوا في قبورِ المدَرَ^{١١٢}
 لكلِّ ظلومٍ خئونِ غدَرَ
 دوامُ الأَسَى ودوامُ الخطرِ
 بوثبةِ عهدٍ جريءٍ ثأرُ
 كما أنصفَ الأرضَ هطلُ المطرِ
 فيغدو الإخاءُ بنا المنتصرِ
 من الحُبِّ في كلِّ معنًى عَطَرَ
 لمجدٍ جديدٍ وعهدٍ نَضَرَ!

^{١١١} أي شهر رمضان.

^{١١٢} المدر: القرى.

* * *

لقد ثبتَ الحقُّ حتى انتصرَ
وعدتْ لمصرِ معاني الحياةِ
تباركتَ يا عيدَ هذي الحياةِ
ويا صيحةَ الحقِّ في «المؤتمِر»!

وأذعنَ للمؤمنينَ القدرَ
ليدوي بها بعثنا المنتظرَ

صِيَامٌ وَصِيَامٌ

تَصُومُ كَأَنَّمَا «رَمَضَانُ» يَأْبَى
فكم من صائمٍ قد كان يُغْرَى
تَفَرَّقْنَا طَوِيلًا فِي حُرُوبٍ
سوى صَوْمِ الْمَتَابِ مِنَ الذُّنُوبِ
بتمزيقِ السرائرِ والقلوبِ
فَلَطَّخْنَا بِأَوْزَارِ الحُرُوبِ

أدباً ونا

كم جاهلٍ فيهمُ يتيهُ كأنما
قنعوا بألوانِ الغرورِ فما لهم
كم يَرجمونَ النابهينَ ولو دَرَوْا
النابهونَ؟! همُ الحياةِ لجيلنا
مَنْ ذَا يُحَقِّرُهُمْ فَيَحَقِّرُ نَفْسَهُ
حَظُّ الجهالةِ من صفاتِ نبيِّ!
جَلَدٌ على الأدبِ الرفيعِ الحيِّ
نَثَرُوا الزُّهُورَ لِفَاتِحِ وَأبِيِّ
وهمُ الدليلُ لعصرنا الذَّهَبِيِّ
إِلَّا مُرَادِفُ جاهلٍ وغبِيِّ؟!

الفأر الطائر

(الخفاش)

تُظَنُّ طَيْرًا هَوَاهُ
وَأنتَ تُشْبِهُ فَأرًا
لِلشاطيءِ المجهولِ
في خِفَّةِ المخبولِ

طالَتْ يَدَاكَ وَهَذَا	بين الأنام الشَّبِيه
طالَتْ يَدَاهُ وَأَمْسَى	غِنَاهُ سَطَوَ السَّفِيه
قَدْ قَبَّحَ اللُّؤْمُ وَجْهَهُ	كَمَا قَبَّحَتْ بَوَجْهَكَ
وَأَفْسَدَ الخَبْثُ طَبْعَهُ	كَمَا خَبَّثَتْ بِطَبْعِكَ
كَمَا تَعِيشُ يَعْيشُ	في الليلِ بين الخنافسِ
يَهْوَى الخِرَائِبَ حَتَّى	يَعَافَ نُورَ الفِرَادِسِ
وحيثُ طَارَ نُعَانِي	مِنْهُ المعاني الكريهه
رَوَائِحُ مُسَقِّمَاتُ	وما لها مِنْ شبيهه
تَنَامُ نَوْمًا عميقًا	مُعَلِّقًا رجليكَ
وَقَدْ تَمَّصُ دِمَاءً	للناسِ هانتُ لَدَيْكَ
لَكِنَّمَا أَنْتَ تَنَأَى	عن الدَّعاوى العريضه
وذا شَبِيهُكَ يحكي	هوى النفوسِ المريضه
كِنَّا حَسْبِنَاهُ طَيْرًا	مِنَ الطيُورِ السَّرِيه
لَكِنْ وَجَدْنَاهُ فَأَرًا	مِنَ الضُّرُوبِ الزَّرِيه!

وداع العام

وَدَعْتَ مَشْكُورًا عَزِيْزًا شَاكِرًا	وَعَدِمْتَ يَوْمَ قَدِمْتَ حُرًّا شَاكِرًا
بَلْ كُنْتَ فِي المَوْتَى اللِّثَامِ، وَلَمْ تَجِدْ	إِلَّا لثِيْمًا حَامِدًا لَكَ ذَاكِرًا
فَإِذَا المَمَاتُ قَدْ اسْتَحَالَ كِرَامَةً	وَعَدَوْتَ بِالثُّوبِ المَطْهَرِ طَاهِرًا
يَا عَامُ! عَشْ فِي الذُّكْرِيَاتِ مُخَلِّدًا	وَحُذِّ البِدِيلِ عَنِ الزَّمَانِ الخَاطِرًا
وَإفخِرْ بِأَيَّامِ بَوَاقِ عُمْرِهَا	عُمُرُ الشُّهُورِ بِلِ السَّنِينِ مَآثِرًا
كَفَّرْتَ عَنِ مَاضِيكَ حَتَّى أَنَّنَا	صَرْنَا نَرَى الشَّاكِيكَ غِرًّا كَافِرًا
وَلئِنْ وَرِثْتَ مِنَ المَسَاوِي زَاخِرًا	فَلقَدْ وَهَبْتَ مِنَ المَحَامِدِ زَاخِرًا
فَكُنْتَ يَدَاكَ قُيُودَنَا وَشُجُونَنَا	القَاتِلَاتِ مَوَاهِبًا وَضَمَائِرًا
وَعَدْتَ حَقُوقَ الشَّعْبِ عَيْنَ حَقُوقِهِ	مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ رُؤَى وَمَظَاهِرًا

فَوْقَ الْعُبَابِ

فَبَدَأَتْ عُمْرَكَ كَالْخِيَالِ وَجُودُهُ
لَا بَدْعَ، هَلْ عَيْشٌ بِلَا حُرِّيَّةٍ
بَلْ أَيْنَ حَظُّ الْمَوْمِيَاتِ رَهِينَةً
كُلُّ الْوُجُودِ مَمَاتُهُ بِقَيُودِهِ
تَخِذْ النُّظَامَ الْعَبْقَرِيَّ دَلِيلَهُ
وَالنَّاسُ لَيْسُوا غَيْرَ بَعْضِ كِيَانِهِ
عَزَّتْ، وَإِيمَانَ النُّفُوسِ شَوَاعِرَا
وَمَضَى جَرِيئًا فِي الْفَضَاءِ مُغَامِرَا
وَالكُونُ كَانَ وَمَا يَزَالُ الدَّائِرَا
أَوْ دُونَهَا شَعْبٌ تَوَتَّبَ قَادِرَا؟